جامعة وهران2

كلية العلـــوم الاجتماعية

اطروحة

للحصول على شهـــادة دكتوراه علوم

الموسومة بـــ

النظرية التاريخية والمنهج عند جون فيكو
دراسة تحليلية نقدية

إعداد الطالبة:

كلواز زوليخة

إشراف:

أ.د بوكرلدة زواوي

لجنة المناقشة :

أ.د بلحمام نجاة .....رئيسا .....جامعة وهران 2

أ.د بوكرلدة زواوي.....مشرفا ومقررا..... جامعة وهران 2

د. كبير محمد .....مناقشا..... جامعة وهران 2

أ.د حمادي هواري .....مناقشا..... جامعة معسكر

د. بن تراث جلول .....مناقشا..... جامعة سيدي بلعباس

د. بن يمينة محمد كريم .....مناقشا .....جامعة سعيدة

السنة الجامعية:2021/2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

أتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلي الأستاذ الدكتور المشرف :بوكرلدة نرواوي

علي قبوله الإشراف علي البحث .

اشكره علي إخلاصه وتفانه وحرصه الدؤوب في تقديم التوجيهات والملاحظات اسأل

الله

أن يمده بالصحة والعافية وطول العمر .

دمت أستاذا ,وآبا وفخرا لكل طلبتك .

إهـداء

إلي روح أبي الغالي رحمك الله

إلي أمي الحبيبة, أطال الله في عمرها .

إلي أختي وسندي في الحياة فتيحة .

إلي ولدي قرة عيني ريحانة ويونس .

مقدمة

المقدمة :

إن فلسفة التاريخ هي النظرة التي تعتبر التاريخ الإنساني بكل مكوناته بمثابة إدراك وتحقيق لمنهجية عامة من خلال دراسة وتحليل الظواهر التاريخية من زاوية تأملية تنطلق من واقع الظاهرة وهذه الزاوية تفترض وجود نظرية توجه قراءة الحدث التاريخي وتحليله، وهنا تكمن أهمية النظرية التاريخية بالنسبة لموضوع فلسفة التاريخ وبالنسبة أيضا للأنساق الفلسفية التي تدرس وتحلل الظاهرة التاريخية من جانب حدوثها وصيرورتها، وتحديد مسارها العام، وتهدف النظرية التاريخية إلى إيجاد معاني معينة للتاريخ الإنساني كما تحاول أيضا دراسة مجمل العوامل الجوهرية التي تؤثر في بناء الحادثة التاريخية وفي وضع القوانين التي تتحكم في نمو وتطور المجتمعات الإنسانية عبر مسارها التاريخي الطويل، كما تبحث فلسفة التاريخ في صيرورة المجتمع البشري وحراكيته و تتناول أسباب وظروف قيام المجتمعات وتطورها وتقدمها و أيضا تتناول أسباب انهيارها. لقد ارتبطت فلسفة التاريخ في العصور الحديثة الأوروبية بفكر الفيلسوف الإيطالي: "فيكو"، الذي كان من بين الفلاسفة الذين اهتموا بدراسة فلسفة التاريخ من خلال إيمانهم بقدرة العقل البشري على اكتشاف خبايا التاريخ، فهو بذلك اتخذ من حركة التاريخ إطارا عاما للكشف والبحث عن القوانين التي تحكم وتوجه التقدم وهو مفهوم محوري في فلسفة التاريخ عنده وكل أشكال التطور من ثم تفسيره على أسس عقلية.

لقد توخي " فيكو" في كتاب "العلم الجديد " الدقة والموضوعية ,بحيث يشعر الباحث وهو يطلع علي ثنايا الكتاب ,بأنه يبحث في التاريخ من اجل التاريخ العلمي ,فهو يحاول إن يسقط

الحاضر الذي عايشه علي الواقع التاريخي من خلال نظريته التاريخية الخاصة ولذلك نجده قد أبدع في وضع المبادئ والقوانين التاريخية التي تحكم تطور الأمم في بناء تاريخها .

ينتمي "فيكو " إلي أولئك المؤرخين الذين واجهوا الكتابة التاريخية بقراءة تنويرية تتماشي وتطور العلوم في صورتها الجديدة ,حيث وعلي سبيل المثال فقد اهتم باللغة التي تكتب بها المراحل التاريخية لان في ذلك فهم ووعي لتطور تاريخ الأمم ,حيث لكل امة لغة خاصة تكتب بها تاريخها لان اللغة في نظره تقليد منهجي يجعلنا نتعرف بشكل دقيق عن الواقع التاريخي للشعوب والأمم باعتبارها-أي اللغة –ظاهرة اجتماعية تعبر عن روح المجتمع بكل تفاعلاته.

لاينظر إلي التاريخ مع "فيكو" علي انه تاريخ الروايات والقصص ولا تاريخ الحكام بل تجاوزه ليتحول إلي تاريخ اجتماعي ثقافي ,ومع هدا النوع الجديد من الكتابة التاريخية تحول التاريخ بفضل "فيكو"إلي شكل من أشكال تطور علم الانثروبولوجيا ,وحول هذه النقطة ربما يلتقي "فيكو "مع" ابن خلدون" المؤرخ والاجتماعي ,لم يتوقف"فيكو" عند لحظات التاريخ بشخصياته ولم يكن ليتحدث ويكتب عن أشخاص عرفهم أو شاهدهم بل تجاوز ذلك إلي الحدث التاريخي في صورته العلمية المرتبطة بالتحولات الثقافية والاجتماعية ,لقد انطلق من الحاضر المنصهر فيه ليتساءل عن تاريخ الأمم السابقة ويبحث فيه لعله "يجد قانونا عاما" يحكم مسار تطور تلك الأمم من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية وحتى الانثروبولوجية ,ان النظرية التاريخية عند "فيكو" تدخل ضمن مسار تطور تاريخ الفلسفة النسق مع "هيجل " من خلال كتاباته التاريخية حول التاريخ والعقل والمطلق والحرية والذات وغيرها من المفاهيم الأساسية التي شكلت فلسفة

التاريخ عنده ,إن منهج الكتابة التاريخية عند "فيكو" يمكن النظر إليه أيضا من زاوية إعادة القراءة التاريخية لفلسفة الإغريق وفلسفة العصور الوسطي ,حيث حاول من خلالها إعادة اكتشاف الذات الأوروبية في صورة وجودها بمثابة انبعاث جديد للوعي الغربي.

لقد وظف فيكو في كتاباته التاريخية مصطلح التاريخ على أنه ما وقع للإنسان في الماضي وما كتبه وإذخره من معلومات ومعارف عن ذلك الماضي كما قصد به أيضا مجموع لأحداث والأحوال الخاصة التي تعيشها كل المجتمعات البشرية على مر الأزمنة المختلفة فيتحول التاريخ عنده بذلك إلى مادة معرفية ومنهجية خصبة عن حياة الإنسان ومستقبله الذي يصفه بنفسه بنسبة كبيرة، ينتمي "فيكو" إلى سلسلة أعلام فلاسفة التاريخ في الفكر الأوروبي الذين تميز منهجهم بالاتجاه صوب المفهوم العام للتاريخ الذي يتميز بصياغة النماذج والمفاهيم التي تشرح أهمية تأثير العوامل المادية والمناخية والطبيعية في حركية التاريخ الانساني وتحديد مساره العام، حاول" فيكو" أن يطبق المعنى القائل بأن المؤرخ عليه الاستفادة من علوم عصره ومعرفة قوانين المتغيرات من سنن طبيعية التي لها علاقة مباشرة في بناء الحياة البشرية.

إن المهتمين بالتاريخ يطرحون الأسئلة نفسها على مر التاريخ منها، هل يمكن للمؤرخ وهو يدرس الأحداث والظواهر التاريخية أن يتجرد من ذاتيته فيدرس الماضي دراسة موضوعية ويستطيع وفق ذلك وضع أسس لنظرية تاريخية تحكم مسار وتطور التاريخ البشري؟ .إن هذا التساؤل يقودنا إلى دراسة وتحليل المنهج التاريخي للفيلسوف "فيكو"، إن القراءة الأولية والضرورية لفكر "فيكو" في جانبه التاريخي تحيلنا للوقوف أمام مؤلفه الأساسي حول فلسفة التاريخ وهو" العلم الجديد"

الذي وضعه سنة 1725م في فترة الأنوار، ومن خلال هذا المؤلف الجوهري في فلسفة التاريخ نستطيع أن نطرح الإشكالية الأساسية للأطروحة، وهي هل يمكن اعتبار الفيلسوف "فيكو" واضعا لمبادئ أساسية لميلاد نظرية للتاريخ؟، وتتفرع عن هذه الإشكالية المحورية والأساسية، مجموعة من التساؤلات الفرعية والجزئية والتي يمكنها أن تتمم البناء الفلسفي للنظرية التاريخية عنده وهي، هل أعمل "فيكو" العقل في ترتيب وتحليل الأفعال الناجمة عن إرادة الإنسان؟ ولماذا حاول "فيكو" تفسير النظرية التاريخية بواسطة العناية الإلهية؟ وهل تمكن "فيكو" من فصل الأخلاق عن التاريخ؟ وهل وجدت أسسا للنظرية التاريخية عند "فيكو" في الفلسفات السابقة ونعني بها الفلسفة الإغريقية والفلسفة المسيحية في العصور الوسطى والفلسفة الإسلامية مع أقطاب فلسفة التاريخ؟

إن تصفح كتاب "العلم الجديد" من خلال القراءات التي عالجته والتي اعتمدنا عليها في الرسالة جعلنا نكتشف بعض جوانب الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال الأفكار الأساسية التي حاولنا معالجتها داخل مباحث هذا العمل، سواء بطريق مباشر من خلال التعرض لأهم مباحث كتاب" العلم الجديد" أو بطريق غير مباشر عن طريق الاستنتاج والنقد العلمي للكثير من أفكار الكتاب.

ومن أجل دراسة وتحليل الإشكالية المحورية مع تفرعاتها الجزئية حاولنا وضع مخطط منهجي للأطروحة بتقسيمها إلى ثلاثة فصول أساسية، اجتهدنا في الفصل الأول في دراسة الأسس الفلسفية للنظرية التاريخية قبل "فيكو" وحاولنا إبراز الأسس الأولى لميلاد النظرية التاريخية والمنهج عند الإغريق من خلال بعض النماذج الفلسفية التي ظهرت معها البدايات الأولى للنظرية والمنهج في

التاريخ وإن كانت تفتقد لبعض النضج المعرفي والحس الفلسفي، كما حاولنا الوقوف عند موقف فيكو العصور الوسطى من التاريخ في أوروبا وكان تركيزنا على ربط التاريخ بالدين المسيحي من خلال دراسة بعض النماذج المعرفية وتوضيح مناهجها من خلال ربطها بمظاهر الكتابة التاريخية في تلك الفترة، كما حاولنا الإشارة بشيء من التفصيل إلى النظرية التاريخية والمنهج التاريخي عند بعض النماذج من الفكر الفلسفي الاسلامي مثل: الطبري، والمسعودي ، وابن خلدون، هذا الأخير الذي ظهرت معه ملامح الفكر الفلسفي التاريخي من خلال المنهج الذي عالج بواسطته الظواهر التاريخية حيث ظهرت معه الأسس الفلسفية للنظرية التاريخية.

وحاولنا في الفصل الثاني والثالث دراسة المنهج الفلسفي والنظرية التاريخية عند الفيلسوف "فيكو" من خلال طرح الأفكار الأساسية لمنهجه ولنظريته التاريخية حيث تناولنا بالتفصيل النقاط الأساسية الآتية :

درسنا بشيء من التحليل السيرة الذاتية للفيلسوف "فيكو" والواقع التاريخي الذي نشأت فيه فلسفته التاريخية والاجتماعية بالنظر إلى فلسفات عصره، ثم طرحنا مبادئ وأصول العلم الجديد حيث اعتبر "فيكو" التاريخ قاعدة أساسية لجميع العلوم، ومن هذه النقطة بدأت تظهر الملامح الأساسية لبروز النظرية التاريخية والمنهج التاريخي في فلسفة التاريخ عنده، كما حاولنا دراسة وتحليل أسس النظرية التاريخية عند "فيكو" وتأثيراتها حيث قمنا بتحليل ودراسة قانون تطور الأمم، الذي يمر بمراحل طبيعية وهي النشأة والنمو والتطور كما تطرقنا إلى مبادئ النظرية التاريخية من خلال شرح طبيعة علم التاريخ وأسس المعرفة التاريخية التي تعتمد على مجموعة من الأبعاد أهمها

البعد الاجتماعي والبعد التاريخي، وقد كان لقانون تطور الأمم تأثير كبير على مبادئ فلسفة التاريخ، فيما بعد الأمر الذي أدى إلى ظهور دراسات بعد "فيكو" تحاول شرح نظريته التاريخية وإظهار أهمية جوانبها الاجتماعية حيث تطرقنا إلى ثنايا بعض هذه الدراسات في الفكر الفلسفي الغربي، ثم وضعنا خاتمة احتوت على مجموعة من الاستنتاجات تتعلق بفلسفة فيكو ونظريته التاريخية وآفاق البحث حول واقع النظرية التاريخية.

ولدارسة وتحليل المباحث الأساسية للأطروحة المتميزة بالتحليل والنقد وذكر المبادئ التاريخية التي تميزت بها النظرية التاريخية عند "فيكو"، فإن المنهج المتبع كان منهج تحليليا تاريخيا مع ظهور بعض ملامح المنهج النقدي في ثنايا أفكار الأطروحة حول طبيعة المنهج والنظرية التاريخية عند "فيكو"، كما قمنا بعرض النصوص وشرحها بعد ترجمتها ومحاولة المقارنة بين النظرية التاريخية عند فيكو وبعض الأنساق المعرفية أخرى التي تناولت النظرية التاريخية بالتحليل والدراسة.

وتبرز أهمية المنهج التحليلي في معرفة مضمون واتجاهات النص وأهدافه والدوافع التي من اجلها وضع "فيكو" تلك النصوص المتعلقة بالنظرية التاريخية والمنهج ,لقد دعم "فيكو" نصوصه بتقديم البراهين اليقينية علي صحة احكامه التي وضعها حول التاريخ وحول كتابه "العلم الجدبد" علي وجه الخصوص .

ومع هذا المنهج حاولنا عرض أفكاره التاريخية عن طريق الشرح والتوضيح لكمل نصوصه وكان هدفنا من ذلك التركيز علي ادراك الموضوعية في شرح أفكاره وذلك لايكون الا بعملية

النقد التي يسمح لنا المنهج بتوظيفها وذلك من اجل إتمام عملية شرح وقراءة النص ووضع بعض الاحكام عليه من خلال بعض فقرات الاطروحة .

أما بالنسبة للدراسات السابقة حول الموضوع بصورة إجمالية، فيمكننا القول أنه من الجانب الأكاديمي الجامعي فقد اطلعنا من خلال عملية البحث على بعض النقالات لبعض الباحثين حول الفكر التاريخي عند "فيكو" من خلال بعض المواقع الإلكترونية غير أنها لم تكن في إطار بحث جامعي ولذلك تم تجاوزها ولكننا حاولنا من خلالها أن نتعرف على بعض التوجهات الفلسفية التاريخية عند "فيكو".

واجهتنا بعض الصعوبات أثناء دراستنا منها ما تعلق بجانب البحث ومنها ما تعلق بالجانب المعرفي حيث أننا اعتمدنا على نسخة "العلم الجديد" باللغة الإنجليزية للمؤرخ "فيتش هارولد"، حيث الدراسات والكتابات التاريخية حول "فيكو" فهي نادرة، لكن هذه العوائق لم تثنينا في بذل كل الجهد والعزم لإثراء العمل وتقديم دراسة جادة حول الموضوع، لأن فلسفة "فيكو" تحتاج فعلا إلى التعمق في دراستها، لأن ما أكتشف حوله ما هو إلا القليل مما حاول فيكو تقديمه.

وحاولنا من خلال هذه الدراسة طرح بعض آفاق البحث حول ضرورة إعادة القراءة الفلسفية المعمقة حول الفكر التاريخي عند "فيكو" من خلال دراسة بعض الأنساق المعرفية التاريخية التي ظهرت بعده.

الفصل الأول

أسس النظرية التاريخية والمنهج قبل "فيكو"

المبحث الأول: الإغريق والنظرية التاريخية والمنهج

المبحث الثاني: الفلسفة المسيحية والتأسيس لعلم التاريخ

المبحث الثالث: النظرية التاريخية والمنهج عند مؤرخي الإسلام .

الفصل الأول: أسس النظرية التاريخية والمنهج قبل "فيكو"

شبكة المفاهيم الأساسية :

تتطلب كل الدراسات الفلسفية الإحاطة المسبقة بتحديد معاني، أو تعاريف للمفاهيم الأساسية المرتبطة بالموضوع، وبما أن دراستنا تتعلق بفلسفة التاريخ يمكن أن نحدد بعض المفاهيم والتي رأيناها أساسية كالتالي: النظرية، المنهج، النقد، التاريخ.

أ. النظرية:

النظرية مصطلح متداول في كل العلوم وتختلف دلالته من علم لآخر، وتعرف عادة على أنها مجموعة من المفاهيم والألفاظ تفسر بواسطتها الكثير من الظواهر العلمية في كل حقول المعرفة الإنسانية، وهي نوع من البناء الفكري يتميز بالشمولية وترتبط فيها النتائج المتوصل إليها بالمقدمات، ومصطلح" نظرية" lheory، مشتق من اللغة اليونانية ويقصد بها إمعان النظر في الأشياء وحافظت على معناها الأصلي في الحضارة الإسلامية وفي الحضارة الغربية حيث بدأت المعرفة العلمية الدقيقة في الظهور بالاعتماد على قوانين ومعايير محددة بعد دراسة دقيقة "وأطلق تعبير النظرية على ذلك النوع من المعرفة الذي يفسر جوانب من الواقع وتستعمل أيضا للدلالة على ما هو نقيض للمعرفة السطحية والعامة، وكل معرفة تقوم على منهج ونظام مرتبط بمفاهيم دقيقة وهي ترتبط بمجموعة من الآراء يضعها فيلسوف في مجال من مجالات المعرفة على مسائل معينة" [1].

[1] كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الإسلامي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1، 200م، ص 603.

والنظرية هي قضية نثبتها ببرهان دقيق وينظر الفلاسفة لها على أنها تركيب عقلي يتشكل من مجموعة من التصورات يتوصل بها الباحث إلى نتيجة ترتبط بمقدماتها، " أما النظرية العلمية الجزئية تدل على تركيب عقلي واسع يهدف إلى تفسير عدد من الظواهر بحيث يقبله أكثر العلماء من جانب ما هو فرضية قريبة من الحقيقة ومثال ذلك نظرية الذرة "[1]

وهي أيضا تصور أو فرض أشبه بالمبدأ له قيمة التعرف على نحو ما يتسم بالعمومية وينتظم علما أو عدة علوم، ويقدم منهجا للبحث والتفسير ويربط النتائج بالمبادئ[2]

فمثلا حاول "فيكو" إقامة نظرية في تفسير حركة التاريخ انطلاقا من ربط النتائج التي توصل إليها، مثلما سنرى لاحقا ـــ بتطور المنهج العلمي عند فرنسيس بيكون حيث ربط التاريخ بكل مجالات المعرفة.

ب- المنهج:

تتعدد تعريفات المنهج إصطلاحا إلا أنها تتفق على أن المنهج ذلك الطريق الواضح والمحدد في مجال دراسي معين فهو" السلوك البين والسبيل المستقيم والمنهج الدراسي أو خطة الدراسة لمجموعة من المواد الدراسية والخبرات العملية الموضوعية لتحقيق أهداف التربية."[3]

بالتالي فالمنهج هو ذاك السبيل الذي يتبع في بحث أو دراسة، يتخذ أهدافا واضحة وآليات محددة، ومع تطور العلم في العصر الحديث، أصبحت كل العلوم دون إستثناء تقترن بالمناهج

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط، 1982، ص477.

[2] الحنفي عبد المنعم، المصطلحات الفلسفية، الكتاب المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفية، الناشر المكتبة مديولي، القاهرة، ط3، 200م، ص 880.

[3] -صليبا، جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية ج2، دار الكتاب البناني، بيروت،د,ط،1979،ص435.

العلمية. وتضع هذه المناهج شروطا بحيث يجب على المنهج الدراسي الصحيح أن يتلائم مع" الظروف الطبيعية والبيولوجية، وأن يكون مستمدا من حاجات المتعلم وثقافة المجتمع، أن ترتبط موضوعاته بشؤون الحياة الحاضرة وأن تكون خبراته وطرقه ووسائله متماسكة."[1]

ج- النقد:

النقد هو استخراج العيوب والكشف عنها والناقد هو الذي يتحرى في أصل العلل لذا " يقال نقدت الدراهم وانتقدتها بمعنى أخرجت منها الزيف، والانتقاد عند المحدثين هو التعليل".[2]

ومن شروط النقد يجب توفر الروح النقدية بكل ما تعنيه من التدقيق والحياد نحو الآراء والأفكار.

د- التاريخ:

"جملة الأحوال والأحداث التي يمر بها كائن ما، وتصدق على الفرد والمجتمع كما تصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية، وعد"هيجل"التاريخ جزءا من الفلسفة لأنه ليس مجرد دراسة وصفية، بل هو أقرب الى التحليل وبيان الأسباب"[3]

وبهذا فالتاريخ يبحث في الوقت والزمان وفي كيفية نشأة الدول والأمم وتطورها وما تركته من آثار وفي هذا المقام يجب التأكيد على أن التاريخ يختلف عن الأسطورة، ذلك أن الأسطورة

[1]-صليبا، جميل، المعجم الفلسفي ج2، ص935.

[2]-الحفصي، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص894.

[3]- المذكور، ابراهيم، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،د,ط1402ه، 1982م، ص36.

تعتمد على الخيال وتبتعد عن الواقع في حين أن التاريخ" عرض منظم ومكتوب في الغالب الأحداث المتعاقبة ومحاولة الكشف عن أسبابها وبيان ما بينها من ترابط وتداخل."[1]

المبحث الأول: الإغريق والنظرية التاريخية والمنهج

عرف الإغريق التاريخ شأنهم شأن العرب "والحضارة الاغريقية لم تكن تقتصر على بلاد اليونان كما نعرفها الآن بل إنهم أسسوا مستعمرات على الساحل الإفريقي نثل قورينه في ليبيا حاليا"[2]. إذن فالقول بالحضارة اليونانية والحضارة الإغريقية لا تجعلها ترتبط فقط ببلاد اليونان،وإنما فقد نشأت في مناطق أخرى مثل الساحل الافريقي وسواحل آسيا الصغرى ومناطق أخرى. وبهذا نرى أن الإغريق قد عرفوا الاجتماع الانساني. فكيف ساهم هذا الاجتماع في الوعي التاريخي عند اليونان؟

ملامح الوعي التاريخي عند اليونان:

لا شك أن الدين والمجتمع يلعبان دورا أساسيا في توحيد الأفكار وتطوير القيم، وقبل الحديث عن الوعي التاريخي لدى اليونانيين لابد من تحديد معتقداتهم الدينية.

[1]-نبهان، يحي محمد، معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط2006، ص84.

[2] صبحي، أحمد محمود وآخرون، في فلسفة الحضارة اليونانية، الاسلامية،الغربية. دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص 23.

التطورات الدينية عند اليونانيين:

لم يعرف اليونانيين عقيدة دينية موحدة بحيث "لم يكن هناك في اليونان القديمة هيئة منظمة من رجال الدين تعمل على نشر عقائد ثابتة واجبة، وكان الدين نفسه مختلطا بالأساطير، حافلا بالخرافات، ممتزجا بالغيبيات من كل نوع"[1].

إن غياب عقيدة دينية واحدة تجمع بين اليونانيين، أدى بالفلاسفة إلى الاستهزاء بالأمور التي تخص الدين،فما كان منهم إلا أن يتعالوا على الآلهة والسخرية منها والسمة التي تبرز في هذه المرحلة هي أن "فلاسفة اليونان بذلوا جهدا كبيرا في رفع العقل وتقوية دعائمه، وحاولوا اتخاذه مبدءا للإنسان والكون جميعا"[2]. يتوضح لنا مبدئيا أن العقل قدس عند اليونانيين الأوائل ومنهم الفيلسوف اليوناني "أرسطو" الذي سمى العقل الإله، وهكذا كان العقل هو العنصر الفاعل في عقيدة اليونانيين لدى الفلاسفة، لكن ما يهمنا نحن هو الحكم على وجود عقيدة دينية واحدة من عدمها، ويمكن القول أن وجود عقيدة موحدة لمشاعر اليونانيين لم توجد، إذ ارتبط الدين بالأساطير والخرافات تارة، وتارة بالعقل.

إن غياب سلطة دينية حفزت "الإغريقي إلى معرفة نشأة الكون وأصل الانسان، ثم مصيره بعد الموت ومن ثم كانت المشكلة الفلسفية لدى الفلاسفة الأوائل السابقين على سقراط تتعلق بمبحث الوجود، إذ لم تعد الأساطير صالحة لمجتمع دخل مرحلة النضج, ومن ناحية أخرى لم تكن

[1] محمد، على عبد المعطي، المدخل إلى الفلسفة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، دط، 1994 ص 194.

[2] المرجع نفسه، ص 194.

هناك سلطة كهنوتية تقيد الفكر"[1]. إذا فالعقل الإغريقي كان متحررا من سلطة الدين، لأنه لم يقدم للإغريقي الإجابات المقنعة عن تساؤلاته واستفساراته، حول نشأة الكون وما بعد الموت، كما أن الحياة الأخلاقية لم يحكمها الدين، وإنما وضعية "يرجع معظمها إلى "هزيود" وكتابه "الأعمال والأيام" الذي ينطوي على مبادئ أخلاقية ومواعظ كتبها لأخيه، فيه أيضا أول تفسير لمسار التاريخ غلى أساس من دورات: عصر ذهبي فيه سعادة مطلقة ثم عصر فضي بدأ الإنسان يعرف فيه الآلام، ثم عصر نحاسي عرف فيه الإنسان الحروب والقتل، ثم عصر حديدي وفيه جيل فاسد يعرف الرشوة والخيانة وعقوق الآباء، وتنتهي هذه الدورة لتبدأ دورة جديدة"[2]. يتوضح أن الإغريق بالرغم من عدم وجود دين ينظم ويشرع ويقنن الحياة الإجتماعية والأخلاقية. إلا أنهم تركوا لعقل الإنسان مجال ليكون هو السيد ويبتدع لنفسه أنماطا متنوعة من المعرفة، فهل ياترى استطاع هذا العقل أن يجمع اليونانيين في نظام المدينة؟.

دولة المدينة البوليس polis :

إن الاغريقيين عرفوا الاجتماع في إيطار المدينة، بحيث كل مدينة لها استقلالها الذاتي "والتاريخ اليوناني هو سجل للمدن المستقلة التي تناثرت في أرجاء جزر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط ولكل منها رقعة صغيرة من الارض وكانت كل هذه المدن الصغيرة تتمتع بالإستقلال السياسي التام، وترقى بمنظماتها التي تتميز بها في سبيل التقدم"[3].نفهم من هذا أن اليونانيين لم

[1] صبحي، أحمد محمود وآخرون، في فلسفة الحضارة، ص 37.

[2] المرجع نفسه، ص 30.

[3] خريسات، محمد وآخرون، تاريخ الحضارة الانسانية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، دار اليازوري، عمان الأردن، ط1، 2011 ، ص 101.

يعيشوا في إطار الإمبراطورية الواحدة، لذا فنجد أن وطنيتهم كانت مدنية وليست قومية والمواطن هو جوهر المدينة ولبها، وسمي الشعب عندهم "بالديموس" إن هذه الاستقلالية التي كانت تتمتع بها كل مدينة، أطلقت العنان للعقل بالتفكير في نشأة الكون فتعرض الكثير من الفلاسفة للآلهة وإن عوقب فإنه سيسافر إلى مدينة أخرى مثلما حدث "لأرسطو و أنكساجوراس" إذن، نلحظ بوضوح طغيان النزعة الفردية على الفكر اليوناني، وهذا الأمر كان عاملا إيجابيا يساعد كثيرا على نشأة الفلسفة التي هي أهم وأعظم مظهر من مظاهر عبقرية الفكر الإغريقي، فقد تجاوزت الفلسفة زمن حضارة الإغريق حدود بلاد اليونان، فقد تأثر بها حتى الفكر الأوروبي في العصور الوسطى، ويظهر أيضا تأثر فلاسفة الإسلام بالفلسفة اليونانية عندما أقاموا عمليات التوفيق بين العقل والنقل ومنهم "ابن رشد" .

يتبن لنا من خلال تعرضنا للتصورات الدينية ونظام المدينة ، عند اليونانيين أنهما كانا عاملين مساعدين على تشكل الوعي التاريخي، وبهذا فالوعي التاريخي وجد عند الإغريقيين، هذا الأمر يقودنا بالضرورة إلى التساءل : هل عرف الإغريق علم التاريخ؟.

نشأة علم التاريخ عند الإغريق:

نشأ علم التاريخ عند الإغريق في البداية بين أحضان الأسطورة والخرافة، لذا كامن الملاحم والأشعار التي تصور الأبطال في شكل أسطوري خرافي، لكن بعد توسع حضارة الإغريق وانفتاحها على حضارات البحر الأبيض المتوسط، بدأ التفكير العقلي يطفو على السطح وأخذوا يبتعدون عن الأسطورة والخرافة، فظهرت الإبتكارات في مجال الفلك والهندسة فقد تنبأ طاليس في الماضي بكسوف الشمس عام 585 ق.م. كما ظهر "علم خاص أطلق عليه الإغريق "الشوريا"

أي التاريخ بدأ علماؤهت يجوبون الآفاق ويدرسون المدنيات القديمة ويتعرفون على شعوب شرق أوروبا. أول من برز من هؤلاء "هيكتوس" الذي ولد في حوالي 546ق.م في الملطية"[1] . إذن الإغريق تعرفوا على التاريخ في أشكاله الأولى البسيطة الخالية من المنهج العلمي الدقيق، وإن صح القول سنسمي هذا التاريخ بالمعرفة التاريخية.

صور وأشكال المعرفة التاريخية عند الإغريق:

مرت المعرفة التاريخية عند الإغريق بمراحل، وأثرت فيها ظروف سياسية وفكرية ودينية في اعتقادنا يمكن أن نقسم هذه المراحل إلى مرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى نستطيع أن نطلق عليها إسم ولادة الوعي التاريخي الاغريقي المرحلة الثانية نمو الوعي التاريخي الإغريقي، ولكل مرحلة من هاتان المرحلتين الخصائص الخاصة بهما.

1-ولادة الوعي التاريخي الإغريقي:

يمكن تحديدالفترة الزمنية لهذه المرحلة إبتداءا من القرن 12 ق.م إلى القرن السادس ق.م ،وقد تمثلت ملامح الوعي التاريخي "في ملحمتي الإلياذة والأوديسا التي تنسب إلى هوميروس، وقد ظهرت ما بين القرن التاسع والثامن ق.م وبالرغم من أنها كتبت شعرا لكنها احتوت على مادة تاريخية، اعتبرها البعض مصدرا لتاريخ حقبة لا توجد معلومات عنها"[2]، وهكذا قد يكون وعى "هوميروس" بأهمية التاريخ في حياة الفرد، وقد تم نقل الملحمتين عن طريق الرواية الشفوية وساهم في حفظ هاتين الملحمتين النضج العقلي والفني اللذان تمتعتا بهما الملحمتين، "فضلا عن غلبة الطابع

[1] حمزة، ميمونة ميرغني، در اسات في منهجية البحث التاريخي، دار الخليج، عمان الأردن، ط1 ،2011، ص 22

[2] حمزة، ميمونة ميرغني، دراسات في منهجية البحث التاريخي، ص 22.

التاريخي على "الإلياذة" بالذات فهي تتحدث عن الحرب بين الإغريق وطروادة، ورغم الإطار الأسطورة الذي وضعت فيه الملحمة، تحتفظ في ثناياها بكثير من الأخبار والتقاليد التاريخية المتوارثة"[1]، ففي حقيقة الأمر تأليف الملحمتان يرجع إلى عدة شعراء وهوميروس هو آخرهم، ويلقب هوميروس بمعلم اليونان في عهد الأسطورة مثلما لقب سقراط بالمعلم في عهد الفلسفة.

"تتكون الإلياذة من 15537 بيتا قسمت فيما بعد إلى 64 أنشودة ،وهي سجل للحياة الإجتماعية للإغريق، وقد فتن بها الجميع على اختلاف طبقاتهم، ومن ثم فهي تشكل أساس ثقافة الإغريق القديمة، يرددها القواد والشهراء والنحاتون والفلاسفة والعلماء والساسة، كان جيش الاسكندر يردد أبياتا منها في حروبه، فهي ملحمة حربية بينما تعبر الأوديسة عن قصة سلام مليئة بالخيال"[2]،وبالتالي فالفرد الإغريقي إمتلك لوعي تاريخي فهم كانوا يحفظون تراثهم في أشعار توارثوها بالرواية الشفوية، والإلياذة مؤلف شعري حماسي، يؤلف لعديد الأخبار والحوادث، في حين الأوديسة ترتبط بالخيال بصورة كبيرة وجعلت للأرض إله وللسماء إله، بل حتى للظواهر الطبيعية آلهة، إن الإلياذة والأوديسة مظهر من مظاهر حضارة الإغريق، وهما تمثلان لحظة بداية تشكل الفكر التاريخي، ومع هذا يتوجب التنويه إلى أن الملحمتان، بالرغم من أنهما مصدرلكثير من الأحداث والوقائع الإغريقية، إلا أنهما لا يمكن تصنيفهما ضمن الكتب التاريخية العلمية المدققة،أضف إلى ذلك أن هوميروس لم يكن مؤرخا بالمعنى العلمي، ولكنه بوضعه الإلياذة والأوديسة جعل الفرد اليوناني ينظر إلى تاريخه وماضيه، "ليتأمله ويأخذ منه العبرة والمثل، وهذا

[1] مهران، محمد بيومي، التاريخ والتأريخ، دراسة في ماهية التاريخ وكتاباته ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريةن مصر، د ط، د ع، ص 104.

[2] صبحي، أحمد محمود، وجعفر، صفاء عبد السلام، في فلسفة الحضارة، ص29.

يعني أن هوميروس قد أدرك أهمية التاريخ ومنفعته في ذات الوقت، وقد عبر أحد الشعراء الرومان عن ذلك حينما قال "إن الإلياذة بتقديمها الأمثال عن عظماء وهم يعلمون، تعلم ما هو شريف وما هو غير لائق أفضل مما يعلم كل الفلاسفة النظريين"[1]، تمتع هوميروس بوعي تاريخي وأراد من خلال الأشعار التي قدمها، أن يقدم المنفعة والفائدة للمواطن اليوناني البسيط، رغم أن تاريخه يرتبط بالأسطورة والخيال، فحاكى في تاريخه القيم الانسانية، والأخلاقية، وثار ضد أشكال العبودية والتسلط،هكذا "هوميروس قد أدرك إذن أهمية التاريخ ومنفعته ومع ذلك فنحن لا نعده مؤرخا أو فيلسوفا للتاريخ، بل كان في المقام الأول شاعرا عبقريا ينطق ككل الشعراء الممتازين عن موهبة قدسية تأتيهم من لدن الآلهة على حد تعبير أفلاطون"[2] إنه يتفوق فيها على الفلاسفة الذين أتوا بعده، لأن هذه العلوم لا يلغي الحديث فيها القديم، ومع التقدم الهائل في الفن و العلم كالبيولوجيا فإن بعض آرائه مازالت صحيحة، ويعد هو مؤسس علم البيولوجيا والنفس والمنطق"[3]. وهو في حقيقة الأمر زرع البذور الأولى للتاريخ، دون علم منه أسس لقيام علم التاريخ، ويمكن أن نبين أهم الخصائص والسمات التي تميزت بها المعرفة التاريخية عند الإغريق في هذه الفترة فيما يلي:

-ارتباط المعرفة التاريخية بالأسطورة والخيال:

إن ملحمتا الإلياذة والأوديسة تؤرخان في ثناياهما الكثير من الوقائع، والأحداث التي عرفها الإغريق في تاريخهم، إلا أنها صورت الأشخاص في شكل بطولي خرافي أسطوري، يخرج عن إطار

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها ونشأتها وأهم مذاهبها، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1 ، 2012 ، ص 71 .

[2] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها ونشأتها وأهم مذاهبها، ص 73.

[3] صبحي، أحمد محمود وآخرون، في فلسفة الحضارة، ص 39.

الواقع في كثير من الأحيان، وقد لعبت الأسطورة الدور الذي يلعبه التاريخ و"كلاهما وسيلة يفهم الإنسان من خلالها نفسه ويعي شرطه وإن توقفنا الآن لقراءة وفهم لتاريخ ينشأ عن ذات الموقف القديم الذي كان يدفع أسلافنا لتلاوة الأساطير والاستماع إليها. ولكن ما يميز هذين النظامين بشكل أساسي عن بعضهما، هو أن الفكر الحديث قد أحل أفعال الانسان وقوانين التطور، كمحرك للتاريخ، محل مشيئة وأفعال الآلهة"[1]. وبالتالي نشأ في مهد الأسطورة وبدأ يستقل عنها تدريجيا عندما تشابك ذلك الصراع بين الأسطورة والفلسفة، فاتخذ التاريخ سبيلا له مغايرا تماما لما لقنته له الأسطورة وبدأ ظهور المؤرخين بمناهجهم التاريخية.

-الإعتماد على الرواية الشفوية:

اعتمد في هذه الفترة التاريخية على الرواية الشفوية في نقل الأخبار والأحداث التاريخية، ويعود اعتماد اليونانيين على الرواية الشفوية إلى عامل ضعف الكتابة عند اليونان القدامى، ويفسر المؤرخين سبب هذا الضعف إلى "الإضطرابات والفوضى قضت على مراكز الحضارة القديمة، واختفت الكتابة وبالتالي فقد مرت اليونان بفترة من الأمية، فيما بين القرنين، الحادي عشر والثاني عشر قبل الميلاد، ومن ثم فقد اعتمدت خلالها على الرواية الشفوية في حفظ أخبارها وتراثها، ومع ذلك فيرجع إلى تلك الفترة أقدم الآثار الأدبية التي بقيت لنا من التراث اليوناني القديم، وهما ملحمتا اللإلياذة والأوديسة"[2] إذن بالرغم من غياب التدوين و الكتابة لدى الإغريق إلا أن أثارهم

[1] السواح، فراس، الاسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1997، ص 92.

[2] مهران، محمد يسومي، التاريخ والأريخ، ص 104.

الأدبية والتاريخية بقية خالدة ععلى مر الزمن و ربما يعود سبب خلود أعمالهم إلى غلوب الطابع الفني عليها

-النقل الجاف للرواية:

سبق وأشرنا أن الكتابة تعرضت إلى ضعف كبير نظرا لنشوب الحروب، فاعتمد في حفظ الآثار والوقائع على الرواية الشفوية، لكن ما يجب الحديث عنه هو أن هذا النقل للأحداث كان يتم بالتناقل من جيل إلى جيل دون التأمل في صحة الرواية من كذبها، أو التبصر لأحوال الراوي أو الناقل، لذا حفلت الأعمال التاريخية بالأسطورة والخيال، مع أننا أحيانا نجد تجلي الطابع الانساني فيها فهوميروس روى الالياذة والأوديسة. "من منظر انساني لدرجة أنه خلع على الآلهة نفسها صفات البشر، ولم يحلق في دنيا الخيال بقدر ما حاول أن يعيش مع الناس محاولا تصوير حياتهم والجدل الدائر بينهم وبين الطبيعة"[1]، هكذا فالمعرفة التاريخية المتضمنة في الالياذة والأوديسة، لا ترقى إلى مستوى العلمية لأنها جاءت عن طريق تواتر الروايات المنقولة الخالية تماما من أي تمعن وتأمل وتمحيص ومقارنة بالواقع، وأي حدث لا يتطابق مع الواقع وأصول النقد لا يعد تاريخا.

-جعل الإنسان محرك تاريخ:

إن الإلياذة والأوديسة أقدم وأعرق عمل تاريخي عند الإغريق، امتزجتا بالخيال والأسطورة، ونلاحظ جليا أن الإنسان كان هو الإله أو يتمتع بصفات الآلهة الأمر الذي أبرزته ملحمة هوميروس "وهذا اعتراف بدور الفرد في التاريخ، وقد وطنوا أنفسهم، بوجه عام بكليتهم وباختيارهم لفن الحياة، من دون أن يطرحوا على أنفسهم السؤال عن طبيعة الحياة وعلى مر

[1] النشار، محمد مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها ونشأتها وأهم مذاهبها، ص 71.

الزمن، توصلوا إل دراسة الطبيعة والفلسفة والتاريخ، فإن حضارتهم كلها تبرهن على أن التاريخ في نظرهم، كان منوطا بهذه الحياة"[1] ، وعليه ، فاليونانيين جعلوا الانسان موضوع التاريخ، فجعلوه هو الذي يحرك التاريخ ويصنعه، فهكذا هم حاولوا أن يفلسفوا التاريخ رغم عدم درايتهم بفلسفة التاريخ.

-خلو الوقائع من الإيطار الزمني:لقد خلت الإلياذة والأوديسة من تحديد الإطار الزمني لتلك الأحداث والوقائع التي رويت، فالأحداث والوقائع التي جاءت فيهما، لم تتضمن أي إشارة إلى عنصر الوقت، وبالرغم من أن الإلياذة تصف العديد من الحروب التي عرفتها بلاد اليونان، إذن فالملحمتان، حملتا معنى التاريخ في أشعارهم وأهدافه وغاياته، والأمر الذي غاب قواعد وآليات المنهج التاريخي.

كان هذا فيما يخص المرحلة الأولى والتي سبق أن سميناها، مرحلة ولادة الفكر التاريخي، وهي في حقيقة الأمر ساهمت بشكل كبير في بناء الوعي التاريخي للفرد الإغريقي، ومهما تكن الأحكام التي صدرت في حق الإلياذة والأوديسة إلا أنهما تراث إنساني عريق أثر قديما ولا زال يؤثر في الفكر الحديث والمعاصر.

[1] نصر الله سعدون، المدخل إلى علم التاريخ، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط،2007، ص30.

2نمو الوعي التاريخي عند الإغريق:

تعد هذه المرحلة مرحلة نوعية في تاريخ الفكر الإغريقي، حيث ظهرت الفلسفة، بزعامة الفلاسفة الأوائل منهم سقراط "معلم الإغريق في طور الفلسفة كما كان هوميروس معلمها في طور الأسطورة، ويقال عنه أيضا إنه شطر الفلسفة اليونانية إلى شطرين ما قبله و ما بعده و أنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أي من البحث في الكون إلى البحث في مشكلات الإنسان"[1]، إذن نرى جليا كيف أن هذه المرحلة ظهرت فيها بوادر فكر جديد لبس حلة المنهج، وبات يبحث عن تحديد المفاهيم للسمو بالحوار، وجاء بعد سقراط أفلاطون الذي عين مباحث الفلسفة: منها مبحث الوجود، العالم، مبحث القيم و مبحث المعرفة، ولا يمكن أيضا أن ننسى فضل أرسطو على الفكر الإغريقي خاصة و الفكر ككل، فهو يمثل بحق أصالة و عظمة عطاء الإغريق، إذ "كثيرا من نظرياته ما زالت موضع إعتبار في الأخلاق و السياسة، بل إنه يتفوق فيها على الفلاسفة الذين أتوا بعده، لأن هذه العلوم لا يلغى الحديث فيها القديم. ومع التقدم الهائل في علم كالبيولوجيا فإن بعض آرائه ما زالت صحيحة، ويعد هو مؤسس علوم البيولوجيا و النفس و المنطق"[2]، و بالتالي فهذا العصر هو عصر الإنتاج العقلي بكل إستحقاق كما ظهر أيضا المسرح عند الإغريق، و إهتموا به الإغريقيين لدرجة أنهم أصدروا "تشريع أثيني عام 420ق.م يمنح إعانة

[1] صبحي، أحمد محمود، و جعفر، صفاء عبد السلام، في فلسفة الحضارة، ص38

[2] المرجع نفسه، ص 39

لمشاهدة المسرحيات تمكينا للعامة من الحضور"[1]وكان المسرح عندهم يعبر عن علاقة الإنسان بالكون، لكن بالرغم من هذا كان يصور بعض الأحداث التاريخية في قالب مسرحي.

إن هذا التطور و النمو الفكري أثر على المعرفة التاريخية هي الأخرى بشكل كبير، فظهر بعض المؤرخون المتأثرين بالإنتاجات الفلسفة اليونانية و فلاسفتها خاصة أرسطو، سقراط، أفلاطون، إشتغلوا بحق على البحث في المفاهيم و معاني الألفاظ، الأمر الذي أ دى إلى تطور المعرفة من الجانب المنهجي، "بل تجاوزه الى إثراء المحتوى العرفاني في دراسة الإنسان و المجتمع، فنجد هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد قد سافر و قارن بين قبائل و شعوب كثيرة على درجات متفاوتة من التنظيم الإجتماعي و السياسي من القبائل البدائية إلى الإمبراطوريات المتقدمة في الشرق، بحيث يمكن أن نعده أبا للأنثروبولوجيا كما كان أبا للتاريخ"[2] لكن يرى البعض أنه قبل هيرودوت وجد مؤرخ آخر يوناني هو هكتايوس الملطي الذي قدم كتابات عن أصل الشعب اليوناني، وقد إعترف له البعض بالتوجه العقلاني في كتاباته التاريخية.

إن إهتمام اليونان المباشر بالتاريخ،كان في حقيقة الأمر مع كتابات هيرودوت وهنا يجب أن نبين أمر هام، أننا عندما ربطنا علم التاريخ بهيرودوت،فهنا نقصد أن الكتابات التاريخية التي سبقته لم ترتبط بمنهج معين في تحري و تسجيل الحوادث و الوقائع ،أما مع هيرودوت فهو على عكس ممن سبقوه، صاغ معارفه "المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع معين من الوقائع في تلك

[1] المرجع نفسه، ص 40

[2] قنصرة، صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، د.ط، 2007، ص30

التي تتصل بالأحياء من الناس في مجتمع من خلال توالي الأزمنة في الماضي"[1] و بالتالي: فإن هيرودوت هو فعلا أب للتاريخ وهوالمؤسس الحقيقي لعلم التاريخ، بحيث إستطاع أن يحقق الشروط العلمية في تاريخه، فما هو منهجه التاريخي؟ وهل كان له الاسهام في لحظة تأسيس حقيقية لقيام الروح العلمية في علم التاريخ؟

المنهج التاريخي عند هيرودوت:

إن أي أى مؤرخ حديث لا يمكنه أن يتجاوز منهج هيرودوت،فقد كان المدرسة الأولى في التاريخ التي نهل منها مؤرخو اليونان قديما، و تأثر به مؤرخو الإسلام و المشتغلين بفلسفة التاريخ حديثا، نظرا لتلك المبادئ و الأسس التي جاء بها منهجه التاريخي و يمكن حصر أهم مبادئ منهجه التاريخي فيما يلي:

تحديد أهداف و غايات التاريخ:

حدد هيرودوت في مقدمة تاريخية الأهداف الرئيسية التي من أجلها أسس تاريخه "أولهما حفظ ذاكرة الماضي بتسجيل الإجازات المدهشة سواء التي قام بها اليونانيون أو التي قامت بها الأمم الآسيوية الشرقية وثانيهما أن نرى على وجه الخصوص كيف تم الصدام بين هاتين السلالتين"[2]، وإذا قمنا بالتمعن في هاذين الهدفين نرى بوضوح أن هيرودوت كان على دراية تامة بأساس علم التاريخ، هكذا يكون قد نزع عنه تلك النظرة الساذجة التي رأته مجرد تناقل للروايات .تعداه إلى البحث في ظروف و عوامل نشوب الحروب و صدامات بين الشعوب لذا نجده أرخ للحروب

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص ص74، 75

[2] المرجع نفسه، ص75

اليونانية الفارسية ،كما حاول شرح أسباب هذه الحروب كما أرخ أيضا لتاريخ نشأة الإمبراطورية الفارسية.

اللجوء إلى التحري للروايات التاريخية:

دأب هيرودوت على التحقق من الروايات التاريخية "مما دفعه إلى السفر و التجوال فزار مدن آسيا الصغرى و سوسة، عاصمة الفرس، و الشام و مصر،درس أحوال هذه المناطق و تعرف على آثارها و جمع معلومات كثيرة عنها، سعى للتحقق أيضا من صحتها"[1]إلى جانب الترحال للتأكد من صحة الروايات إستعمل أيضا الأدلة العقلية حيث نقد بعض روايات هوميروس.

ربط التاريخ بالجغرافيا و بعلوم أخرى:

كان هيرودوت شغوفا بالسفر و الترحال، حيث أنه حين تأريخه لمدينه كان يسافر إليها، و يتبع روايته التاريخية بالتحديد الجغرافي لها، و قد قال عنه سارتون "أنه ليس أول مصنف في التاريخ فحسب بل هو أيضا أول مصنف في الجغرافيا البشرية"[2]و مما شك فيه أن إستعانة التاريخ بالجغرفيا مظهر من مظاهر الروح العلمية، فعلم التاريخ الحديث يربط الحادثة التاريخية بإيطارها المكاني و الزماني.

تأثر كتابات هيرودوت التاريخية بالفلسفة الطبيعية :

سبق و أشرنا أن الكتابات التاريخية في هذه المرحلة ،تأثرت بفلاسفة اليونان الطبيعيين على غرار هيرودوت الذي تأثر هو الآخر بتلك النزعة الطبيعية "التي بدت في محاولته إخضاع الأساطير

[1] حمزة، ميمونة ميرغني، دراسات في منهجية البحث التاريخي، ص23

[2] نقلا عن جورج سارتون، النشار مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص77

التاريخية التي تناقلها اليونانيون شفاهة أو تلك التي وردت في الأشعار اليونانية لهوميروس و هزيود و غيرهما للتمحيص التاريخي على هذا النحو الوضعي"[1]إذن عندما أخضع الأساطير للنقد و التمحيص ،يكون بهذاا قد طرق أول باب من أبواب تحقيق الموضوعية العلمية في التاريخ. رافضا قبول الرواية التاريخية التي لا تتطابق مع مالا يقبله العقل.

البعد عن التعصب و الحياد :

إن النزعة العلمية التي أثرت في هيرودوت جعلته يتمتع بذلك النضج العقلي المتكامل والحياد في كتاباته التاريخية و بالتالي فقد انتهج السبيل القويم فترفع عن " التعصب للجنس اليوناني كما قادته إلى موضوعية التأريخ تلك الموضوعية التي جعلته يؤكد باستمرار على الأصول المصرية و الفارسية للفلسفة اليونانية و للعقائد الدينية اليونانية"[2]و عليه فهذا الحياد في الكتابة التاريخية، و بخاصة وقت إعترافه بفضل الأصول المصرية و الفارسية للفلسفة اليونانية جعلته مؤرخا ناجحا و أبا مؤسسا لعلم التاريخ ،و بالرغم مما قدم منهجه التاريخي إلا أن أسلوبه في التدوبن التاريخي حظى بالإعجاب و الإحترام من طرف الشرق و الغرب.

تعليل الحوادث التاريخية:

أسس هيرودوت علم التاريخ ،و في نيته الكشف عن مجرى الأحداث التاريخية و كيفية نشوئها و نقصد بالكيفية هنا البحث في العلل و الأسباب، خاصة تلك الحروب و الصراعات التي عرفتها اليونان فهو لم يقف عند حدود نقل الرواية ووصف الحادثة ،بل تجاوز هذا إلى البحث في

[1] النشار مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص77.

[2] المرجع نفسه، ص77، 78.

العلة و السبب الذي أدى إلى وقوعها كما " أنه لم يجعل التاريخ كما يحدث عادة لدى بعض المؤرخين مقصورا على رواية الأحداث السياسية الكبرى التي يقودها الحكام أو المعارك الكبرى التي يخوضها العسكريون بل تجاوز هذه الوقائع السياسية و الحربية ليبرز لنا على حد تعبير أحمد صبحي-الجانب الحضاري من التاريخ"[1]فلا يقف المؤرخ عند الحديث عن الجوانب السياسية و العسكرية فقط، و هذا ما فعله هيرودوت فقد تعرض في تاريخه إلى إبراز المعالم الإجتماعية و الدينية و الفكرية و الثقافية إنطلاقا من هذا الأساس نفهم أن هيرودوت قدأدرك أن التاريخ يتعلق بجميع مناحي الحياة.

و على أية حال وجب علينا التأكيد أن التاريخ "قد تأسس عند اليونان قبل أرسطو بأكثر من قرن من الزمان على يد هيرودوت"[2]و عليه يكون قد فتح الباب على مصراعيه للمؤرخين الذين بعده للنهل من مبادئ منهجه التاريخي و تطويره.

يظهر بعد هيرودوت ثاني المؤرخين اليونانيين ثيوكيديدس، و يشير بعض الباحثين إلى أنه قد إطلع على التاريخ الذي كتبه هيرودوت و تأثر به، لذا نجده طور مبادئ هيرودوت التاريخية، وقد سبق هيرودوت ثيوكيديدس بحوالي عشرين عاما الأمر الذي سمح له بأن يختار " موضوعا محددا لتاريخه وهو الحرب البلوبونيزية التي دارت رحاها بن مدينتي أثينا واسبرطة فيما بين عام 431و

[1] النشار مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم نذاهبها، ص78.

[2] المرجع نفسه، ص131.

404 قبل الميلاد، و إمتدت لتشمل كل المدن اليونانية تقريبا"،[1] ويمكن أن نحصر أهم المبادئ التي جاء بها منهجه التاريخي فيما يلي:

تحديد الموضوع مع أهدافه:إختار ثيوكيديدس أن يؤرخ للحرب البلوبونيزية، وقد دارت هذه الحرب بين مدينة أثينا و مدينة اسبرطة في الفترة بين (431و404) قبل الميلاد وقد توسعت هذه الحرب لتشمل كل المدن اليونانية تقريبا، وقد إختار ثيوكيديدس إذن موضوع تاريخه كما حدد أيضا أهدافه و بهذا نراه في إعتقادنا قد حدد إختصاص كتاباته في التاريخ، و التاريخ الحديث يطالب بالتخصص حتى نصل إلى الحقيقة و جوهرها للحوادث التاريخية.

الإبتعاد عن المعجزات و الأمنيات:يختلف أسلوب ثيوكيديدس في الكتابة التاريخية عن أسلوب هيرودوت بحيث "إستبعد نفسه تماما من رواية الأحداث كما عني بتحقيق الأحداث التي رواها تحقيقا علميا، وكان أكثر تركيزا في روايتها و لم تأخذه دوامة الإستطرادات و التفصيلات التي رأى أنه لا داعي لها و إن أدى به ذلك التركيز إلى قصره التاريخ على تسجيل الأحداث السياسية و العسكرية"[2]، و بالتالي فثيوكيديدس رأى أنه على المؤرخ حسب إعتقادنا أن يعايش الأحداث و الوقائع التي يؤرخ لها، بمعنى أن يكون معاصرا للتاريخ الذي يكتبه، و إن دل هذا على شيء فإنما يدل على جدية و موضوعية ثيوكيديدس في التاريخ، أصف إلى ذلك أنه حين تأريخه للحرب بين أثينا و اسبرطة شهد له الجميع بحياده، بالرغم من أنه كان أثينيا ذلك أنه كان ينقل مختلف الروايات، أي من جميع الأطراف المتنازعة و يعرض وجهات نظرها المختلفة دون التحيز

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها وأهم مذاهبها، ص80

[2] امرجع نفسه، ص 80

لطرف على حساب الآخر، و هذا سبيل من سبل الصدق والأمانة العلمية، و بالتالي فهو تجرد من الذاتية، لأن التجرد منها هو أولى اللبنات لتحقيق الموضوعية العلمية في دراسة الظاهرة التاريخية. وبهذا فلا مجال في تاريخه للآلهة و المعجزات و الأساطير، فهي عنده لا تتصل بالتاريخ لأنها تتنافى و الواقع.

تنويع مصادره في تاريخه:إن المصادر الأولى التي إعتمد عليها ثيوكيديدس كانت بالدرجة الأولى الإعتماد على معايشة الوقائع و معاصرتها "و ثانيا المعلومات التي إستمدها من الرواة. و ثالثا، بعض الوثائق التي حصل عليها، فقد إعتمد مثلا على نصوص معاهدة انيكياس وعلى نصوص الحلف بين الإثينيين و حلفائهم"[1]، كما إعتمد أيضا على الآثار،الأمر الذي جعل البعض يسميه ب:" أبا لعلم الآثار".

كان هذا فيما يخص المؤرخ اليوناني ثيوكيديدس. وما يظهر لنا أن بوادر علمية التاريخ تجلت في منهجه التاريخي بصورة واضحة. هكذا نرى أن علم التاريخ عند الإغريق كان يتطور في حلقات متواصلة من مؤرخ لآخر.

ننتقل الآن إلى مؤرخ يوناني آخر، جعل علم التاريخ يبلغ درجة كبيرة من النضج العقلي و العلمي، هذا المؤرخ هو بوليباس "الذي إمتلك رؤية واضحة المعالم لمعنى االتاريخ و وظيفته و لدور المؤرخ و شروط التاريخ العلمي أنظر معي في قوله " إن وظيفة التاريخ في المحل الأول أن يحقق العبارات الدقيقة التي قيلت بالفعل مهما كانت هذه العبارات، و في المحل الثاني أن يتحرى السبب

[1] نقلا عن جورج سارتون، النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص81

الذي توج الحدث الذي تم"[1]، نفهم من هذا أن بولیباس يضع لنا التاريخ في منهج علمي، يختزل به تلك النظرات القديمة ،التي رأته مجرد سجل يحفل بالوقائع و الأحداث إذ التاريخ حسب رأيه يتوخى كتابة الوقائع بإعتماد المقارنة، و النقد، و التمحييص ،مع البحث في علل و أسباب الظواهر التاريخية، و يقوم منهج بولیباس على جملة من القواعد و الأسس منها:

1. إعتماد المؤرخ على روح السؤال و الإستفسار دائما لذا "يجب على المؤرخين الذين يكتبون عن التاريخ القريب و المعاصر أن يعتمدوا على طرح الأسئلة على أكبر عدد ممكن من أولئك الذين شاركوا في الحوادث نفسها"[2]، والمؤكد أن التساؤل الدائم يقود إلى معرفة أسباب و علل الأحداث. والتي سماها تيش, tyche.

2. إستعمال الوثائق للإستدلال بها على صحة الوقائع من كذبها وقد لجأ بولیباس إل بعض الوثائق مثل الإتفاقيات و المعاهدات ،كما إستعان أيضا بالكتب التاريخية السابقة.

3. جعل التاريخ كوحدة ، تتصل فيها الأحداث ببعضها البعض بحيث " حقق الرومان الفكرة الكونية في الحكم ووحدة البحر الأبيض المتوسط. وعليه فإن التاريخ يجب معالجته كموضوع عام و واحد. وقد أصبح بولیباس، بهذا الرأي, كما قال بعض الكتاب، من دعاة الإمبريالية و أظهر قناعته في الإمبريالية على أنها "مصير محتوم""[3]

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص 132

[2] سعد الله، أبو القاسم، شعوب...و قوميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط، 1985، ص 283

[3] المرجع نفسه، ص187

4. دعا بولبياس إلى إلتزام الحياد و الموضوعية العلمية في التاريخ، و يكون هذا بمحاربة كل أنواع الذاتية من وطنية و أفكار شخصية، و أن يتمتع المؤرخ بتلك الروح العلمية التواقة إلى الحقيقة ،فعليه السفر و البحث عن كل ما يتصل بالتاريخ الذي يقدمه، و يقترب أكثر من الأفراد الذين يؤثرون في مجرى التاريخ.

5. ربط التاريخ بالماضي و الحاضر و المستقبل من خلال " التأمل و النظر في الأحداث التاريخية في تتابعها و تماثلها من التنبؤ بأحداث تاريخية قد تقع في المستقبل".[1]و هذه هي الغاية الكبرى التي لأجلها يقوم علم التاريخ.

6. إن آراء بولبياس في التاريخ هي آراء تمتاز بالحيوية و التجديد، الأمر الذي جعل منهجه التاريخي يسري مع المناهج التاريخية الحديثة ،بحيث قد إعترف له "المؤرخ الايطالي الحديث، كروتشيcroce, عن وجهه نظر بولبياس حول هذه النقطة فقال:" لقد بحث بولبياس عن علة الأشياء لكي يتمكن من تطبيق ذلك على الحالات المشابهة و يعرف أن تلك الأحداث غير المتوقعة ليست بذات أهمية لأن عدم إنتظامها يجعلها خارج القواعد"[2]، وبهذا فقد كان بولبياس في ت

7. اريخه للحوادث، يبحث في الأسباب و العلل و كانت دعواه صريحة إلى التاريخ العملي.

تعرضنا لهذه المرحلة يجعلنا نقول أنها بالفعل مرحلة نمو الوعي التاريخي عند الإغريق، بل لقد تأسس عند حدود هذه المرحلة علم التاريخ. وما ساعد على تطور هذا العلم الفتي الفلسفة اليونانية

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص133

[2] سعد الله، أبو القاسم، شعوب...و قوميات، ص287

بفلاسفتها الطبيعين الأوائل، الأمر الذي أدى بالمؤرخون إلى النهل من مبادئها و مناهجها و محاولة إسقاطها على علم التاريخ. أضف إلى ذلك عامل الكتابة التي ظهرت في هذه الفترة بصورة أكثر وضوحا و تنظيما حيث "أن ميلاد الكتابة التاريخية على نمط " كتابة التاريخ" إنما يستلزم خلفية تاريخية لم يتيسر ظهورها عند اليونان، إلا في القرن السادس قبل الميلاد، وهذه الخلفية هي الكتابة الثرية، و الناقذةللاساطير الشائعة، و بواعث الإهتمام بالبحث عن أصول المجتمع، و نشأة النظم و القوانين و العادات و التقاليد" [1]، من هذا المنطلق نرى أنه قد توافرت أسباب و ظروف ملائمة أمام المؤرخون و المشتغلين بالتاريخ، لكن ما يجب الإشارة إليه في هذا المقام هو أن النقد التاريخي قد وجد عند مؤرخي اليونان، بصورة شكلية فلم يكن ذلك النقد الذي يعتمد على أسس علمية، بالرغم من وجود كتابات تاريخية وظفته بإستحياء و تحفظ.

المبحث الثاني: الفلسفة المسيحية والتأسيس لعلم التاريخ

علم التاريخ في العصور الوسطى الأوروبية:

إن تطور أي علم يمر بمراحل و لكل مرحلة، ظروفها السياسية و الإقتصادية و الدينية، وتؤثر هذه الظروف على تطور العلوم إما بالإيجاب أو السلب، و علم التاريخ هو الآخر مر في هذا العصر بتأثيرات الظروف المحيطة به.

إختلف المؤرخون حول تحديد فترة زمنية معينة للعصور الوسطى، "و لكنها دارت حول الأحداث التي ألمت بالإمبراطورية الرومانية. و المعروف تاريخيا أن مظاهر الإعياء و الضعف أخذت تبدو على الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث الميلادي.

[1] مهران، محمد بيومى، التاريخ و التأريخ، ص105

وهذا نتيجة لعوامل متباينة، داخلية و خارجية، و إنتهى الأمر بتقسيمها إلى قسمين: شرقي و غربي سنة 395م، ثم بسقوط الإمبراطورية الغربية على أيدي الجرمان سنة 476م"[1]، بمعنى أن القرن الثالث الميلادي شكل تلك الفترة التي ظهرت فيها صور الضعف و التفكك في الإمبراطورية الرومانية، و قد إنعكست هذه الأوضاع و الظروف على الفكر الغربي، فكان أن قوت الكنيسة نفوذها لتستلم راية المحافظة على الحضارة الرومانية، من هذه الزاوية ،نرى بوضوح أن هذه الفترة تختلف إختلاف واسع عن تلك التي رأيناها في الحضارة الإغريقية، بحيث أن الديانة التي سادت عند الإغريق كانت الوثنية، فلم يكن هناك معتقد ديني واحد، فالكل كان يرى الدين على الصورة التي يريدها، الأمر الذي جعل الفكر الإغريقي أكثر حرية و حيوية، في حين فترة العصور الوسطى سادت و بدأت في الإنتشار الديانة المسيحية و قد " واجهت المسيحية في طورها الأول عداء العظماء المعاصرين لها، وكذا نظرة عدم الإحترام من الحكماء، و لكن بالرغم من ذلك فقد إنتصرت على الوثنية، و إزدادت إنتشارا حتى إعتنقها الإمبراطور قسطنطين c ostantine"[2]، و بالتالي فظهور المسيحية شكل منعطف أساسي في تاريخ الفكر الغربي، فما هو التأثير الذي لعبته الديانة المسيحية في الفكر الغربي؟و كيف أثرت على علم التاريخ و مناهجه؟

إرتباط التاريخ بالدين المسيحي:

ظهرت المسيحية عند الغرب كأول عقيدة دينية عرفوها، فكما نعلم أنه قبل مجيء المسيحية سادت الوثنية، لذا كان القبول بها صعبا، فقد لاقت الرفض و العداء من طرف العلماء و المفكرين

[1] محاسيس، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، دار زهران للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013، ص213

[2] المرجع نفسه، ص 213

في عصر ظهورها، "في روما سنة 64م في ظل سياسة الإمبراطور نيرون، ثم إنتقلت إلى آسيا الصغرى عهد الإمبراطور تراجمان (98-117م)، و بلغت مداها في مصر عهد الإمبراطور دقلديانوس (284-305م)، أي ظلت القرون الثلاثة الأولى للميلاد في صراع مع الإمبراطورية"[1]، نفهم من خلال هذا أن المسيحية بقيت فترة ثلاثة قرون في صراع دائر مع الإمبراطورية، و بعد تأزم الأوضاع إعترف بها الإمبراطور قسطنطين و ذلك عام 313م، كعقيدة رسمية.

-لم تعرف الحياة الفكرية في الإمبراطورية الرومانية هي الأخرى في هذه الفترة النمو و الإزدهار، فقد أثرت سلبا عليها الأوضاع السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية و بصفة خاصة العقيدة الدينية الجديدة، و في مقابل هذا نجد عكس الأمر في الجزيرة العربية الي شهدت ظهور الإسلام و ما أحدثه من تغييرات فكرية و حضارية تعدت حدود البلاد العربية إلى مناطق أخرى من العالم. هكذا إحتكرت الكنيسة العلم " فعلى الرغم من كون الإنجيل كتابا مقدسا، إلا أن معرفة القراءة كانت في الواقع محصورة في الكنيسة وحدها، و لم تفكر إنجلترا في التمييز بين كلمة "الكتاب" clerk التي تدل على مضمون لاهوتي و بين "الكتاب" التي تعني كل شخص يستطيع أن يقرأ و يكتب موضوعات أخرى غير دينية"[2]، إذن فالمتأمل في هذه الفترة التاريخية يجد أن المسيحية أو بمعنى آخر سلطة الكنيسة ،مارست ضغوطات، تضر الفكر و العلم من وراء هذه الضغوط على غرار علم التاريخ الذي أخذ في مناهجه و مواضيعه منعطف مغاير بحيث أصبح المؤرخون هم "كتبة المراسيم المقدسة و كانت الكنيسة التي تصدر هذه المراسيم المقدسة هي

[1] المرجع نفسه، ص ص 213، 214

[2] سالم، محمد عزيز نظمى، جدلية التاريخ و الحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، 1996، ص78.

صاحبة أكبر و أغنى ملكية إقطاعية، و أقوى سند يعتمد عليه النظام القائم"[1] و بالتالي فإن هذه الممارسات السلطوية للكنيسة، نتج عنها تراجع العلوم، فلم تكن هناك حرية فكرية، فكل الأفكار يجب أن تتطابق مع آراء الكنيسة و معتقداتها و تخدم مصالحها. لهذا نجد علم التاريخ قد تحول إلى تاريخ كنسي في هذه الحقبة، فقد عكف المؤرخون على تدوين المراسيم التي تصدرها الكنيسة، و إرتبط تاريخهم إرتباطا وثيقا بها، فوجهات نظرهم و آرائهم تتطابق معها، بحيث كانوا يتحفظون عن توجيه أية إنتقادات لها، حتى و إن كانت هذه الآراء تتعارض مع الصدق و الحق أو كانت كاذبة، يقودنا هذا الأمر بالتساؤل بالضرورة عن وضعية أو المسار الذي سلكه علم التاريخ، فمن هم أهم المؤرخين الذين برزوا في هذه الفترة؟ و ما هي الأسس و المبادئ التي إرتكزت عليها مناهجهم التاريخية؟

مؤرخو العصور الوسطى و مناهجهم:

بعد أن إعترف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية، ظهرت موجة من المؤرخين الذين كانوا موالون للكنيسة، لذا فقد تقمصت الكتابة التاريخية في العصور الوسطى الطابع الديني، فجاءت المؤلفات التاريخية جافة خالية من النقد و التحليل لإهمالهم العامل البشري، هكذا " إبتعد التدوين التاريخي عن الصيغة العلمية التي اتسم بها في العصور القديمة و أصبح سجل لكرامات و تضحيات القديسين و لايهتم إلا بماله صلة بالدين"[2]. و لكن بالرغم من هذه الظروف فقد وجد المؤرخون في هذه الفترة لكن تواريخهم أثرت فيها النظرة الدينية.

[1] المرجع نفسه، ص80.

[2] حمزة، ميمونة ميرغني، دراسات في منهجية البحث التاريخي، ص34

ظهر في بداية هذا العصر أفريكانوس، كأول مؤرخ، وقد وضع مؤلف يتحدث عن تاريخ العالم منذ بدء الخلق إلى غاية 221ق.م و قد ضاعت أجزاء هذا المؤلف و بقي منها جزء تضمنه كتاب أوزبيوس، و يرى الكثير أن هذا المؤرخ، أوزبيوس، يرجع إليه الدور الكبير في تأسيس التاريخ الكنسي كما وضع المؤرخ "باولس أورسيوس paulus onosusis.مؤلفه الذي سماه " الكتب التاريخية السبعة المؤلفة في الرد على الوثنيين" فجاء مليئا بالأساطير و الخرافات المبنية على التحيز و الغرض"[1]، لهذا لا يمكن أن تتصف الكتابات التي دعمت الكنيسة في مذاهبها بالحياد و الموضوعية.

إبتداءا من منتصف القرن التاسع ميلادي ظهر الصراع بين الإمبراطورية و الكنيسة ،بحيث كانت الكنيسة في القرون الأولى تتولى السلطة الدينية، فقط لكن مع تفكك الإمبراطورية، كانت الفرصة سامحة جداللمسيحية، للتوغل أكثر، فأصبحت الكنيسة "تمارس سلطة زمنية و أصبح لها هيكل يتمثل في القساوسة و الأساقفة و الكرادلة و يجلس على قمة هذا الهيكل البابا"[2]، مما لا شك فيه أن هذه السلطة التي تمتعت بها الكنيسة، كبلت الفكر خصوصا لما أصبح رجال الدين هم أصحاب الطبقة الإقطاعية في أوروبا.

-لقد أثرت الأوضاع التي شهدها العالم الغربي آنذاك على علم التاريخ، حيث قل إهتمام النخبة و المثقفين بعلم التاريخ و الكتابات التاريخية ككل، الأمر الذي أدى إلى ظهور مجموعة من المؤرخين " و هم أيضا من الأكليروس يكتبون عن سير القديسين و الرسل و إظهار معجزاتهم و

[1] نقلا عن هرنشو، حمزة، ميمونة ميرغني، دراسات في منهجية البحث التاريخي، ص 35

[2] حمزة، ميمونة ميرغني، دراسات في منهجية البحث التاريخي، ص 35

كراماتهم في عهد المسيحية الأول و ما تعرضوا له من إضطهاد و ما بذلوه من تضحيات و من الطبيعي أن تمتزج هذه بكثير من الأساطير، و لقد خدمت الظروف السائدة التاريخ"[1]، فلما إنتشرت الحروب تضررت الحضارة و الآثار و المعالم، فما كان من رجال الدين إلا إخفاء المخطوطات و المؤلفات التاريخية خوفا عليها من أن تحرق أو تتلف.

إن الحديث عن مؤرخي العصور الوسطى في علم التاريخ الغربي ،يقودنا بالضرورة إلى القديس أوغسطين و الذي كان أسقفا لمدينة بونة في الجزائر، و حاليا ولاية عنابة، ألف كتاب بعنوان "مدينة الله" ، و يحاول البعض أن ينسب إليه أنه حاول وضع أسس لفلسفة التاريخ لكن هذه المحاولة "فردية غير ناضجة، لأنها لم تحتوي لا على فلسفة و لا على تاريخ، و إنما كانت مجرد لاهوت و قصص خيالية، و الفلسفة التي ضمنها الكتاب كانت مستمدة من أصول فارسية و هيلينية و عبرية"[2] و يجسد الكتاب في معناه التاريخي ذلك الصراع حسب رأي أوغسطين بين مدينة الله إتباع المسيحية و اليهودية أما مدينة الشيطان فتمثل إتباع الوثنية و يمكن حصر مبادئ منهجه التاريخي فيما يلي:

-النظرة الفلسفية في منهج القديس أوغسطين التاريخي:

نظر أوغسطين إلى التاريخ نظرة فلسفية لكن في حقيقة الأمر، لم ترقي هذه النظرة إلى مستوى " فلسفة التاريخ" ذلك أن مؤلفه التاريخي "مدينة الله" ، طغى عليه الخيال خاصة بما يتعلق بالعقائد الدينية المقدسة

[1] المرجع نفسه، ص38

[2] محاسيس، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، ص216

-الدفاع عن العقيدة المسيحية في المقام الأول:إن أوغسطين كان أسقفا كما و سبق أن ذكرنا فمن الطبيعي أن تكون فلسفته الدينية و تاريخه، يحكمه التحيز و البعد عن الموضوعية العلمية، لذا نجد منهجه لا يعتمد أصول النقد التاريخي، فكل الحوادث الحاصلة هي مقدرة على الإنسان و هي من صنع المشيئة الإلاهية.

-الدفاع عن المسيحية،خاصة بعد أن ظهرت الإتهامات ضد المسيحية، والتي نقول أنها السبب وراء ما حل بالدولة الرومانية من التشتت و التفكك، "لذلك كانت هناك حاجة ماسة إلى الإستمرار في كتابة التاريخ عالمي، أو الكلى. فتتبعوا تاريخ العالم من يوم خلقآدم و طرده من الجنة إلى تكفير المسيح عن خطيئة آدم في قصة درامية محبوكة الأطراف و بذلك حرروا التاريخ من الحدود المكانية و الزمانية"[1]،و بهذا فالقديس أوغسطين ألغى تماما دور الفرد في التاريخ، فالقدرة الإلاهية هي التي تسير الكون و تقود العالم.

-الإعتماد على المصادر و الوثائق في التأليف التاريخي، فقد وجدت العديد من المصادر التاريخية، و كان لآباء الكنيسة دور كبير في حفظ التراث و المخطوطات الأثرية، لكن المؤرخون لم يوظفوا جميع تلك الحقائق الموجودة في المصادر، بل وظفوا الحقائق التي تتلاءم مع مذاهبهم و توجهاتهم الدينية و الفكرية.

-كانت هذه أهم الخصائص و المميزات التي عرفت في منهج القديس أوغسطين لكن بالرغم من هذا فقد إعترف له الكثير أنه " فقد فاق غيره من آباء الكنيسة الغربية تأثيرا في العقلية الأوروبية عامة، لذلك ظلت كتاباته في التاريخ و الفلسفة ذات شأن كبير و سائدة طوال الألف

[1] محاسيس، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، ص217

سنة من العصور الوسطى، و جاء معظم ما كتبه المؤرخون من بعده إما تقليدا أو مسخا لمؤلفه"[1]، و عليه فإسهام أوغسطين في علم التاريخ لا يستهان به، فمنهجه التاريخي ترك تأثيرا بالغا في علم التاريخ، نظرا لتلك الدراسات الكثيرة التي قدمت حول تاريخه، فتاريخه، يجعل الباحث في حيرة من أمره، و الحيرة أم الشك و الشك يولد اليقين و بهذا فنحن نراه تلك الحلقة التي ربطت بين التاريخ عند الإغريق و التاريخ في العصور الحديثة.

مظاهر الكتابة التاريخية في العصور الوسطى:

عرفت العصور الوسطى حضارة سميت بالحضارة الكارولنجية و هي "حضارة صنعها فردواحد و ليست منبعثة من عوامل و مؤثرات حضارية، فإرتبطت به في نشأتها و ظلت منتعشة ما عاش صاحبها شارلمان، فلما مات ماتت بعده. ورغم ذلك فقد صحبها حركة إحياء للتراث اللاتيني القديم لغة و علما، و كانت للكتابة التاريخية نصيب فيها"[2]، فظهرت المؤلفات التاريخية و نذكر بعض الأنواع منها:

الحوليات:

ساهم شارلمان بصورة كبيرة في تطوير علم التاريخ و إن لم يكن بتلك الصورة العميقة، " وقد مهدت حوليات العصر الكارولنجي لمولد نوع جديد من التدوين التاريخي، قدر له أن يظل قائما حتى نهاية العصور الوسطى، ذلك أن الحوليات لم تكن مجرد وقائع وصفية و إنما كانت –

[1] المرجع نفسه، ص 216

[2] محاسيس، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، ص ص219، 220.

كما يبدو من إسمها Annals- سردا لأهم أحداث السنوات المتعاقبة، كل سنة على حدة"[1]، بمعنى آخر أن الحوليات تعالج أحداث معينة لسنة واحدة فقط و قد ظهر هذا النوع أول مرة على يد نورثمبرلاند بإنجلترا، ولما آمن شارلمان بهذا النوع من التدوين التاريخي أمر الأديرة بأن يؤلفوا على هذا الأسلوب، وقد تطور هذا النوع و صار يتضمن مادة تاريخية كبيرة خصوصا في الأديرة الكبيرة مثل:دير سانت بين، و دير لورخ.

-إحتوت الحوليات أخبار الأحداث السياسية، كالحروب و الصراعات و هنا نجد كتاب "تاريخ الحروب الأهلية" لينشارد و يتزامن هذا الكتاب مع حدود القرن التاسع ميلادي، كما ظهر في هذا القرن أعلام برزوا في التاريخ منهم ويدوكند من ألمانيا مقدم دير كورفى، وفي إيطاليا ظهر ليتوبراند أسقف كريمونا "أما فرنسا فبرز فيها مؤرخان أحدهما فلودورد صاحب حوليات ريمس (922-996م) و الثاني ريتشر Richer مؤلف " أربع رسائل في التاريخ "، و قد إمتاز الأول بالأمانة و الدقة في كتابته، في حين حاول الثاني أن يؤرخ لانقلاب سنة 987م ،الذي أدى إلى قيام أسرة كابية، كما إستعمل خليطا من الإصلاحات و الألفاظ الفنية و الحربية و الإدارية، مما جعل أسلوبه صعبا"[2]، و بهذا يكون قد خطا التاريخ فيالفترة خطوات بطيئة نحو الدقة و الموضوعية العلمية.

كانت الحوليات في بداية ظهورها تركز على ذكر السنة مع أهم و أبرز حدث وقع في تلك السنة، لكن مع مطلع القرن الثاني عشر ميلادي، أخذت الحوليات تكثف من مادتها التاريخية و

[1] المرجع نفسه، ص 224

[2] المرجع نفسه، 225

يعود هذا إلى إزدياد الرحلات و ما إنجر عنها من تناقل للروايات و الأخبار، كما تأثرت أيضا بالكتابات التاريخية الإسلامية في مجال الحوليات فضلا عن الإحتكاك العلمي بين العرب و أروبا، و "كان إديلارد البائي (ت 1125م) أول المشتغلين بالدراسات العربية عامة و التاريخية خاصة في إنجلترا، فقد ترجم بعض النصوص العربية التي عثر عليها أثناء رحلته إلى إسبانيا و سوريا، و تبعه في الميدان دانيل مورلىdaniet morley في القرن الثاني عشر و ميخائيل سكوت في القرن الثالث عشر"[1]، ومن أشهر كتاب الحوليات رودر يجوجمينيت دى رادا صاحب كتاب حوليه الطليلى و الذي أتقن اللغة العربية، و لجأ في كتاباته التاريخية إلى تاريخ أحمد بن محمد الرازي.

كتب الوقائع:

يعالج هذا النوع من الكتابات التاريخية حياة الملوك بالتفصيل، و هذا النوع من الكتابات التاريخية هو في الحقيقة الأمر مزيج بين الترجمة و التاريخ الحولي و الوقائع. و إمتاز هذا النوع من الكتابة بالإتجاه نحو البيروقراطية و تركيز السلطة، و ذلك لتخدم الحكام و الملوك في أهدافهم، و تقدم هذا الغرض في المصنفات التي ظهرت بإنجلترا و رعاها ملوكها النورمان"[2] ومن أبرز كتاب الوقائع نجد المؤرخ الفرنسي "روبرت الأكسرى" وقد إمتازت كتاباته بحرية التفكير كما تحرى أيضا الصدق في نقل المعلومات، كما نجد أيضا مؤرخين مثال: روبرت التورجني، و الأسقف أوتو، و الذي يقال أن كتاباته تصطبغ بالصبغة الفلسفية، المؤرخ أوردريك فيتاليس و هؤلاء كلهم رجال دين.

[1] محاسيس، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، ص 229

[2] المرجع نفسه، ص 230

كتب السير:

تهتم كتب السير بالتأريخ لشخصيات برزت في المجتمع، سواء كانت دينية أو غير دينية فنجد في هذا النوع، سير القديسين و البابوات، و سير لرجال الدين و أمراء الإقطاع لإقليم محدد، كما نجد أيضا سير الملوك و الأمراء وقد وجدت أيضا السير الفردية أو الذاتية بحيث يقوم المؤرخ بالتأريخ لنفسه أي يكتب سيرة حياته بيده و ممن برزوا في هذا النوع نجد القديس لامبرت، المؤرخ أبيلار، رئيس الأديرة شوجر.

كانت هذه أهم أنواع الكتابات التاريخية التي عرفت في العصور الوسطى،بحيث شهد التدوين التاريخي نوع من التطور فظهر بعض المؤرخين و هم من غير رجال الكنيسة "يكتبون التاريخ، فعدلوا في هذا التدوين من حيث الشكل و الموضوعات التي تتناوله، و إتجهوا إلى الكتابة العلمية، و شهدت هذه الفترة مرحلة الإنتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة و ما صاحبها من تطور فكري عام"[1]. و يرجع سبب هذا التطور إلى ذلك الإحتكاك الذي حصل مع المسلمين بحيث كانت هناك علاقات بين الدول الإسلامية و أروبا كما سمحت أيضا حرب الحدود بنقل حضارات أخرى لأروبا و عامل المبادلات التجارية. بالإضافة إلى عامل آخر مهم و هو الترجمة و النقل "من الأندلس و صقلية الإسلاميتين. و لعل إطلاق الفيلسوف اللاهوتي الإنجليزي فلنت flint على إبن خلدون أنه واضع علم التاريخ دليل على ما نهل منه الأوربيون من فكر و حضارة"[2] و قد إعترف ليس فلنت وحده بل العديد من المفكرين و علماء التاريخ بفضل إبن

[1] محاسيس، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، ص 232

[2] المرجع نفسه، ص 232

خلدون على علم التاريخ و تأسيسه لمنهج التاريخ النقدي، و من أبرز مؤرخي هذه الفترة، نجد المؤرخ فرواسار، و المؤرخ الفرنسي فيليب دي كومين.

مبادئ المنهج التاريخي في العصور الوسطى:

إن أي علم من العلوم تتحكم في خصائصه الظروف المحيطة به، لذا نجد أن علم التاريخ في هذه الفترة –العصور الوسطى- تميز بجملة خصائص صقلتها الظروف و العوامل التي سادت في أروبا آنذاك و يمكن أن نجمل بعض الخصائص على الشكل الآتي:

1. إرتباط التاريخ في أساسه و موضوعه و منهجه بالدين –المسيحي- فنرى جل المؤرخين هم من رجال الدين و الكنيسة، فتاريخهم يؤرخ للكنيسة و رجالها و تعاليمها، و قد كان هؤلاء المؤرخين لا يخرجون في كتاباتهم التاريخية عن مذاهب الكنيسة و أفكارها فقد "كان عصرا لاهوتيا (دينيا) و من ثم إتجه الفلاسفة إلى التوفيق بين النقل و العقل أي بين الدين و الفلسفة، بمعنى أن الفلسفة كانت خادمة للدين. و لقد ظهرت في تلك الفترة تيارات فلسفية متأثرة بالدين عند المسلمين و المسيحيين و اليهود ،ممثلة في فلسفات القديس أوغسطين و القديس توما الاكويني"[1]، و قد عكف الفلاسفة في هذه الفترة على دراسة المسائل المرتبطة فراحوا يدرسون النفس الإنسانية و الفضائل اللاهوتية من إيمان و رجاء و محبة.

2. غياب عنصر النقد و التمحيص في باطن الروايات و الحوادث التاريخية، فكل الحوادث تسجل و تصدق بمجرد سماعها و تدخل عندهم ضمن التاريخ "و لم يكن هناك تفريق

[1] عطيتو، حربي عباس، و عبيدان، موزة محمد، مدخل إلى الفلسفة و مشكلاتها، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 71

بين الواقعي و المثالي، أو الحق التاريخي و القول الشعري، فنظروا للملاحم الشعرية نظرة المراجع التاريخية، و لم يكن هناك ما يحول دون تزيين الأخبار و تزوير الوثائق و الأسانيد، و لم تكن هناك عناية يكشف الحقائق و إزهاق الأباطيل ما دامت الوثائق و الأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر"[1]، إذن غياب النقد العلمي و التمحيص للحوادث جعل الكتابة التاريخية تختلط بالكذب و الغلط، و غدى التاريخ يخدم مصالح السلطة آنذاك، و بالتالي فقد إبتعد عن الموضوعية العلمية، وصرنا نلمح التأريخ للمعجزات و للحوادث المستحيلة الوقوع،و هنا نكتشف أن التاريخ في هذا العصر صار هو الذي يحتضن الأسطورة و يعتمد على الخيال.

3. إن معظم الكتابات التاريخية التي سادت في العصور الوسطى أخرجت الفرد من حركة التاريخ، و جعلت منه مجرد متفرج على مجرى الأحداث التاريخية بحيث جعلوا مؤرخو العصور الوسطى من التاريخ "دراسة مجردة محدودة تنبثق من سلطان الكنيسة، فلقد إعترفوا بالدور الذي تؤديه المقادير في الأحداث التاريخية، لكنهم حددوه بصورة ينتفي معها وجود أي مجال لنشاط الإنسان، و كانت النتيجة عجز المؤرخين عن التنبؤ بأحداث المستقبل، لأنهم يجهلون يخفيه القدر، و إنصرفوا إلى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاق نفسه"[2]، فقد ألغوا تماما قدرة الإنسان في التأثير على مسار التاريخ، و جعلوا الأحداث التاريخية أفعال مقدرة على الإنسان، ليس بيده تغييرها، و بالتالي فقد جعلوا التاريخ من صنع المشيئة الإلاهية و لا يمكن حتى التنبؤ بأحداث

[1] محاسيس، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، ص 219

[2] مهران، محمد بيومى، التاريخ و التأريخ، ص 110

المستقبل، هكذا كانت الدراسات التاريخية في فترة العصور الوسطى جافة، لا تحكمها أهداف، سوى خدمه مصالح الكنيسة و من يقدم الولاءات لها.

4. ظهرت في الكتابات التاريخية، النزعة الإنسانية هذه النظرة التي لم نجدها بوضوح في الفكر التاريخي اليوناني "فقد أكدت المسيحية أن للتاريخ البشري، إذا ما نظرنا إليه بمجموعه و شموله، معنى و مغزى، أي إتجاه و هدف كبير، و هو يحقق خط السير الذي وضعه الله لإنقاذ البشرية و تخليصها من محنها"[1] ولكن هذه النزعة الإنسانية بالرغم من أنها وجدت في الأفكار التاريخية، و بخاصة عندالقديس أوغسطين، إلا أنها إتصفت بالغموض، و جعلت الحقيقة التاريخية ناقصة لا يمكن للإنسان أن يعرفها. إذن فالمؤرخ ما عليه إلا تسجيل ما يسمع، دون التحليل، والتمحيص و المقارنة و البحث في الأسباب و العلل.

كان هذا فيما يخص أهم السمات التي عرفت بها الكتابات التاريخية في العصر الوسيط، والتي طغى عليها بوضوح الطابع الديني، فقد جاءت معظم الكتابات تتوافق مع آراء الكنيسة، إذ جل المؤرخين هم بالأساس رجال دين فجاء تاريخهم حملات دفاع عن العقيدة المسيحية، و بهذا فلم يظهر في هذه الفترة منهج تاريخي علمي واضح الرؤى، لذا كان الذكر التاريخي محدود و لم يخرج عن دائرتي الدين و الأسطورة؛ بحيث نجد المؤرخون إما في صف المسيحية يؤرخون للمعارك و الحروب الدائرة في سبيل نشرها، و إن كان حتى التأريخ لهذه الحوادث لم يتم بتلك الموضوعية المطلوبة في التاريخ، و إما نجد التأريخ يتجه نحو الحوادث العجاب ،و أدخلوا الحوادث الغريبة التي

[1] محاسي، نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، ص 219

لا تتطابق في بعض الأحيان مع الواقع ضمن التاريخ،و حجتهم في ذلك أن المشيئة الإلاهية هي التي قدرت هذه الحوادث.

المبحث الثالث: النظرية التاريخية والمنهج عند مؤرخي الإسلام

يقترن علم التاريخ عند المسلمين، بثلاثة أقطاب كبرى هم: الطبري، المسعودي، ابن خلدون، و هذا الكلام لا يعني أن ننكر وجود مؤرخين آخرين، وإنما نقصد من وراء هذا المؤرخين الذين أرسوا دعائهم المنهج العلمي في التاريخ. وجددوا على مستوى آلياته وقواعده، فتاريخ أي علم من العلوم يمر بمراحل فتكون مساهمة كل عالم أو مفكر مرحلة من مراحل تطوره، والأمر نفسه حصل لعلم التاريخ فتجد التاريخ عند الطبري تأثر بصورة واضحة بعلم الحديث ، فنجد تاريخه يعتمد على قوة الأسانيد، بينما المسعودي ربط التاريخ بالجغرافيا وببعض العلوم لأجل تفسير الوقائع، أما ابن خلدون فنجد منهجه التاريخي يقوم بالأساس على النقد للحوادث التاريخية والإحاطة بأحوال العمران وسنستعرض المناهج التاريخية لهؤلاء المؤرخين، ونبين آليات ومبادئ كل منهج.

خطوات المنهج التاريخي عند الطبري:

يعد تاريخ الطبري مرجعا ومصدرا تاريخيا أساسيا للمؤرخين المسلمين، وقد تجاوز الطبري النزعة التاريخية القبلية والمذهبية، وقد قام الطبري في تاريخه بعمل تركيبي للمرحلة السابقة ، وقد نجح الطبري في التاريخ لسببين هما:

أ-" الطبري حين كتب تاريخه ربط ربطا وثيقا بين التاريخ والأمة"[1] وبهذا نجد أن نظريته للتاريخ قد خلت من القبلية.

ب-"نفوذ تاريخ الطبري يرجع الى منهجه القويم في التاريخ حيث اعتبره القدماء مثالا للصرامة"[2] بحيث أن تاريخ الطبري على خلاف سابقيه من المؤرخين أمثال" ابن قتيبة"،" الدينوري" كان يورد لكل خبر مصدره وأسانيده حيث يقول في كتابه " تاريخ الأمم والملوك":" حدثني عبد الله ابن أحمد المروزي قال حدثني أبي قال حدثني سليمان قال قرأت علي عبد الله عن إسحاق بن يحيى عن موسى بن طلحة أن تبعا خرج في العرب يسير حتى تحيروا بظاهر الكوفة وكان منزلا من منازله فبقي فيها من ضعفة الناس فسميت الحيرة لتحيرهم".[3]

إن المتمعن في هذا النص يرى بوضوح تأكيد الطبري على استعمال الأسانيد في سرد أخباره، هنا مربط الفرس ووجب علينا التساؤل :ماهي قواعد وأسس المنهج التاريخي عند الطبري؟

لقد تعددت الاراء واختلفت حول تاريخ الطبري ،وحول آليات منهجه ونسبه الموضوعية في تاريخه لكن قبل الحكم على تاريخه سنعرض أهم القواعد التي ارتكز عليها في كتاباته التاريخية ويمكن أن نجملها في ما يلي:

1- حرص الطبري على استعمال المنهج الأصلي-الإسناد- بحيث أراد أن يرفع الخبر التاريخي إلى مستوى وثوق الخبر الشرعي ، وبهذا فقد اتبع طريقة أهل الحديث في رصد أخباره،"فهو ينقد

[1]-نصار، ناصيف، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط5، 2003،ص40.

[2]-المرجع نفسه،ص40.

[3]-الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد1، ج2، مكتبة خياط، شارع بليس،بيروت، لبنان،د، ط، ص3.

الروايات بالرجوع في الأصل إلى الإسناد"[1] ويعود إعتماده على مبدأ الإسناد بالدرجة الأولى الى ثقافته الدينية ،الأمر الذي جعل بعض النقاد يصنفونه على أنه فقيه وليس مؤرخ.

2- تعدد مصادر الكتابة التاريخية عند الطبري فهو" لا يكتفي بذكر مصدر واحد فقط بل يعدد في ذلك"،[2]واعترف له بهذه الميزة الكثير من المؤرخين حيث صار" تاريخ الرسل والملوك للطبري" يمثل مصدر أساسي للتاريخ الإسلامي و"هو يمثل قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في مدة التكوين. فقد كان الطبري طالب علم لا يعرف الكلل، فدرس على أساتذة في الري وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر، واستقر أخيرا في بغداد. وقد بلغ في علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة لا تبارى".[3]

3- قام الطبري بتركيب لعمليات التدوين السابقة ،بحيث نجد في تاريخه ذلك الطابع الأسطوري للتاريخ عندما يتحدث عن بداية الخلق إلى حين ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم بعدها،" قدم القراءة القبلية للتاريخ عندما تحدث عن الأنساب وأيام العرب، فضلا عن القراءة الإسلامية التي تمثلت في المغازي، والسيرة النبوية، وفتوح البلدان، ثم نمط الحوليات الذي ينسب إليه".[4]يتوضح لنا أن الطبري اهتم اهتماما بالغا بالمغازي والسيرة النبوية . الأمر الذي جعل منهجه التاريخي يقوم بالأساس على مبدأ العنعنة والإسناد لهذا سماه المسعودي بالفقيه أكثر منه مؤرخ.

---

[1]-الدوري، عبد العزيزن نشأة علم التاريخ عند العرب، الفهرسة أثناء النشر، إعداد مركز الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص47.

[2]-بن مزيان،بن شرقي، علاقة الفلسفة بالتاريخ من خلال كتاب البدء والتاريخ(لأبي طاهر المقدسي)، أطروحة دكتوراه في الفلسفة إشراف:د.فتحي التريكي،قسم الفلسفة ، جامعة وهران،1999-2000،ص84.

[3]-الدوري، عبد العزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب،ص47.

[4]-قاسم، قاسم عبد العزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب،ص47.

4- اللجوء إلى التدوين التاريخي إلى إعتماد الوثائق المكتوبة والسجلات كدليل يستند إليه في كتابة الأحداث التاريخية وهذا هو الجديد في منهج الطبري على خلاف سابقيه،"إذ الإهتمام بالدليل الوثائقي في الدراسة التاريخية كان نقلة نوعية مهمة غي هذا المجال ومازال يحظى باحترام الباحثين والمؤرخين حتى اليوم".[1] فالسجلات المكتوبة والآثار والنفوس كانت بمثابة براهين استعملها الطبري إما لتأكيد حادثة تاريخية ما أو نفيها.

5- عرف الطبري بنقله الخبر كما هو، بإعتماد الإسناد، لذلك إنه كان يكتفي بسرد الوقائع وذكر رواتها دون مراعاة واقعيتها، لذا نجد الكثير من الروايات الأسطورية التي أوردها، والتي لا تتطابق مع الواقع لذا نجد"ابن خلدون" أعاب عليه إغفاله نقد الروايات لإعتماده فقط على ظاهرة الرواية دون استنطاق باطنها وتبين كذبها من صحتها.

6- الإعتماد في نقل الأخبار التاريخية على الشك الظاهري فقط،فقد كان الطبري ينقل الرواية مع الشك فيها ظاهريا دون أن يلحق هذا الشك نقد وتمحيص، ونلمح هذا الشك الضمني في عديد الروايات التي جاءت في كتاب"تاريخ الأمم والملوك"،حيث يقول غي إحدى الروايات التي أوردها:"حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا حجاج عن أبي بكر عن عكرمة قال كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال فدعاها كسرى، فقال إني أريد أن أبعث غلى الروم جيشا واستعمل عليهم رجلا من بنيك فأشيري علي أيهم أستعمل قالت هذا فلان وهو أروغ من ثعلب وأحذر من صقر،"[2] يتجلى لنا بوضوح من خلال هذا النص ،خصائص منهج الطبري

[1]-المرجع نفسه ص139.

[2]-الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الأول،ج2، ص146.

والتي تقوم أساسا كما سبق وذكرنا على مبدأ الإسناد، والعنعنة مع الشك للوهلة الأولى في الرواية لكن دون عرضها على أصول النقد والتمحيص أو التعقيب عليها، بمعنى آخر أنه يتوخى الحذر في إصدار الأحكام على كتاباته التاريخية.

7- يربط الطبري العمل التاريخي بمبحث الزمان فقد نظم كتابه تنظيما زمنيا يبدأ من سنة الهجرة.

8- جعل الطبري الخليفة أو الحاكم سلطة وقوة محركة في الدولة وفي التاريخ لذا نجد تاريخ الطبري يدور حول"الأمور السياسية والإدارية والقضايا الداخلية للدولة بخاصة".[1]

إن تاريخ الطبري وما يؤرخ له من حوادث ووقائع إسلامية،تعد في حقيقة الأمر مادة أولية خام للتاريخ العربي الإسلامي وزاد يرجع إليه كل المؤرخين، حيث:"صار كتاب الطبري هذا نموذجا لكل التاريخ الإسلامي العام في عصور الثقافة العربية الإسلامية كما كان مصدر اعتمد عليه من جاءوا بعده لمعرفة تاريخ القرون الثلاثة الأولى من عمر الحضارة العربية الإسلامية."[2]

كانت هذه اهم الأسس والمبادئ التي قام عليها المنهج التاريخي للطبري،لكن الذي يؤخذ على الطبري أنه إعتمد على النقل الحرفي للرواية دون نقدها وتمحيصها وتبين أحوال الراوي، وإعتبر هو أن هذا الأمر أمانة علمية إلا انه يجعل الحادثة التاريخية خالية من الموضوعية العلمية، لأن الموضوعية العلمية في التاريخ تغيب بغياب النقد وتفقده أحوال الرواة، ومطابقة الحادثة للواقع وهذه الأمور قد افتقدها منهج الطبري، لذ نجده يورد لنا عديد الوقائع التي لاتمت للواقع بصلة

[1]-دلو،برهان الدين، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار()دالي ابراهيم-الجزائر، دار الغرابي، بيروت،ط2، ص125126.

[2]-قاسم، قاسم عبده، في تطور الفكر التاريخين ص125-126

،وهي في الأصل خرافات وأساطير تناقلها الأولون ووصلت إلى الطبري وأرخ لها وكأنها حوادث وقعت وهذا يتنافى مع العقل والواقع.

مبادئ المنهج التاريخي عند المسعودي:

لقب المسعودي "ببوليباس الشرق"و"هيرودوتس الشرق"، ويكفي أن ابن خلدون سماه إمام المؤرخين بالرغم من انه" ناقش بعض الأخبار التي رويتها في كتبك ونقض بعضها إلا أنه مع ذلك أشاد بك واعترف بفضلك على التاريخ"[1] والقيمة التي أضافها المسعودي للتاريخ وشهدت له، هي ربطه بين الجغرافيا والتاريخ فهو قبل أن يكون مؤرخ هو عالم جغرافي ،حيث اعتبر الجغرافيا البوابة الأولى التي نعرف بها تاريخ الأمم والشعوب . ومن بين أهم آثاره العلمية التي تركها كتاب" مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وحين عرضه للحوادث التاريخية قدمها في أقسام رئيسية،قسم يشمل أخبار الأمم والممالك الكبرى الماضية ،وقسم يشتمل على الجغرافيا الطبيعية والبشرية ،وقسم آخر يتناول مسائل السياسة والدين من الوجهة التاريخية ،كما تناول المرحلة الإسلامية من التاريخ العالمي.

استهل المسعودي كتابه"مروج الذهب ومعادن الجوهر"بالكلام عن بدء الخليقة فرأى المسعودي أن"أول ما خلق الله عز وجل الماء فكانعرشه على الماء فلما أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما السماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أراضين في يومين في الأحد والإثنين وخلق الله الأرض على الحوت والحوت هو الذي ذكره الله

[1]–شيخاني، سمير، أعلام الحضارة ج3، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر،بيروت، لبنان،د، ط، 1981، ص138.

في كتابه في القرآن،"[1] هكذا يكون للمسلمين هم الآخرين تصوراتهم عن أصل الوجود والكون والتي بنوهم إنطلاقا من معتقدات الدين الإسلامي، وبهذا نلمح أن التاريخ بدأ دائما متأثرا بالنظرة الدينية من هذه الزاوية وجب علينا طرح الإشكال التالي:

ما هي الأسس والقواعد الجديدة التي بنى بها المسعودي منهجه التاريخي؟ وهل صار في كتاباته التاريخية على طريقة أهل الحديث؟

حضي تاريخ المسعودي بدراسات كثيرة،ـــويعود هذا لأسلوبه الفريد والمتميز في الكتابة التاريخية،" والتاريخ عند المسعودي-هو العلم الجامع، و فلسفته التي تبين ما كان وما هو كائن، وهو يجعل موضوعه شاملا لحكمة الدنيا ولتاريخها، ويقول إنه لولا التاريخ لبادت آثار العلوم منذ زمان بعيد،لأن العلماء عرضة للزوال، ولكن التاريخ هو الذي يدون ما تجود به عقولهم، فيحفظ صلة الماضي بالحاضر، ينبئنا بآراء الناس، ويقص علينا ما وقع من حوادث دون شيع."[2]بهذا يجعل المسعودي علم التاريخ علما يجمع كل العلوم ،لأنه لا يؤرخ فقط لأحوال الدولة والسياسة بل يتعداها إلى العلم والعلماء،ويمكن حصر مبادئ المنهج التاريخي عند المسعودي فيما يلي:

-الجديد الذي يظهر في منهج المسعودي هو عدم إعتماده على النظرة الدينية،ولا على التيارات المذهبية، لذا نجده لديه" النظرة القومية، بالمعنى الوضعي للعبارة، لا بالمعنى الإيديولوجي، في معالجته لتاريخ الشعوب القديمة التي لم تعرف الوحي و لتاريخ الشعوب المعاصرة التي لم تدخل

[1]-المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، المجلد الأول، المطبعة الوطنية، باريس، الرقم293/4، د،ط، ص47.

[2]- ت.ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، نقله الى العربية وعلق عليه، محمد عبد الهادي، ابو ريدة، الدار التونسية، أو ميقا للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1998، ص146.

في الإسلام".[1] هكذا بدأ التاريخ يتحرر تدريجيا من سيطرة النظرة التاريخيةو يشق لنفسه منهجا جديدا.

-يرى المسعودي أن حركة التاريخ وسيرورته وراءها عوامل وأسباب، ترتبط بظروف الحياة والمجتمع يحدث من خلالها تفاعلات دينية، أو دنيوية ،و إجتماعية، وطبيعية ،لذا فالاعتدال والحكمة والتعقل ودراسة الوقائع والأحداث يجب أن تنطلق من نمو فكري وعقلي وتطور إجتماعي وإقتصادي، وإذا حدث وفسدت العادات الإجتماعية والإقتصادية فيرى المسعودي أن السبيل لتحاشي هذا الوضع يكون بالإعتبار بتجارب الماضي والتاريخ.

-ربط المسعودي بين التاريخ والجغرافيا" وبالطبع لو وصلت إلينا نسخة من كتاب(أخبار الزمان)، لأدركنا بالتفصيل كبفية معالجة المسعودي للمادة التاريخية بعد المادة الجغرافية"،[2] ومع هذا فالمسعودي لم يعي وعيا تاما بالتفاعل بين البيئة الجغرافية والأمة.

-الإنفتاح في الكتابة التاريخية فالمسعودي عرف برحلاته العديدة، فكان يقوم بتدوين كل ما يراه من احداث ومشاهدات، حيث قاده حب الاستطلاع" إلى بلاد بعيدة في إفريقية وفي الصين، ولكنه تكلم في كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات في أسفاره، وهذا ما تجنبه اليعقوبي وتحاشاه تحاشيا تاما،"[3]يتوضح لنا أن المسعودي سفره المتعدد إلى بلدان بعيدة كالصين وإفريقيا جعله يؤرخ لأصل هذه الشعوب وبعض الجوانب من تاريخها حيث أورد في كتابه "مروج

[1]-نصار، ناصيف، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، دار الطليعة لطباعة والنشر، بيروت، ط5، 2003، ص61.

[2]-المرجع نفسه، ص56.

[3]-آدم متر، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، تغريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، أعد فهارسه رفعت البدراوي، المجلد الثاني، الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت،د،ط2،1، ص10.

الذهب ومعادن الجوهر" ،حديثه عن أصل أهل الصين وكان يؤرخ لهم كما و أنه صيني منهم والنص التالي يبين ذلك" صار الجمهور من ولد عامور على ساحل البحر حتى انتهوا قاصية من بلاد الصين فتفرقوا في تلك البلاد والبقاع وقطعوا تلك الديار وعمروها وكوروا مصر والأمصار ومدنوا المدن واتخذوا للملك مدينة عظيمة سموها أنموا أو بينها وبين ساحل البحر الحبشي وهو بحر الصين ثلاثة أشهر مدن وعمائر متصلة فكان أول من تملك عليهم في هذه الدار،"[1] يتوضح لنا من حيثيات هذا النص أن المسعودي لا يذكر أسانيد روايته عكس الطبري،هذا من جهة ومن جهة أخرى نلاحظ أن المسعودي هنا يورد الرواية عن أصل الصين دون نقدها أو تمحيصها وتحليلها مع الرغم من أنه يدعو إلى النظر في الرواية وهذا نراه تناقض في تاريخ المسعودي.

-نوع المسعودي مصادره في تحري المادة التاريخية فنجد فيه ذلك "الحرص على الرواية الصحيحة من المصادر الأصلية مثل الوثائق والمراسم و المعاهدات الرسمية والمراسلات السياسية والبيانات الإحصائية من الدواوين،"[2] وقد كانت هذه المصادر الأصلية التي إعتمدها المسعودي وبحث عنها ،بمثابة المادة الأولية لمؤرخي الاسلام بعده، حيث وظفوها في التراجم عن القادة العسكريين والوزراء والأمراء والولاة ،كما ساعدهم على تاريخ الحروب.

-مراعاة المسعودي للزمن والترتيب في تصنيف مادته التاريخية" على أساس من تسلسل الملوك والخلفاء والقادة، بالرغم مما أودعه، إلى جانب ذلك، في ثنايا مؤلفه من معلومات متنوعة اجتماعية

[1]-المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص290،289.

[2]-الفتي، عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ الفكر الإسلامي، ص260.

واقتصادية وفكرية وفنية عن بلدان الخلافة فضلا عن ثقافة الأقطار التي كان لها علاقات اقتصادية وسياسية مع الدول العربية."[1]

نقل الرواية كما هي دون تأمل في صحتها ويعتبر المسعودي هذا الأمر درب من دروب الأمانة العلمية، لهذا نجد جانب من التاريخ الأسطوري في مادته التاريخية، حيث نقده العديد من المؤرخين حول هذه النقطة من بينهم ابن خلدون عندما أرخ المسعودي عن الاسكندر لما بنى الاسكندرية بحيث أورد في تاريخه أن الإسكندر وضع في صندوق من زجاج وهذه الحالة مستحيلة الوقوع لأنه إذا بقي فيه سيختنق ويموت وهذه الحادثة خرافية غير واقعية، مع هذا فقد وقع المسعودي في هذا الغلط، فالشعوب كانت تتناقل هذه الحكاية بغية الترفيه والتسلية.

إن مؤلف المسعودي لاشك يبقى مصدرا أساسيا ومهما يؤلف لعديد الحوادث الإسلامية وبالرغم من النقد الذي وجه إليه، إلا أن منهجه التاريخي قدم الجديد لعلم التاريخ ،وكان حلقة فاعلة من حلقات تطوير المنهج في التاريخ.

المنهج والنظرية التاريخية عند ابن خلدون:

يعد ابن خلدون أحد أقطاب علم التاريخ وعلم الإجتماع الذين أسسوا ونظروا لقيام علم التاريخ وعلم الاجتماع، وحين قدم ابن خلدون منهجه التاريخي قام بعملية نقد للتاريخ السابق عليه وغير الكثير من المقولات حول التاريخ، فما هو تعريف ابن خلدون لعلم التاريخ؟ وما هي البدائل التي قدمها في منهجه التاريخي؟

[1]– دلو، برهان الدين، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، ص 17.

علم التاريخ عند ابن خلدون:

يعرف ابن خلدون علم التاريخ على أنه "فن غزير المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يقف على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يقضيان بصاحبهما إلى الحق"[1]، يتوضح لنا من خلال هذا النص ،أن ابن خلدون يجعل التاريخ يقوم لأجل أهداف وغايات يحققها، كما يقوم ابن خلدون بنقد مناهج المؤرخين، التي ترى أن التاريخ هو سرد الروايات وتناقلها "دون تدقيق أو تمحيص، ولا سيما أن بعضا منهم قد رأى أن "النقل الدقيق" أمانة من الناقل، وضمانا لسلامة الحقيقة"[2]، كما سبق وذكرنا أن كلا من الطبري والمسعودي، رأوا أن ذلك النقل الدقيق سبل من أساليب تحقيق الموضوعية العلمية،ابن خلدون ثار ضد هذه المناهج وبين لنا مغالط المؤرخين التي يجب الحذر منها أثناء الحكم على حادثة تاريخية ما، فما هي هذه المغالط؟ وكيف يمكن للمؤرخ تفاديها في دراسة الظاهرة التاريخية؟.

مغالط المؤرخين:

ابتدع ابن خلدون نظريته التاريخية بعد أن درس التاريخ، بمعنى تاريخ السابقين له أمثال الطبري والمسعودي، فاستخرج لنا المغالط التي وقعوا فيها، ورآها هو بمثابة حجرات عثرة أمام تحقيق الموضوعية العلمية التي كان يصبوا لتحقيقها في تاريخه ويمكن إدراجها في عناصر كالآتي:

[1] ابن خلدون، عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون وهي مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ أو الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطتن الأكبر، دار ابن الهيثم، القاهرة مصر، ط1، 2005، ص 9.

[2] الصباغ، ليلى، دراسة منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، سوريا، دط، 1978، 1979، ص 51.

النقل الجاف الخالي من التبصر والتأمل للحادثة دون عرضها على أصول النقد "لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا و لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوع على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط"[1].

التشيعات للآراء والمذاهب: "وهذا يفقد الكتابة التاريخية ما يجب أن تتصف به من موضوعية وتجرد"[2]، معنى هذا أن النفس إذا كانت في حالة اعتدال في قبول الخبر، محصته ونظرت فيه حتى يتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي ما أو مذهب ما قبلت الأخبار من أول وهلة ورفضت ما لا يوافقها.

الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع: "بعض الدساسين قد يلبسون الأمر على الناس أو يصطنعون بعض الوقائع، فإذا لم يفطن المؤرخ إلى ما يداخل أخبارهم من التلبيس والتصنع، و لم يعرف كيف تنطبق الاحوال العامة على الوقائع الجزئية، لم يستطع أن يجتنب الوقوع في الخطأ"[3]. لذا على المؤرخ التفطن والتبصر بأحوال الراوي ومذاهبه الفكرية والدينية، حيث نجد بعض الذين دخاوا الاسلام يتعمدون دس بعض الأخبار المزيفة ،التي تضر بهوية الدين الاسلامي ورجاله.

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص 9.

[2] مرحبا، محمد عبد الرحمن، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، ص514.

[3] صليبا، جميل، تاريخ الفلسفة العربية، الشركة العالمية ش م ل، نشر وتوزيع مكتبة المدرسة، دار الكتاب العالمي، الدار الافريقية العربية، دار التوفيق، بيروت لبنان، ط3، 1995، ص568.

قياس الماضي على الحاضر قياسا مطلقا: إن الأحوال تتبدل وتتغير بتغير الزمان بالرغم من التشابه بين الأحداث، "ولذلك كان من الواجب على المؤرخ عند المماثلة بين الحاضر والماضي، أو بين الشاهد والغائب، أن يبحث عما بينهما من الوفاق والخلاف للنجاة من الغلط والوهم"[1].

كانت هذه أهم الأغلاط بالإضافة إلى أغلاط أخرى كالثقة بالناقلين،وولوع النفس بالغرائب، وفي هذا الصدد نجد المسعودي يقدم لنا في تاريخه حوادث غريبة مستحيلة الإمكان، وقد تنشأ الأعلاط من عدة أسباب او سبب واحد، فالشهرة مثلا من ضمن الأسباب التي توقع في الوهم والغلط لأنه قد يكون من اشتهر بأمر معين، خلاف ذلك في واقع الأمر وسبب هذا ما ينقل عنه من أخبار، فالأخبار يتخللها الذهول عن المقاصد والتشيع والتعصب.

إن أسباب الوقوع في الغلط والوهم نستطيع أن نقسمها إلى قسمين هما: الأغلاط القصدية والأغلاط اللاقصدية.

-الأغلاط القصدية: "هي الأخبار الكاذبة التي يضغها الدساسون لترويج مذهب، أو نشر دعوة، أو توفير منفعة، أو اصطناع أمر يلبسون به على الناس"[2].وقد كثر هذا النوع من الأخبار عندما توسعت دائرة الفتوحات الإسلامية، واختلطت الأمة العربية بأجناس أخرى، فليس كل من أعلن إسلامه هو صادق في أفكاره وإيمانه فوقع التحايل على الدين من طرف هؤلاء فصاروا يزيفون بعض الحقائق لتشويه صورة الاسلام والمسلمين الأمر الذي أدى بالمسلمين ودفعهم إلى

[1] المرجع نفسه، ص 569.

[2] المرجع نفسه، ص 570.

الحيطة والحذر فجمع أول الأمر القرآن الكريم في مصحف، بعدها حفظ السنة النبوية فجاء علم الحديث بمنهجه النقدي وفيه تميز العقل العربي بجديته وأصالته.

-الأغلاط اللاقصدية: "هي الأخبار المخالفة للواقع، التي ينقلها بعض الرواة عن حسن النية، لجهلهم، أو قلة فهمهم، أو عدم تدقيقهم فيما يسمعون ويشاهدون"[1] .

ويمكن أن تجتمع الأغلاط القصدية مع الأغلاط اللاقصدية في خبر واحد لدا كان لزاما على المؤرخ الحذر تتبع الإسناد في الرواية، فقد ينقل الخبر أو الرواية مخبر دساس، إن هذه الأغلاط دفعت ابن خلدون إلى تقديم منهج تاريخي جديد، صاغ لنا جملة من القوانين والقواعد وهي نظرية تاريخية بها ندرس التاريخ ونفسره ونحكم عليه.

نظرية ابن خلدون التاريخية:

قام ابن خلدون باكتشاف منهج تاريخي صارم صحح من خلاله الكثير من الروايات التاريخية ،وقدم في هذا المنهج قوانين نظريته التاريخية الجديدة التي تقوم على أساس تحكيم النظر العقلي لأنه يهتم بدراسة أسباب وعلل الظاهرة التاريخية "وهو بهذه الروح النقدية والفلسفية التي لا غبار عليها يجعل للتاريخ ظاهر وباطن وهذه قاعدة ابستمولوجية حديثة في العلوم الانسانية ينتبه إليها ابن خلدون في القرن الرابع عشر ميلادي"[2].معنى هذا أن ابن خلدون اول من وجه تلك الدعوة الصريحة المتمثلة في النظر في ظاهر وباطن التاريخ،وأسس لفلسفة التاريخ النقدية كما أنه أيضا أثار

[1] المرجع نفسه، ص570.

[2] جليد قادة، تعليل التاريخ مابين ابن خلدون وهيجل، دراسة نقدية تحليلية مقارنة، أطروحة دكتوراه إشراف: أ عبد اللاوي محمد، قسم الفلسفة، جامعة وهران، 2005، 2006.ص 74.

سؤالا مهما لم يطرح من قبل كيف نكتب التاريخ؟ إن هذا السؤال المهم هو جواب في حقيقة الأمر يزيل الإلتباس عن علم التاريخ لأنه من هذا السؤال إنطلق ابن خلدون وشيد صرح نظريته.

درس ابن خلدون التاريخ العربي الإسلامي منهجا، أصولا، وقواعدا لأن المنهج الأصلي الذي قام عليه كان الإسناد، فنقد جميع المؤرخين دون إستثناء بما فيهم الكبار، كالمسعودي والطبري، فهو بعترف بأنهم أوصلوا لنا ظاهر التاريخ في حين أن باطن التاريخ الذي هو لبه وحقيقته كان له هو الفضل والسبق في الكشف عن مواطنه ويرى ابن خلدون ،أن سبب الخطأ والغلط يعود إلى جهل المؤرخين بعلم العمران،"الذي يشكل مدخلا منهجيا لمعرفة التاريخ على حقيقته ولتصحيح الروايات التاريخية بمقارنتها بقوانينه."[1]يتوضح أن ابن خلدون يقدم قوانين النظرية التاريخية التي يربطها بعلم العمران فما هي هذه القوانين التي يستعين بها المؤرخ في دراسة الحوادث التاريخية؟

ان ابن خلدون عندما يطالب المؤرخ باستنطاق باطن التاريخ يقصد من وراء هذا النقد والتحليل والتمحيص والنظر والتعليل، أي تعليل الوقائع وإسقاط القوانين عليها فابن خلدون رفض" الأساس الميتافيزيقي من خلال نفيه لقدرات العقل النظري، وذهب للبحث عن الأساس الإستيمولوجي للتاريخ حيث يقرر منذ البداية بأن التاريخ هو خبر عن الإجتماع البشري، وذلك هو التطابق الحاصل لديه بين الحقيقة والتاريخ، ولذا فهو محتاج لأن يبين قانونا لتمييز الحق من الباطل في الأخبار."[2]

[1] عاصي، حسين، ابن خلدون مؤرخا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991،ص111.

[2] – بن شرقي ، بن مزيان، تصنيف العلوم عند العرب بين البعد المعرفي وقلق المصير، مجلة عصور، العدد6-7، جوان،ديسمبر2005، يصدرها مخلر البحث التاريخي، جامعة وهران،ص231.

-يقوم منهج ابن خلدون التاريخي باتباع جملة من القوانين، وهدف هذه القوانين هو الوصول الى الحقيقة وتحقيق الموضوعية العلمية في التاريخ، وبهذا يكون قد شق طريقا جديدا ليس لعلم التاريخ وحده، وإنما للعلوم الإنسانية والإجتماعية، بحيث تقف هذه القوانين في وجه الزلات والمغالط.

قانون العلية والسببية:

إن التاريخ علم يفسر الوقائع والأحداث بارجاعها الى أسبابها وعللها الأولى، وفي القانون يثور ابن خلدون ضد التواريخ السابقة التي تعلل التاريخ على" أساس السحر والتنجيم والإتكالية والوثنية، كان ابن خلدون برفض ذلك كله"[1] ذلك أن الحوادث ترتبط ببعضها البعض فكل حدث له أسبابه وهو بدوره سيصبح سببا لحدث آخر، فالظاهرة التاريخية تتكون نتيجة تعدد عوامل تتفاعل فيما بينها، ولا يمكن للحوادث أن تحصل بمجرد الصدف أو الحظ.

قانون التشابه:

إن الظروف المتشابهة تنشأ لنا حوادث متشابهة" لذلك بفهمنا الحاضر نستطيع أن نفهم الماضي ونقدر المستقبل. لكن ابن خلدون ينبه للخطأ في قياس الماضي على الحاضر والآتي قياسا مطلقا دون التفطن لما يقع من تغير الأحوال وانقلابها لأن أحوال الأمم لا تقوم على وتيرة واحدة. لذا يترتب على المؤرخ أن يعمل على مماثلة الحاضر بالغائب باحثا ما بينهما من خلاف أو وفاق."[2]

[1]- فروخ، عمر، تاريخ الفكر العربي إلى إيام ابن خلدون، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط4، 1983، ص296.

[2]- بيرم، داوود، الدليل في الفلسفة العربية، دار الكتب الحديثة، لبنان، بيروت، ط2، 995، ص206.

قانون التطور:

إن الحياة الإنسانية تمتاز بالتغير والتبدل فالأحوال لا تبقى على حالها، وهنا جعل ابن خلدون الدولة مثل الكائن الحي، تمر بمراحل الطفولة، الشباب ثم الكهولة بعدها الشيخوخة والهرم"وقد أضاف قانون التطور في العمران البشري الذي وضعه ابن خلدون تطور فكري في مجال العلوم الاجتماعية ابتداءا من القرن السابع عشر غلى غاية القرن العشرين"[1]بحيث أن البحث في خصائص العمران البشري لتفسير التاريخ أنتج لنا مصطلح جديد على مستوى المنهج آلا وهو الحتمية العلمية في التاريخ فالظروف المتشابهة تنتج عنها بالضرورة حوادث متشابهة،وتقوم الحتمية العلمية في التاريخ بمنهج المقارنة الذي يعتمد على دراسة أولا الأسباب والعلل وتشابه الأحداث، ذلك أن القوانين التي وضعها ابن خلدون تتفاعل فيما بينها وتتكامل لأجل تقديم رؤيا واضحة لمجرى الأحداث التاريخية.

قانون الاستحالة وعدم الإمكان:

لقد كان التاريخ قديما يؤرخ للخرافات و الاساطير وبهذا نرى أن التاريخ نظر إليه على أنه وسيلة ترفيه عن النفس. لكن هذا المفهوم الساذج للتاريخ ما وطئا ان تغير مع ابن خلدون، الذي ثار ضد الميتافيزيقا والخرافات والسحر والأساطير، ورأى أن التاريخ هدفه الأساسي كشف الحقيقة فالحوادث التي تنطبق مع الواقع أدخلناها دائرة الإستحالة لأن التاريخ يبحث في الوقائع وأسبابها و

[1] - Abdelkhader Djghloul,Majalat el tarikh,Actes du colloque international sur Ibn khaldoun Alger21-26 juin 1978,société national d'édition et de diffusion,Alger ,1982 ,p213.

عللها وظروفها بغية الإستفادة منها لبناء الحاضر والتشييد للمستقبل وهذه الغاية الشريفة للتاريخ قد أغفلها الكثير من المؤرخين.

كانت هذه هي أهم القوانين التي جاءت في خطاب ابن خلدون التاريخي، وهي كلها تصب في خدمة التاريخ والعلوم الإنسانية ككل.

نظرية ابن خلدون التاريخية وتجديدها:

عاش ابن خلدون في عصر تميز بالكثير من الإنحطاط الفكري، والصراعات السياسية و الشقاقات لذا كان من الطبيعي أن يبحث في التاريخ السابق عله يجد بين ثنايا أحداثه حلا لواقع الحاضر، فدرس المجتمع من خلال علم العمران الذي أسسه ليفسر به مجرى الأحداث، وبهذا يكون "صاحب نظرية تاريخية ليس لها مثيل قبل ظهور فيكو بحوالي 300 عاما مما أعطاها وزنا طغى على أرسطو وغيره من الفلاسفة، ووصف نظريته بالأصالة والفطنة والعمق والإحاطة في كتابة فلسفة التاريخ، وتشبهه بالعظماء من الأوربيين مثل دانتي الذي فتح أبواب الشعر، وروجر بيكون الذي فتح باب العلم.

وإن ابن خلدون وحده من استطاع أن يستفيد من المادة التاريخية،وهذا رأي فلنت الذي يشبه كثيرا أراء فلاسفة التاريخ في الغرب،"[1] وبهذا يعترف الكثير من المفكرين الغربيين الذين اشتغلوا حول التاريخ بنباهة فكر ابن خلدون ،و أصالته ،وجديته، فقد فتح أبواب العلوم العلوم الإنسانية والإجتماعية على مناهج جديدة دفعتها الى الأمام، وتكمن إضافات ابن خلدون الجديدة في مجال علم التاريخ فيما يلي :

[1]– الزيدي، مفيد كامد، المدخل الى فلسفة التاريخ، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،ط1، 2006، ص42.

1- المصطلح: غير ابن خلدون مفهوم التاريخ فبعد أن كان ينظر إليه أنه فن من الفنون تجمع الأساطير والحكايات المرفهة عن النفس، بات معه علما قائما بحد ذاته، يدرس الأحداث والوقائع" فابن خلدون أراد أن يكون واقعيا وموضوعيا ويرتبط أكثر بالواقع حتى في عنوان كتابه العبر"[1] وهكذا صار التاريخ معه يبحث في العلل والأسباب ويقدم أدوات دراسة المنهج.

2- المنهج: قدم ابن خلدون منهجه التاريخي متجاوزا التواريخ السابقة له، حيث رأى أن للتاريخ ظاهر وباطن وعلى المؤرخ استنطاق هذا الباطن ومحاكاته عن طريق مبدأ النقد المنهجي،وفي هذا السياق يرى" فولتار أن سبب حكمنا على ابن خلدون يعود الى قوة بعض صفحاته، وهذا دفاع حقيقي وحكم حقيقي للتاريخ العلمي فالتاريخ يجب أن يكون نقدا بالأساس"[2] ويرجع اعتراف الغرب بأصالة وحداثة الفكر الخلدوني الى تلك الروح العلمية والموضوعية التي إمتاز بها فكر ابن خلدون، حيث أرخ لتاريخ اليهود و كأنه مؤرخ منهم، بكل حياد و موضوعية فتعرض الى التاريخ، وهنا يعود في الحكم على تاريخهم بقانون الأجيال الثلاث، فالأمة تنمو وتتطور ثم تبدأ تتلاشى إلى أن تندثر وتقوم أمة بدلها.

[1]Yves,lacoste , ibn khaldoun aissance de l'histoire, passé du tiers monde, François maspero1, place paul-painlevé,paris,5éme edition,1980,p198

[2]Jean,chard cuy, palmade , l'histoire, seconde édition,revue et corrigée,libraiaie armand colin,103,boulvard saint michel-paris,5éme,p160

قواعد المنهج التاريخي:

عرف العصر الذي عاش فيه ابن خلدون بالتشتت والصراعات، فجاءت مقدمته كعصارة وصفت التاريخ السابق، وقدمت حلولا لكن هذه الحلول التي قال بها ابن خلدون، نظمها في قواعد وقوانين بها نستقرأ الماضي ونتنبأ بالمستقبل."وهذه الطريقة الخاصة بتحليل المجتمع عند ابن خلدون تشابه مؤلف ماركس إلى جانب ماركس يوجد تيار تأثر بابن خلدون مثل لاكوست ولبيكا"[1] إذن مما لاشك فيه أن أفكار ابن خلدون التاريخية والإجتماعية كانت المادة الأولية الخام التي نهل منها مفكرو العصر الحديث. فكانت فلسفة التاريخ التي يرى البعض أن "فولتير أول من صاغ مصطلح فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر، وإن قصد بها التحليل النقد للتاريخ"[2] هنا يجب تحديد مفهوم فلسفة التاريخ ،فإن كانت فلسفة التاريخ تعني دراسة السلوك الإنساني في مراحل وكيفية تطوره بأسلوب عقلي نقدي،فابن خلدون كان السباق في تأسيس هذه الفلسفة قبل فولتير بثلاثة قرون، أضف إلى ذلك أن فلسفة التاريخ" الخلدونية ليست فلسفة تشاؤمية، شأن فلسفات التاريخ المنذرة بنهاية العالم وأفول الحضارة، بل هي فلسفة طبيعية للسيرورة التاريخية تعتبر الموت نهاية فترة تاريخية، وبداية فترة جديدة، ذلك أن الخاتمة الطبيعية لدولة أو سلطان يؤدي بالضرورة إلى ميلاد شوكة جديدة وعصبية بديلة".[3]

[1]Abdelkhader,djeghloul,trois études sur ibn khaldoun,N edition 1014l81, l'entreprise national du libre Alger,1984,p56

[2]-هيجل، العقل في التاريخ، المجلد الأول، من محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق، إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ط3، 2007، ص31.

[3]-سليم، رضوان، نظام الزمان العربي، دراسة في التاريخيات العربية الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006،ص172.

إن دراسة ابن خلدون للتاريخ وإشتغاله على تحليل مغالط المفكرين، وكيفية تفاديها في جملة من القواعد جعلته يكشف لنا عن علم العمران الذي يصطلح عليه حديثا بعلم الاجتماع." ومما أهل ابن خلدون لإكتشاف هذا العلم هو أنه لم يتبع تصنيف أرسطو للعلوم عكس الفلاسفة الإسلاميين الذين قرأووا واقعهم بواسطة ثقافة اليونان في حين ابن خلدون الذي قرأ الواقع الاسلامي بمعطيات الثقافة الإسلامية وأخضع الثقافة اليونانية لمنطق ثقافته وحضارته"[1] وهذه الأصالة في دراسته لأحوال المجتمع هي التي ساعدته على بلورة علم العمران، فالفكر الغربي قطف البذور الأولى لهذا العلم وطورها، في حين نجد أن معظم الأفكار التاريخية والإجتماعية المتداولة اليوم، مثل: مبدأ العضوية، نقد التاريخ، الحتمية التاريخية، قانون الأجيال الثلاث، هذه كلها مقولات خلدونية سبقهم في التطرق إليها.

التاريخ العربي والنقد العلمي:

قدم التاريخ العربي الإسلامي إسهامات جليلة لعلم التاريخ،"وعندما نقدم دراسة عن تاريخنا لا بد أن نتناول الوجهين، المشرق والقاتم: نتناول الوجه المشرق لنعرف عناصر القوة، ونتناول الوجه القاتم لنعرف أسباب التدهور، وكيف نهض الأجداد بعد عثرة، وعثروا بعد نهوض، وبالتالي فإننا نتناول الأخبار كلها: مافيه ضعف، وما فيه قوة، وما فيه سقم وما فيه صحة."[2]

[1]-جليد، قادة، العلية في التاريخ بين ابن خلدون وهيغل، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكر بالجزائر، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران،ط1، 2013، ص100-101.

[2]-شراب، محمد محمد حسن، في أصول تاريخ العرب الإسلامي، دار القلم، دمشق، الدار السامية، بيروت،ط1، 1993،ص193.

فحال الفكر العربي المعاصر بحاجة ماسة إلى الإعتبار من التاريخ الإسلامي للنهوض ويكون هذا بالبحث في العلل و الأسباب، والحقيقة التي لا يمكن تجاوزها، هي أن المسلمين برعوا في علم التاريخ وبخاصة في عملية النقد العلمي فالعلم الحديث يعترف" لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الكامل، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخي ونوعوا التأليف فيه وأكثروا إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخي الأمم الأخرى، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره. وهو الصدق في القول والنزاهة في الحكم،"[1]

ويقوم منهج النقد التاريخي بإتباع طريقتان هما:

1- طريقة أهل الحديث: يراعى في جمع الأحاديث بإتباع الإسناد في إحصاء الرواة و أحوالهم ويتبينون الصادق من الكاذب.

2- طريقة علماء التاريخ:"وهو أن يعرضوا كل خبر على سجايا من يخبر عنه، ويقارنوه بسيرته، وهل مما ينتظر وقوعه ممن نسب إليه، ويلائم المعروف من سابقته و أخلاقه أم لا."[2]

إن المتأمل لأصول النقد عند المسلمين، يرى بوضوح أصالة الفكر العربي في إبتداع منهج تاريخي نبع من ظروف وأسباب عربية إسلامية داخلية محضة، لا علاقة لتأثير الفكر الأوربي بل على العكس فقد إستفاد الفكر الغربي من التراث العربي و"لو حذف العرب المسلمون من التاريخ لتأخرت حضارة أوربا عدة قرون معتبرا العرب قد حفظوا التراث القديم من الضياع، وقدموه للحضارة الأوربية الحديثة سالما معافى."[3]

[1]- ج، هرنشو، علم التاريخ، ص45.

[2]- شرلب، محمد محمد حسن، في أصول تاريخ العرب الإسلامي، ص194.

[3]- الرفاعي، أنور، الإنسان العربي والتاريخ، ص43.

الفصل الثاني

العلم الجديد عند فيكو والتأسيس للمنهج التاريخي

المبحث الأول: فيكو والواقع التاريخي لفلسفات عصره

المبحث الثاني: أصول العلم الجديد

المبحث الثالث: مبادئ العلم الجديد والتأسيس للمنهج التاريخي.

التاريخي

تمهيد :

حاول مؤرخوا الفلسفة الإغريقية وضع الأسس الأولى لبناء نظرية تاريخية تؤسس لميلاد علم التاريخ وفق ضوابط علمية ومنهجية كما حاولوا وضع منهج لدرس الأحداث التاريخية، غير أنهم تأثروا كثيرا بالأسطورة رغم جهود البعد الفلسفي في بعض الكتابات التاريخية عندهم خاصة عند "هيرودت"، لقد اعتبر بعض نقاد فلسفة التاريخ عند الإغريق بأن الكتابات التاريخية الإغريقية ترتقي في عمومها إلى درجة النسق الفلسفي التاريخي، من جانب وضعهم لأسس فلسفية تأملية لبناء نظرية حول التاريخ وتأسيس مبادئ لمنهج علمي يدرس الأحداث التاريخية، ولعل "فيكو" في بعض تأملاته الفلسفية حول النظرية التاريخية قد انتقد بعض المبادئ التي اعتمد عليها الاغريق في كتاباتهم التاريخية.

أما عندما توقفنا عند الفكر المسيحي قفد استنتجنا ذلك الارتباط العضوي للتاريخ بالدين المسيحي، كما لاحظنا ميلاد بعض المناهج التي اهتمت بالكتابة التاريخية والتي وقف منها "فيكو" موقف الناقد ، ولكنه ظل أمينا بدرجة كبيرة للسلطة الكنيسية متلما سنرى لاحقا.

أما الفكر الاسلامي التاريخي مع أقطابه الأساسية التي تطرقنا إليها فقد وضع الأسس العلمية الصحيحة لميلاد شكل معرفي للنظرية التاريخية والمنهج خاصة عندما وقفنا عند ابن خلدون ومنهجه التاريخي، فكيف تعامل فيكو مع هذا الإرث التاريخي الذي سبقه، وماهي أسس نظريته التاريخية ومنهجه في الكتابة؟.

المبحث الأول :فيكو و الواقع التاريخي لفلسفات عصره .

السيرة الذاتية لفيكو و آثاره العلمية :

ان صعوبة البحث في فلسفة التاريخ عند "فيكو" تعود بالأساس الي قلة الدراسات والأبحاث حول فلسفته وحول سيرته الذاتية لان هذه الأخيرة هدفها الأساسي هو « الحفاظ علي حياة الفيلسوف وسهولة فهم فلسفته ونشاتها والقياس عليها في ظروف متشابهة او مخالفة وتضع الموضوع تدريجيا والفلسفة ليست ابنية مذهبية مجردة بل تعبيرا عن حياة الفلاسفة وعصورهم وعيبها انها قد تكون انتقائية نظرا لصعوبة الحصول علي الاعمال الكاملة لكل فيلسوف »[1]

يقود الحديث عن فلسفة التاريخ بالضرورة إلى علم بارز من الأعلام الذين أرسوا مبادئ و أسس المعرفة التاريخية و علم التاريخ ككل،ألا وهو الفيلسوف الإيطالي جيامباتستافيكو (1668-1744). " نشأ في أسرة رقيقة الحال فكان والده إبنا لفلاح نزح إلى نابولي عام 1656 ، و كانت أمه ابنة صانع عربات كما كانت هي الزوجة الثانية لأبيه . كان جامباتستافيكو الطفل السادس لأسرة مكونة من ثمانية أطفال" [2] ، و بهذا فقد ترعرع فيكو في عائلة بسيطة ، فقيرة ، الأمر الذي دفع به إلى الإهتمام بالعلم والدراسة لرفع مستواه المعيشي، إلتحق بمدرسة الآباء اليسوعيين في عمر مبكر، أين درس فيها اللغات اللاتينية و اليونانية " كما درس الآداب والبلاغة و

حسن حنفي ,فيخته ,فيلسوف المقاومة,مركز الكتاب للنشر ,القاهرة ,دط,2003,ص20.

[2]أبو السعود ، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند جامباتيستافيكو ، دار التنوير للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت ، د.ط 2006 ، ص 13

التاريخي

الفلسفة و المنطق و اللاهوت و التشريع، و خاصة التشريع الروماني بالإضافة إلى ما حصله من فترات اعتكافه في مكتبة والده ".[1] هكذا يكون فيكو قد حصل الكثير من العلوم ، و سمح له هذا بأن يصبح أستاذا للبلاغة في جامعة نابولي و قد كان عمره آنذاك واحد و ثلاثون سنة، و قد كان يتقاضى أجرا قليلا زهيدا، لم يمكنه من رفع و تحسين ظروفه المادية بالرغم من محاولاته العديدة " وراء الكسب و بدافع من الفقر و العوز، وضع فيكو كتابات مرتبطة بمناسبات خاصة كخطب المديح و الخطب الجنائزية و قصائد الزفاف، بالإضافة إلى محاضراته في البلاغة و الخطب الإفتتاحية ".[2] و قد تم نشر جانب من هذه الخطب عام 1907، ضمن كتاب بعنوان "مناهج الدراسة في عصرنا"، بالإضافة إلى هذا كتب عن الشعر و الشعراء، و إهتم أيضا بالكتابة عن فلسفة ديكارت، في حين أن المؤلف الذي ظهرت فيه الروح العلمية الخالية من جو المناسبات و المجاملات، كتاب "الحكمة الإيطالية القديمة"، "و قد قدم فيه نظرية جديدة في المعرفة و الميتافيزيقيا (تعارض نظرية ديكارت) رأى فيها "ياكوبي Jacobi (1743- 1819) فيما بعد حدسا بمذهب كانط في المبادئ القبلية للإدراك الحسي و العلم الطبيعي"[3] و مايجب الإشارة إليه هو أن معظم دراسات فيكو و كتاباته على إختلاف تخصصاتها تناولت المجتمع البشري و القانون المدني، و رأى أن القوانين مستمرة في حقيقة الأمر من جوهر الفلسفة و لبها.

[1] المرجع نفسه، ص13 .
[2] المرجع نفسه، ص14 .
[3] المرجع نفسه ص15.

التاريخي

إن أهم الأعمال العلمية التي قدمها"فيكو" و استطاع نشرها بشق الأنفس، العلم الجديد"مبادئ علم جديد مختص بالطبيعة المشتركة للأمم" و الذي نشره فيكو من نفقاته الخاصة و المحدودة عام 1925، و نظرا لأهمية الأفكار التاريخية التي جاء بها هذا الكتاب اعتبره الكثير من الفلاسفة " أبا لفلسفة التاريخ وباعتباره رائدا في إدخال مناهج معينة لدراسة التاريخ و إقتراحه بعض المبادئ العامة، كما اعتبر البعض الآخر فيكو أحد مؤسسي علم التاريخ، حيث أسدى إليه من الخدمات ما يماثل ما أسداه "باكون" في خدمة بحث العلم الفيزيائي، كما أنه أي فيكو تحرر من الإتجاه البرجماتيّ في التاريخ و هو الإتجاه الشائع في عصر النهضة الإيطالية".[1]على غرار هذا الكتاب ألف فيكو كتابا آخر يتناول سيرته الذاتية بأسلوب تشويقي يروي فيه مساره التعليمي، و يقر في هذا المؤلف بإستفادته من أفكار عدة فلاسفة و علماء منهم الفيلسوف اليوناني أفلاطون و عالم الفيزياء بيكون.

توفي فيكو في يناير عام 1744م، مايمكن لنا أن نقوله عن حياة فيكو أنه كان قليل الحظ، فالزمان الذي عاصره لم ينصفه فقد ظل غير معروف طيلة حياته، و بعد مماته عرف بعد مرور مايقارب خمسة عقود من الزمن، من خلال الدراسات التاريخية التي باتت تهتم بالمنهج العلمي في التاريخ. و هكذا يكون من ضمن الفلاسفة الأوائل و السباقين الذين أرسوا ووضعوا مبادئ و

[1]الشيخ رأفت، تفسير مسار التاريخ، عين للدراسات الإنسانية و الإجتماعية، مصر، د.ط، 2000م، ص104.

-البراغماتية : بالإنجليزية (pragmatism)هي مذهب فلسفي سياسي ترى أن مقدار فائدة العمل هي معيار الحقيقة بحيث يتم استخراج النظرية إنطلاقا من التطبيق و قد ظهر هذا الإتجاه لأول مرة في أمريكا عام 1878م.

التاريخي

أسس فلسفة التاريخ كما أنه حاول أن يضع لعلم التاريخ منهجا علميا قويما كما سنرى هذا لاحقا.

بدايات التفكير التاريخي في القرن الثامن عشر:

تقتضي الدراسة العلمية لدراسة أي منهج أو نظرية لفيلسوف أو عالم ما، الإحاطة الدقيقة بظروف عصره، ومعرفة مدى تأثيره و تأثره بما حوله من معارف و نظريات، و فيلسوف التاريخ"فيكو" عاش مع مطلع العصور الحديثة و قد عرفت هذه الفترة إنتشار موجة النهضة داخل إيطاليا و خارجها أيضا في أوروبا، و أطلقعلى هذه النهضة التي عرفتهاأوروبا بعصر التنوير، و تمثلت مبادئ فلسفة هذا العصر في الثورة ضد الميتافيزيقيا ، و تكريس سيادة المنهج العقلي والتجريبي المادي، كما ثارت أيضا ضد سلطة الدين و اعتبرت الكنيسة سلطة تقيد الفكر و تكبح إبداعاته.

من هذه الزاوية نرى أن العصر الذي عاش فيه فيكو كان نقطة تحول جذرية في مجال الفكر الإنساني و العلوم الطبيعية، إذ عرفت الكثير من الإكتشافات العلمية كقوانين نيوتن والتي اصطدمت مع سلطة الكنيسة، وقد رمى التطور العلمي الحاصل في هذه الفترة بحباله على العلوم الإنسانية، و بخاصة التاريخ فقد تغير ذلك الفهم الساذج لعلم التاريخ الذي كان يراه سردا للأحداث الماضية من سير ملوك و أمراء و معارك، إلى علم يهدف لخدمة الإنسان بغية الإستفادة من دراسة الحوادث الماضية لاستخلاص العبر و الدروس،لكن فلاسفة التاريخ و علماء التاريخ

التاريخي

حاولوا في هذه الفترة إسقاط مبادئ المنهج التجريبي على علم التاريخ، من خلال إيجاد قوانين نفسر بها الظاهرة التاريخية على عكس ماساد في العصور الوسطى والتي كان فيها علم التاريخ خال من النقد والتحليل يرتبط في أهدافه و غاياته بالسلطة الدينية ،و من ثمة شهد"القرن الثامن عشر بداية التفكير الحر بالقدر الذي سمح بتقدم علوم كثيرة منها العلوم التجريبية و الدراسات التاريخية. و إذا كانت فلسفة التاريخ لم تظهر بصورة واضحة إلا في القرن الثامن عشر على يد فيكو إلا أن هناك بدايات للتفكير التاريخي قبل ذلك ساعدت فيكو بطريقة غير مباشرة على بلورة أفكاره الرئيسية في فلسفة التاريخ" [1] و بمعنى آخر قد وجد فيكو تلك الأفكار و المعارف التاريخية بمثابة مقدمات أولية لم تساعده هو وحده فقط، بل جعلت المؤرخين و المهتمين بعلم التاريخ أمام لحظات حقيقية لبس فيها علم التاريخ ثوبا جديدا فظهر الإهتمام بالمنهج التاريخي. و لعل أهم إسهام برزت فيه مظاهر الإهتمام بالمنهج التاريخي، كان في كتاب بيكون(1561-1626)" تقدم العلم" " وفيه وجه بيكون الأنظار إلى ضرورة الإهتمام بالتاريخ بجانب الإهتمام بالأخلاق ،و بالرغم من قول بيكون أن المعارف كالأهرامات قاعدتها التاريخ إلا أنه لم ينظر للتاريخ كمصدر للعظة الأخلاقية والتربوية، واعتباره رصيدا نافعا يستخلص منه القدوة والمثل"[2] و حين نتكلم عن إستخلاص المثل، هنا نقصد معالجة الوقائع التاريخية بمنظور علمي ذلك أن العلوم الطبيعية بلغت

[1] عطيات محمد أبو السعود، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص23

[2] عطيات محمد أبو السعود، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص24

التاريخي

ذروة تقدمها و تطورها من حيث الدقة العلمية، الأمر الذي جعل المؤرخين هم الآخرين يضعون مؤلفاتهم ضمن أطر و مناهج هدفها الوصول إلى اليقين و الحقيقة العلمية.

إن الظروف السياسية و الدينية و موجة التقدم العلمي التي عاشتها أوروبا مع مطلع القرن الثامن عشر، و نشأة القوميات الفتية،كل هذه الظروف كانت عوامل و أسباب سامحة و مواتية لظهور نخبة من المؤرخين اهتموا بالإلتفات حول كتابات المؤرخين القدامى، الأمر الذي نتج عنه إزدياد و غزارة المادة التاريخية من نقوش ووثائق و سجلات قديمة، و هنا يجب التنويه إلى أنه الكتابات التاريخية التي سادت في هذه الفترة كانت على نوعين:

النوع الأول: ظهرت بعض المؤلفات التاريخية التي كان هدفها الأول إحياء التراث الإغريقي و اليوناني القديم، و قد نجحت هذه المؤلفات في التنقيب عن المادة التاريخية و جمعها و تنظيمها لكنها لم تتعامل مع الوقائع التاريخية، بتلك الدقة و التمحيص و النقد.

النوع الثاني: كانت هناك مؤلفات تاريخية حاولت التعامل مع المادة التاريخية بنوع من الشك ،و تمثل هذا النوع في كتاب جانونه " فكان الكتاب الوحيد الذي قدم تاريخا عاما اهتم فيه بالقوانين و النظم الإجتماعية كما أكد نظرته النقدية، خاصة فيما يتعلق بتاريخ السلطة الكنسية"[1]، إذن نشأ فيكو في بيئة اتسمت بالتجديد و التغيير في الأفكار و المناهج، فما كان عليه إلا أن يبدع

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو،ص26

التاريخي

هو الآخر و يقدم الجديد، فكانت فلسفة التاريخ أولى الأبواب التي طرقها فيكو، فماهي إضافات فيكو لعلم التاريخ ؟

فيكو و فلسفات عصره:

يجمع أغلب المفكرين و المشتغلين بحقل العلوم الإنسانية و الإجتماعية، أن تطور أي علم أو نظرية ما إنما يجدد بالعوامل و المؤثرات المحيطة به من البيئة بجوانبها المختلفة، و كما نعلم أن فيكو عاش مع مطلع العصر الحديث، وحين نتحدث عن العصر الحديث يستوقفنا أبو الفلسفة الحديثة ديكارت، فماهو موقف فيكو من فلسفة ديكارت؟

موقف فيكو من المنهج الديكارتي:

يمثل ديكارت في حقيقة الأمر حجر الأساس للفلسفة الأوروبية الحديثة حيث اعتبره هيجل" المحرك الأول للفلسفة الحديثة حتى في الفكر العربي المعاصر يقول طه حسين في الشعر الجاهلي أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت في بداية العصر الحديث"[1]، ذلك أن فلسفة ديكارت أثارت الكثير من القراءات الفلسفية و جعلت الفكر الأوروبي ينقسم إلى قسمين: الإتجاه العقلاني و الإتجاه التجريبي، و تظهر عقلانية ديكارت في كتابه "مقال في المنهج"، و يمكن تلخيص مذهب ديكارت في ثلاثة أمور هي : قواعد المنهج، الشك الديكارتي، وجود الإله و طبيعته.

[1] مصطفى، بدر الدين و الإمام غادة، الميتافيزيقيا، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2012، ص90.

التاريخي

قواعد المنهج: وضع ديكارت أربع خطوات بمثابة شروط يجب على العقل أن يتبعها ليصل إلى الحقيقة في العلوم، تتمثل القاعدة الأولى في "البداهة و الوضوح ألا أقبل شيئا على أنه حق، ما لم أعرف بالبداهة أنه كذلك ما النتائج المترتبة على هذه القاعدة؟"[1]، أما القاعدة الثانية تتمثل في التحليل فأي مشكلة أو قضية يجب أنتقسم إلى أجزاء حتى يتسنى للعقل حلها في حين القاعدة الثالثة هي" قاعدة الترتيب أو التركيب أن أرتب أفكاري بحيث أبدأ بأبسطها، ثم أتدرج قليلا حتى أصل إلى معرفة أكثر تعقيدا"[2]و القاعدة الرابعة تتمثل في الإحصاء أين يجب على الباحث أو الدارس أن يحصى جميع الإحصاءات و المراجعات التي ذات صلة بالمشكلة أو القضية، و بهذا فمنهج ديكارت منهج عقلي يرتكز على البداهة و اليقين "ولقد قال ديكارت:إن أكثر مايرضيني هو أنني استعملت المنهج العقلي، إن لم يكن على وجه كامل فعلى الأقل على أفضل وجه ممكن"[3].

الشك الديكارتي : إستعمل ديكارت الشك المنهجي للوصول إلى الحقيقة و الشك المنهجي هنا يقصد به ديكارت ليس الشك لأجل الشك ،فهو شك مؤقت هدفه الوصول إلى حقيقة خالية من الشك و الإلتباس.

[1] المرجع نفسه، ص92.
[2] المرجع نفسه، ص93.
[3] المرجع نفسه، ص93

التاريخي

وجود الإله: يثبت ديكارت وجود الله "بأدلة و براهين عقلية، وكونه يعرف فكرة الإله بحدس باطني يجعل فلسفته مشابهة لفلسفة القديس أوغسطين التي تعتمد على النفس الوسيلة وهي الحدس و البصيرة الداخلية لاكتشاف فكرة الإله داخل النفس"[1].

كانت هذه هي أهم الخصائص التي جاءت في مذهب ديكارت الفلسفي، مايهمنا ليس تبيان فلسفة ديكارت، وإنما توضيح وجهة نظر فيكو من فلسفته.

لقد وفق فيكو بين مذهب ديكارت موقف المهاجم الثائر ضد فلسفته و مبادئها حيث نقد الكوجيتو الديكارتي، و الأدلة التي أثبت بها وجود الله كما نقد أيضا الأسس و القواعد التي أقامها ديكارت في المنهج الذي ابتدعه "فالكوجيتو في رأي فيكو لا يلغي الشك و لا يقدم أساسا للعلم، لأن الشك يكون على يقين كاف من تفيكره ووجوده معا، و لكن يقينه هو يقين الشعور البسيط لا يقين العلم، إن الكوجيتو يترك الأمر على هذه الحال غير أن معيار الحقيقة كما يراه"فيكو"هو صنعها"[2]، بتعبير آخريرى ديكارت أن الوعي بالأنا هو الذي يعطينا الحقيقة في علم التاريخ في حين أن فيكو يرى أن الفعل الإنساني هو مبدأ أو أساس الحقيقة في علم التاريخ.

نقد فيكو ديكارت في الأدلة التي أثبت بها وجود الله،"ويكفي أن نقرأ هذه العبارة لفيكو في "الحكمة الإيطالية القديمة". إن الذين يحاولون أن يثبتوا وجود الله بصورة قبلية، يرتكبون إثم الفضول البعيد عن التقوى والورع، لأن من يفعل ذلك يجعل من نفسه إلها يصدر حكمة على الله

[1] نفس المرجع، ص98

[2] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص30

التاريخي

و بذلك ينكر الوجود الإلهي الذي كان يبحث عنه"[1]و بالتالي ففيكو حين نقد ديكارت في الأدلة التي تثبت وجود الله يكون قد نقد التصورية الديكارتية التي تنطلق من أسس عقلية بحتة، لكنها في جوهرها تخضع لبناءات لاهوتية وتشبه الأفكار التي سادت في عهد آباء الكنيسة."وهكذا نجد كيف أن اللاهوت المسيحي يتدخل في كل المواضيع التي يحاول فيها ديكارت أن يظهر بالمظهر العقلاني الكامل"[2].

ثار فيكو ضد نظرية ديكارت في المعرفة ،والتي ترى أن اليقين الرياضي هو معيار الوضوح وتجلي الحقيقة ففي نظر ديكارت، كل علم لايستعين بالرياضيات في منهجه لا يستطيع تحقيق اليقين والدقة العلمية، وعلى رأي فيكو أن العالم الفيزيائي يصل إلى تلك الدقة ،و لكن ليس بتطبيق المنهج الديكارتي وإنما بفضل توظيف المنهج التجريبي الذي طبقه كل من فرنسيس بيكون وجاليليو، و بهذا يكون "رأي فيكو هذا سابقا لأوانه و غريبا على عصره لأنه يختلف عن الرأي العام السائد حينذاك، لذا لم ينتبه أحد لأهمية أفكاره إلا بعد مرور مايقرب من مائة عام على موته"[3]. وربما يعود عدم فهم سبب أفكار فيكو في عصره إلى الغموض والتعقيد الذي ظهر في تآليفه، فانطلاقا من الأسس التي نقد فيها فيكو ديكارت يتوضح لنا أن الغاية والهدف الأكبر من وراء هذا ليس هو تبيان المنهج الديكارتي عاجز عن الإبداع و الإختراع، وإنما جاء نقده لديكارت

[1] المرجع نفسه، ص31

[2] أبو ريان، محمد علي، أسلمة المعرفة العلوم الإنسانية و مناهجها من وجهة نظر إسلامية، دار المعرفة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 1997، ص208.

[3] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص32.

التاريخي

ردا مدافعا عن الجانب الإجتماعي والتاريخي للإنسان ،ذلك أن فلسفة ديكارت تقوم بالأساس على جعل التاريخ ضمن الآداب و الفنون وجعله غير قادر على مواكبة مبادئ و أصول المنهج التجريبي، وكان الأولى بديكارت أن ينظر إلى التاريخ بصورة عملية نفعية، فالتاريخ يتعلق بجميع جوانب النشاط الإنساني وهو ذاكرة الإنسان التي لا تموت و"فكرة موضوع التاريخ قد تبلورت لأول مرة لدى فيكو في نظرته إلى العملية التاريخية بوصفها عملية تمكن الإنسان من ابتكار النظريات الخاصة باللغة والعادات والقانون والحكمة، أي أنه ينظر إلى التاريخ بوصفه نشأة الجماعات الإنسانية وأنظمتها وتطورها"[1]، وعلى هذا فقد كان صائبا فيكو في نقده لديكارت فليس بالضرورة أن نطبق الرياضيات حتى نتوصل إلى الحقيقة، والدليل على هذا التطور الهائل الذي وصل إليه علم التاريخ الحديث، في تحقيق نسبة عالية من الموضوعية العلمية، باعتماد المنهج التحليلي النقدي المقارن.

نقد فيكو لنظريات القانون الطبيعي:

عاش فيكو طفولته في القرن السابع عشر ونشر كتاباته في القرن الثامن عشر، وعرف القرن السابع عشر بسيادة النزعة العقلية والعلمية، وساعد هذا الوسط الثقافي فيكو كثيرا، بحيث جعله يفكر عمليا في إيجاد منهج جديد للمجتمع، على غرار ما قدمه نيوتن لعلم الطبيعة.

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص34.

التاريخي

كانت هناك صعوبات وظروف بمثابة عوائق أمام فيكو لينظم أفكاره في مذهب أو نظرية، حيث أنه كان دائم الإطلاع على الكتابات السابقة، مثل كتاب "قانون الحرب والسلام" لجروسيوس وقد عرفه هذا الكتاب على "أصحاب نظريات القانون الطبيعي سيلدن وبافندروف، ثم قاده نقد باندروف و هوبز أيقن فيكو أن مؤسسي المجتمع المدني الأول لم يكونوا فلاسفة و لم تنشأ المجتمعات الأولى من الحكمة الفلسفية العميقة كما كان يعتقد قديما"[1]، بل حاجات الإنسان الطبيعية وغرائزه الفطرية، دفعت به إلى البحث لإيجاد ظروف حياة أكثر ملاءمة وحضارة وهكذا تطور الإنسان شيئا فشيئا إلى أن أصبح بهذه الحضارة وصنع لنفسه سلوكات إجتماعية نظمها في أطر قوانين تنظم حياته.

يطلق على الفلسفات التي تهتم بدراسة الجوانب السياسية والمدنية للمجتمع، بنظريات القانون الطبيعي والنظريات السياسية، وقد عرفوا أصحاب هذه النظريات في القرن السابع عشر بحدة تفكيرهم العقلي، فكيف كان موقف فيكو من نظرياتهم؟.

نقد فيكو الفلسفة السياسة من خلال أساسين:

"الأول:إنهم فسروا الماضي من أجل أهدافهم ومصالحهم، فهم لايدرسون الماضي لذاته وإنما من أجل نظريات سياسية تتعلق بحاضرهم.

[1] نفس المرجع، ص34.

التاريخي

الثاني: كانت تعوزهم الحاسة التاريخية إذ تصوروا المجتمع ستاتيكيا ثابتا كما لو كان لا يتغير من عصر إلى آخر، لقد افترضوا وحدة الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان"[1]، بحيث نظروا إلى الحوادث التاريخية نظرة غير موضوعية خالية من التبصر والإحاطة بظروف ذلك العصر، فتجاهلوا كيفية تشكل الجماعات الإنسانية و نشأة المجتمع والدول واعتمدوا في دراستهم على مناهج تعسفية، تبتعد كل البعد عن المنهج التحليلي التركيبي النقدي الذي يعد أنجع المناهج على رأي فيكو" لتتبع تطور الجماعات وذلك ليتسنى تتبع المجتمعات من حيث بدأت وكيف تشكلت وعلى أي نحو تطورت، وحينما نتبع هذا المنهج ونتحرر من الأفكار الفلسفية المبتسرة عن تكوين المجتمعات فإن مجال البحث التاريخي يتخذ وجهة نظر جديدة ذات مضامين منهجية عميقة ينفرد بها التاريخ"[2]، من هذه الزاوية يتوضح لنا أن فيكو صاحب فلسفة تاريخية عميقة، فنقده لتيار فلاسفة القانون الطبيعي أو للفلسفة السياسية جاء نتيجة إسقاطهم أفكار وثقافات عصرهم على الشعوب الأولى، فالطريقة التي يفكر بها البشر تختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر، أضف إلى ذلك أن مايؤخذ على أصحاب نظريات القانون الطبيعي معالجة الحوادث التاريخية بجانب من الذاتية، فكيفوا كتاباتهم التاريخية بما يلائم مذاهبهم الفكرية ومصالحهم " وبهذا ففيكو يكون نقده وقف على نقيض أفكار هوبزلوك اللذين يريان أن أشكال الدولة في بداياتها صاغها الحكماء في حين أنه لا وجود للحكماء بدون وجود الدولة فالدولة حين تقوم هي التي توجد الحكماء

[1] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية،ط4، 2004، ص163.
[2] المرجع نفسه، ص163.

التاريخي

والحضارة"[1] إن المتمعن في فلسفة فيكو التاريخية يلمح بوضوح كيف أن إطلاع فيكو المعمق على نظريات القانون الطبيعي و نقده لهم، هو الذي قاده نحو وضع تاريخي جديد نفهم من خلاله نمو المجتمعات و تطورها "لأن القانون الطبيعي للشعوب تكون بطريقة عفوية وبدائية، فالشعوب البشرية لم تكن تفهم بعضها البعض، لكن بعد تعقد الحياة وظهور الحروب والسفارات بدأت الشعوب تتشابه وتشترك في طبيعتها"[2]، لذا فإننا نجد العنوان الذي خص به فيكو منهجه يتضمن الطبيعة المشتركة للشعوب، وقد أصدره للمرة الأولى تحت عنوان "مبادئ العلم الجديد المتعلق بالطبيعة المشتركة للشعوب" وكان فيكو يقصد بالطبيعة ميلاد وتكون الشعوب ونشأتها على أن أول طبيعة تكون الجماعات الإنسانية وتربط بينها هي العقيدة والدين ثم تمتزج بقية العناصر الثقافية والمعرفية لتدخل ضمن خصائص المجتمع و مكوناته، ومن هذا الباب غير فيكو من تلك النظرة الساذجة التي ارتبطت بالتاريخ في العصور الوسطى، بحيث كان التاريخ الخادم الأمين للدين، فكان جل المؤرخين من رجال الدين، حاول فيكو أن في دراسته لتكون الشعوب الإنطلاق من عصره العقلاني ليصل إلى العصور البدائية الأولى ويمكن فهم هذا الأمر بشكل واضح من المسلمة الأولى التي جاءت في كتابه "العلم الجديد":"إن كل نظرية يجب أن تبدأ من حيث يبدأ الموضوع الذي تتناوله"،وبذلك تكون مشكلة تكون المجتمع المدني هي مشكلة الأصول التاريخية لهذا المجتمع، وهي

[1]Brehier E histoire dela philosophie tome I la philosophie moderne paris presses universitaires de France 1947 p370

[2]vicoGB ,new science:Trans by thomas goddard bergin and harold fisch new York, cormell universiTypress, 1969 P21.

التاريخي

نقطة أساسية أخفقت التشريعات الكبرى والنظريات السياسية للقرن السابع عشر في التعرف عليها"[1] .

يتوضح لنا من خلال استعراضنا لنقد فيكو لكل من ديكارت وفلاسفة القانون الطبيعي أو الفلاسفة السياسيين، أنه قد استفاد من الإطلاع على الكتب التاريخية القديمة التي تناولت حياة الإنسان البدائي الأول، كما أنه إطلع أيضا على الفلسفة اليونانية فتعرف على أفكار شيشرون وأفلاطون وأرسطو، وحاول أن يقيم نظام اجتماعي مثالي يتسم بالعدالة في إيطار الحماية الإلهية، هذا فيما يخص الفلسفات الأولى، أما في العصر الحديث فقد تأثر بآراء فرنسيس بيكون، من هنا فقد توافرت لديه هذه العوامل و الظروف التي ساعدته على بلورة أفكار إستطاع بفضل حكمته أن يجمعها في كتابه "العلم الجديد". على الرغم من أن عصر فيكو شهد تجاهل كبير للمادة التاريخية بعد تطور العلوم الأخرى، من هنا يكون من المؤسسين الحقيقيين الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأولى لفلسفة التاريخ، على غرار ماقدمه "ابن خلدون" هو الآخر، ولكن مع هذا فهو لم يستطع أن يكتب التاريخ العالمي، و يمكن حصر أهم الإنجازات الفكرية التي قدمها في النقاط التالية:

لقد أبدع فيكو منهجا تاريخيا جديدا قام في حقيقة الأمر على أنقاض المذهب الذي رسمه فلاسفة العصور الوسطى،"حيث قام بنفس الدور الذي قام به أوجست كونت بالنسبة لعلم

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص36.

التاريخي

الإجتماع، والواقع أن أهميته ترجع إلى المنهج أكثر مما ترجع إلى المذهب فهو قد حدد القواعد اللازمة لهذا العلم"[1]، ولكن مع هذا فنحن لا نجزم ونقول أنه مبدع منهج تاريخي جديد وإنما قراءاته للتواريخ السابقة والتي اتسمت بالنقد و التحليل جعلته يقدم منهج تاريخي يعتمد على التحليل والنقد والتركيب ،وما كان له أن يتوصل إلى هذا المنهج لولا توافر المادة التاريخية التي إجتهد على جمعها مؤرخوا العصور الإغريقية والوسطى.

ساهم فيكو بشكل متميز في إرساء الدعائم الاولى لفلسفة التاريخ، حيث قدم رؤية فلسفية جديدة تتم بها دراسة الوقائع، كتلك التي جاء بها "ابن خلدون" ومايجب الإشارة إليه أن الكثير من آراء فيكو تشبه آراء ابن خلدون في علم التاريخ وابن خلدون سابق على فيكو بحولي ثلاثمائة سنة،ولا نعلم إن كان فيكو قد إطلع على أفكار ابن خلدون وبالتالي، فالقول بأن فلسفة التاريخ في نشأتها تعود إلى فلسفة الأنوار، إجحاف في حق من أرسوا الدعائم الأولى لعلم التاريخ، وهنا نقصد ابن خلدون وفيكو فهما فلسفا التاريخ وأدخلا عليه النظرة التحليلية النقدية، كما أسقطا قوانين العلمية على الحوادث التاريخية.

كانت هذه الإطلالة السريعة على مواقف فيكو من فلسفات عصره، والتي هي في حقيقة الأمر بمثابة عوامل وأسباب شكلت نقطة الإنطلاق التي اهتدى فيها فيكو إلى مبادئ العلم الجديد،

[1] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص159.

التاريخي

والذي أعطى عهد جديد لعلم التاريخ أكثر علمية و عقلانية، فما هي المبادئ و الأسس التي يقوم عليها العلم الجديد.

المبحث الثاني : أصول العلم الجديد

أصول العلم الجديد: صنف فيكو في القرن الثامن عشر على أنه من المؤرخين الوضعيين ،ذلك أنه تأثر بالمنهج التجريبي لفرنسيس بيكون، فأراد أن يضع للتاريخ منهجا يضفي عليه الدقة العلمية فكان من ضمن فلاسفة التاريخ الأوائل الذين نقلو "التاريخ من ميدان الحرب إلى الدرس، بوضع منهجية وأصول البحث التاريخي، إهتم بالعقل للوصول إلى الحقيقة، فرق بين المقدس والدنيوي في كتابة التاريخ، أظهر أن لكل عصر مكانا خاصا من نظام تطوري، وترك نظرية التعليل اللاهوتي مفتشا عن العلل الطبيعية وأسباب الحدث"[1].

[1] الشامي، فاطمة قدورة، علم التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان،ط1 ، 2001 ، ص88.

التاريخي

العلم الجديد عند فيكو:

اتسمت كتابات فيكو الأولى بالذاتية ذلك أنها كانت مناسباتية، وكانت غايته الأولى هي الكسب لتحسين ظروف عائلته المادية، لكن الأمر اختلف مع مؤلفه "العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم"، يحتوي هذا الكتاب علة خمسة أجزاء : الجزء الأول في الأسس و المبادئ، والثاني في الحكمة الشعرية، أما الجزء الثالث يكشف عن حقيقة هوميروس، الجزء الرابع في مسار تاريخ الأمم، الخامس في عودة الإنقلابات وتكرارها عند انبعاث الأمم بعد انحطاطها. أراد فيكو من وراء هذا المؤلف وضع منهج علمي يقوم عليه التاريخ كبقية العلوم الأخرى مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية، قلد فيكو إقليدس في الهندسة في وضعه لأصول العلم الجديد "وقدم مجموعة من المسلمات الفلسفية واللغوية يبلغ عددها مائة و أربعة عشر مسلمة تنطوي على مجموعة من المصادرات و التعريفات، و تتعدد موضوعات هذه المسلمات و تتشعب وتتسم بالتكرار وتتداخل وتتشابك أحيانا ويشوبها الغموض أحيانا أخرى"[1] و على هذا الأساس فقد شاب مؤلفه الغموض والإلتباس مما جعل إكتشاف فلسفة فيكو أمر صعب، وتجاهله لفترة زمنية طويلة إلى حدود القرن التاسع عشر أما الإنصاف الحقيقي لفكر فيكو ظهر في القرن العشرين بعد أن ظهرت ترجمات لكتاب العلم الجديد، ودراسات تحليلية نقدية، لفلسفة فيكو التاريخية والإجتماعية .

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص41.

حاول فيكو معالجة الأحداث التاريخية عن طريق البحث العلمي التجريبي، وهي محاولة أصيلة وجريئة في ذلك الوقت، كما أنها لحظة تأسيس صادقة لفلسفة تاريخ قائمة بذاتها، تبحث عن قوانين تتحكم في مسار الأمم، وعلينا إنصاف فيكو في هذا الأمر، فالكثير ينسب نشأة فلسفة التاريخ إلى "فولتير"،في أننا نرى أن فيكو وقبله الفيلسوف العربي ابن خلدون كانا السباقين في إرساء القواعد والأسس الأولى لفلسفة التاريخ.

لقد فتح كتاب العلم الجديد لفيكو الأبواب لنقد نظريات المعرفة و بالأخص المنهج الديكارتي، مما أدى إلى تأسيس نظرية نقدية للمعرفة التاريخية، أراد من خلالها أن يضع مذهبا عاما شاملا يتتبع الأحداث التاريخية والشعوب والأمم في نشأتها وتطورها وانحلالها، "فالدراسة التاريخية تهتم بالمجتمع البشري وإنسانيته عن طريق فهم مراحل الحياة التي مرت بها البشرية إلى المرحلة التي تمكن فيها الإنسان من دراسة التاريخ، وهذا مظهر من المظاهر التي يفهم بها العقل نفسه"[1]، وهذه هي الفكرة الأساسية التي تأسس لنظرية المعرفة عند فيكو، كما أنها هي محور فلسفته إلى جانب هذا فقد إهتم فيكو إهتماما بالغا باللغة، والدليل على هذا أنه اعتمد في الكثير من تحليلاته على المنهج اللغوي ،الذي بحث به عن أصل الكلمات والمفاهيم ودلالتها الإجتماعية والتاريخية في

[1]Rubinoff,lionel :Vico and the verification of historical interpretation, in :vico and contemporary thought, edited by giorgio taghiacozzo and others, newyork, 1976 ,P94.

التاريخي

تكوين التنظيمات الإجتماعية، وقد تأثر فيكو بآراء المصريين القدامى في تشكل الجماعات الإنسانية، والتي مرت في نظره بثلاث مراحل هي:

عصر الألوهية: الذي اعتقدت فيه الشعوب أنها تعيش فيكنه سلطة إلهية، وكانت حياة الناس تسير وفق تنظيمات أقرها رجال الدين والكهنة.

عصر الأبطال: وهو العصر الذي سادت فيه الحكومات الأستقراطية التي رأت أنها تتميز وتتفوق عن عامة الناس.

عصر البشرية أو عصر الإنسان: "وهو الذي عرف فيه الناس أنهم جميعا متساوون في الطبيعة البشرية وبناء على هذا تأسست أولا الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات وكلاهما شكل من أشكال الحكومة البشرية"[1]، انطلاقا من هذه المراحل فسر فيكو الكيفية التي تطورت بها طبيعة الشعوب، وقد عبر عنها في شكل مسلمات لعلمه الجديد، هنا يتوجب علينا تحديد أصول العلم الجديد وما قدمته هذه الأصول من إسهامات لفلسفة التاريخ.

أصول العلم الجديد و التأسيس لقيام علم التاريخ:

لقد أحاطت بفيكو أثناء إقامته لمشروعه العلم "العلم الجديد" ظروف و عوامل مساعدة أهمها، إنتشار المنهج التجريبي لفرنسيس بيكون الذي تم به "الكشف عن أوثان الفكر و أوهام المفكرين فأراد أن يستفيد من هذا في دراسته للتاريخ من حيث المنهج و كان من هذا قوله بأن

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها ونشاتها وأهم مذاهبها، ص180.

التاريخي

المؤرخين يتعرضون لأوهام حصرها في أربعة"[1]، و هي بمثابة معوقات للفكر أمام التاريخ الموضوعي وعلى المؤرخ الإحاطة بهذه الأوهام و التفطن لها و يمكن تعدادها كالآتي:

1. أوهام المؤرخين :

- وهم التهويل و التفخيم: حيث تنظر كل أمة إلى تاريخها نظرة التمجيد، فتحاول إبراز كل مظاهر القوة والثراء في حين "إن قيمة كل فترة تاريخية ليست بمقدار ما تم فيها من إنجازات و إنما حسب الدور الذي أدته في المسار العام للتاريخ، و يقابل هذا الوهم ما أشار إليه بيكون من وهم القبيلة"[2].

- وهم الثقافة الأكاديمية أو وهم الثقافة و التعليم : يتصور الكثير من الناس أن الأفراد الذين لعبوا أدوارا مهمة في التاريخ و كانوا حلقات مميزة و مغيرة في مجتمعاتهم، أنهم أصحاب مستوى علمي و ثقافي كبير إلا "أن المجد التاريخي و الثقافة غير مرتبطين، فالكثير ممن لعبوا دورا بارزا في التاريخ كانوا أقل الناس علما و ثقافة"[3].

- وهم المصادر أو وهم التأثر و التأثير: تشابه الأفكار في كثير من الأحيان،مما يؤدي إلى تشابه المذاهب الفكرية،الأمر الذي يقود المؤرخ إلى الحكم بأن المذاهب الفكرية المتشابهة قد تأثر بعضها ببعض،وهذا إجحاف في حق القدرة الإبداعية للعقل الإنساني،وعند هذا الوهم علينا

[1] المرجع نفسه، ص178.

[2] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص160.

[3] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ، ص178.

التاريخي

أن نأخذ مثال فأفكار "إبن خلدون"حول نشأة الدولة تشابه أفكار"فيكو"،وهنا يجب التذكير أن"إبن خلدون" سبق"فيكو"بحوالي ثلاثة قرون،ومع هذا فلسفة"فيكو"التاريخية تتفق مع فلسفة "إبن خلدون"التاريخية،فكلاهما شبه الدولة بالكائن الحي تمر بمراحل،النشأة ثم النمو و التطور ثم الموت أو الإنحلال و الزوال.

- وهم الإقتراب:"حين يعتقد المؤرخ أن السابقين أكثر علما بالنسبة للعصور القريبة العهد بعصرهم ويرجع هذا الوهم إلى تصور التاريخ كذاكرة الإنسان كلما كان موضوع التذكر أقرب عهدا كان أكثر ثباتا ووضوحا في الذاكرة"[1].

كانت هذه أهم الأوهام التي عرضها"فيكو",وهي عبارة عن أخطاء و مغالط قد يقع فيها المؤرخين كما قد يقع فيها عامة الناس,وقد نظمها –الأوهام-في مسلمات من واحد إلى أربعة تختص بمميزات العقل البشري، وبهذا يكون "فيكو" قد أحصى العوائق الحقيقية التي يمكن أن تقف في وجه المؤرخ فلا تمكنه من تحقيق العلمية التي يصبو إليها.

2.الفلسفة و اللغة:

[1] المرجع نفسه ،ص ص178،179

لقد كان "فيكو"عالم لغة حيث إهتم بالإشتقاقات اللغوية،كما أكد أيضاعلى "على وظيفة الفلسفة و رسالتها في خدمة الجنس البشري، وهنا يظهر تأثره بمثالية أفلاطون إذ سمح للفلاسفة السياسيين و خصوصا الأفلاطونيين بالإنضمام إلى مدرسة علمه الجديد و يرجع ذلك في رأيه إلى أمور ثلاث: إعترافهم بالعناية الإلهية، الإعتدال في الإنفعالات البشرية و الإيمان بخلود الروح وهي -كما سنرى فيما بعد- المبادئ الثلاثة للعلم الجديد"[1].وبهذا يكون قد تأثر بأفلاطون و رفض فلسفة الأبيقوريين و الرواقيين، فالرواقيين آمنوا بموت الجسد و محاربة اللذة،أما الأبيقوريين جعلوا الإحساس مصدر جميع المعارف و كلاهما في نظر فيكو على خطأ حيث حاول في علمه الجديد أن يقيم الحدود بين بعض المفاهيم حيث ميز "بين الوعي أو الضمير و بين العلم أو المعرفة، فالأول يطلب اليقين المؤكد و وسيلته في البحث عنه هي فقه اللغة، والثاني يطلب الحق و وسيلته الفلسفة، و العلم الجديد يجمع بين الفلسفة و فقه اللغة و يطلب تضامن علماء اللغة و الفلاسفة لتحقيقه"[2]، و على هذا الأساس فقد جعل الفلسفة جنبا إلى جنب مع فقه اللغة و على المؤرخ القويم الإستعانة بهما حتى تتضح له الرؤى، ذلك أنه حسب فيكو الفيلسوف الذي لا يستعين بعلم اللغة فإنه لن يصل إلى الحقيقة كاملة ،و الأمر نفسه إذا لم يوظف عالم اللغة الفلسفة سيصل إلى نصف الحقيقة و يمكن فهم هذا الأمر من خلال المسلمة التالية: "الفلسفة تتأمل العقل لمعرفة الحقيقة، أما

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص43.
[2] المرجع نفسه، ص44، 45.

التاريخي

علم اللغة فيرتكز على الوعي باليقين و هو الوعي الذي يأتي من الإختيار الحر للإنسان"(المسلمة 10)"[1].

إن المتمعن في فكر فيكو و فلسفته يلمح أن منهجه التاريخي الذي وضعه، لم يكن وليد دراسات و قراءات لمناهج و علوم قديمة و إنما تأتي نتيجة إهتمام فيكو بالفلسفة و اللغة "ذلك لأن الإشتقاقات اللغوية تكشف عن أسلوب الحياة و التفكير لدى شعب ما نظرا لارتباط الألفاظ بالمعاني، و من ثم فإن الألفاظ المستخدمة الآن حتى المجردة منها ترجع جذورها إلى صور الحياة و التجربة بعيدة عما اعتدنا عليه، من ذلك أن الرومان اقتبسوا لفظتي (Intellegere dissere) اللتين تدلان على الفهم و المناقشة من البيئة الزراعية"[2]، حيث أنهما تدلان على الثمار بعد حصادها فوظائف اللغة تتعدى مجرد إيصال الأفكار، إلى عمليات عقلية تنمو و تتطور عبر عصور التاريخ، فالتعرف على نمط حياة أي مجتمع إنما تتم في المرحلة الأولى عن طريق الدراية التامة بلغته، و كيفية تطور هذه اللغة، هكذا يكون فيكو من أصحاب الرأي القائل أن ننظر "إلى اللغات الطبيعية تبعا للطريقة التي نمت بها، بوصفها وسائل للتواصل، مع رفض أية محاولة لوضع صيغة صورية لها على أساس أنها تشويه لها. و تبعا لهذا الرأي تكون مهمة المنطق في الواقع زائدة عن الحاجة، و يكون

[1] المرجع نفسه، ص45.

[2] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص164.

التاريخي

المعيار الوحيد الذي يمكنه توصيل المعنى إلينا هو الاستخدام الفعلي للغة ذاتها "[1]و بالتالي "فيكو"يرفض إدخال أية صيغ صورية على اللغة و في إعتقادنا أن"فيكو"قد أخفق في هذا الأمر، لأنه بهذا الشكل يحد من وظائف اللغة كما أنه من جانب آخر يلزمنا أن نأخذ بظاهر الحديث فقط دون باطنه. مع هذا فإننا نرى أن المنطق أداة و معيار يجب أن تحتكم إليه اللغة لتحقيق أكبر قدر من الموضوعية.

كانت هذه أهم الأفكار التي أوردها "فيكو" حول الفلسفة و اللغة و هي لب و جوهر المنهج التاريخي عنده، غير أن المسلمات الأخرى مرتبة من المسلمة الخامسة إلى المسلمة الإثنا عشر و كلها تتناول وظيفة الفلسفة واللغة.

3.القانون الطبيعي للشعوب:

"يحسم فيكو الجدل القديم بين أصحاب القانون الطبيعي و القائلين بأن القانون إجتماعي،القانون الطبيعي للشعوب نشأ عن العرف أو العادة و لم يفرض بالقانون،ومحافظة الشعوب على عاداتها أعطى هذه العادات شكل القوانين لأنه ليس هناك شيء أحب إلى البشر من الإعتزاز بعاداتهم"[2].وبهذا "فيكو" يتصور القانون الطبيعي للشعوب،قد نشأ بصورة عفوية و تلقائية، بحيث فرضته الشعوب على نفسها من خلال العادات و التقاليد التي شبت عليها، وحجته في ذلك أن

[1] رسل، برتراند،حكمة الغرب الفلسفة الحديثة و المعاصرة ج2،تر:فؤاد زكريا، دار الوفاء لدينا الطباعة و النشر،الإسكندرية،مصر،ط1،2010،ص101

[2] أبو السعود،عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص46

التاريخي

الإنسان كائن إجتماعي بالفطرة، و يؤكد"فيكو" على أن كل النظريات و المذاهب لدراستها و فهمها يجب الرجوع إلى موضوعاتها الأولى التي إنطلقت منها.لكن الأمر الذي أراد شرحه لنا هو القول بأن المعارف و الأفكار التي عرفت قديما لدى الشعوب. إختصت بشعب واحد فقط دون الشعوب الأخرى بمعنى آخر أن الحضارات و الثقافات تميز شعب دون الآخر، فإنتشار الأفكار و إنتقالها بين الأمم أمر لا يحدث حسب رأي فيكو، فقانون الألواح الأنثى عشر لو كان قانونا مدنيا لوصل"للشعوب الأخرى عن طريق الإتفاقيات البشرية، و لم يكن قانونا طبيعيا ينظم بواسطة العناية الإلهية في كل الشعوب على حدة مع عادات البشر أنفسهم"[1]وبهذا يكون كما سبق و أشرنا أن "فيكو"على نقيض الفلاسفة السياسيين في القرن السابع عشر، و يدعم رأيه بمجموعة من المسلمات.

يرى "فيكو" أن اللغة و الشعر أسهما بشكل كبير في حفظ التاريخ البشري، ومن هذا أشعار "هوميروس"التي تؤرخ للعادات و تقاليد الإغريق، و تعتبر أشعار هوميروس المادة التاريخية الأولى التي يعتمد عليها المؤرخين كمصر أساسي للكثير من الأحداث، كما حفظ قانون الأنثى عشر مراحل هامة من تاريخ الشعب الروماني، وهكذا يكون التراث الشعبي المتمثل في الحكم و الأمثال و الأشعار طبيعة مشتركة بين جميع الشعوب بها تكونت عادات و تقاليد الأمم.

4.أصل الجنس البشري:

[1]المرجع نفسه، ص 47.

التاريخي

قدم فيكو مجموعة من المسلمات تختص بأصل الجنس البشري إنطلاقا من التاريخ المقدس، "ولذلك نجده يفرق بين دين العبرانيين الذي أسسه الله و دين الوثنيين القائم على الكهانة،كما تراه يقيم الدليل على أصل الجنس البشري ينقسم إلى قسمين: أولهما: قسم قائم على الكائنات الخرافية، وهي الأمم الأممية. ثانيهما: قسم قائم على منزلة إنسانية أرفع قدرا وهم العبرانيون "[1].

إن فيكو بهذا التقسيم يلغي تاريخ حضارات قديمة حين ينعتهم بالكائنات الخرافية وهنا يشير إلى الحضارات المصرية و البابلية و الصينية،و لم يقتصر الأمر عند المعتقدات الدينية بل تعداه إلى جوانب أخرى كالنحت مثلا، وفي هذا الجانب تبرز بوضوح ذاتية فيكو و تحيزه "بل يذهب فيكو إلى أن من حاول نقل أخبار العبرانيين إلى الأمميين لحقته اللعنة الإلهية، مثل ثيودكت الذي حرم نعمة البصر، و يعتقد أن العناية الإلهية قد شاءت أن تحول دون تدنس دين الله الحق بإختلاط شعبه المختار مع الأجانب"[2]

هكذا يظهر التعصب الديني في فلسفة فيكو حين يميز بين العبرانيين و الأمم الأخرى، وعلى هذا الأساس يكون قدم لنا تفسيرا لاهوتيا يبتعد عن العلمية و الواقعية"، وربما لجأ إلى هذا تجنبا لمشاكل كثيرة كان من الممكن أن يتعرض لها لو طرح التاريخ المقدس على مائدة النقد التاريخي،

[1] أبو سعود، عطيات محمد،فلسفة التاريخ عند فيكو، ص49.

[2] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص164.

التاريخي

وهنا يجب ألا نتجاهل الظروف التي عاش فيها، فقد كان عصره هو عصر محاكم التفتيش و الإستبداد الديني"[1]

5.قانون تطور الأمم:

لقد إقتبس "فيكو"فكرة تطور الأمم عن المصريين القدامى ،حيث رأى أن الأمم تمر في مسار تطورها عبر ثلاثة مراحل: المرحلة الأولى ذات نشأة دينية و تسمى بعصر الآلهة، المرحلة الثانية تسمى بعصر الأبطال أما المرحلة الثالثة بعصر الإنسان "ففي الدور الأول تكلم المصريون اللغة الهيروغليفية ثم اللغة الرمزية ثم سادت اللغة العامية للشعب، وكان المصريون القدماء على علم بهذا التقسيم لتاريخهم و لكن فيكو إستقاه و حاول تطبيقه على جميع الأمم في كل العصور".[2] و بالتالي على حسب رأي "فيكو" لكل مرحلة تاريخية لغتها الخاصة بها، فاللغة الهيروغليفية هي أقدم لغة تكلم بها المصريون الأوائل، و اللغة المقدسة كانت لغة المرحلة الإلهية، أما اللغة الرمزية فجاءت في استعمار"هوميروس" و يمكن أن ننسب هذه اللغة للمرحلة البطولية أما اللغة الشعبية هي لغة البشرية، ويضع فيكو قانون المراحل الثلاث لتطور الأمم و يعتبره في كتابه "العلم الجديد" مسلمة من مسلمات العقل البشري.

وظف فيكو في تاريخه آراء مؤرخين قدامى "حيث يعتبر المؤرخ الروماني فارو varro(116 -27ق.م)

[1] أبو السعود، عطيات محمد، في فلسفة التاريخ عند فيكو، ص43.
[2] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص166.

إجتهد اجتهادا كبيرا أسامي للآلهة، و يقدر عددها بثلاثون إسما، و ترتبط هذه الأسماء في معانيها بالحاجات الطبيعية و الثقافية و الإجتماعية بالإنسان كما تقوم بتقديم صور أشكال الحياة التي عاشها الإنسان في العصور البدائية الأولى"[1]. إذن إرتباط المرحلة الأولى لنشأة الأمم كان بالدين الذي نشأ هو الآخر بفاعل الخوف، و الدين هو السلطة الأولى و الوحيدة في نظر فيكو التي تكبح وحشية الإنسان و تهذبها، و قد تصور الإنسان الأول الآلهة في ظواهر الطبيعة فأوجد آلهة الرياح و آلهة الشمس، و نتج هذا الأمر عن جهل من الإنسان الأول. ذلك أن المعارف تتكون في بادئ الأمر من جهل بالأشياء و من الجهل تولد الدهشة، و الدهشة تقود صاحبها إلى البحث والإستطلاع لذا نجد الإنسان الأول قد صنع الدين بنفسه، فأوجد الآلهة و أعطاها أسماءا.

كان هذا فيما يخص القانون الذي وضعه في مسار تطور الأمم، وما ينكشف لنا من خلال المسلمات التي قدمها في هذا الأمر، أنه ربط بين الأمة و الدين، والدين عنده ذو نشأة طبيعية فطرية أوجده الإنسان–حسب رأي فيكو– ذلك إن العناية الإلهية هي التي أرادت أن يكون مسار التاريخ على نحو ماهو عليه. جعلت هذه العناية العمالقة ضخام الأبدان كي يصارعوا الوحوش في الغابات، كما سمحت العناية الإلهية بظهور الوثنية و ضلال الإنسان كي يخاف غضب آلهة مزعومة، و اعتقد الإنسان بكهانات باطلة كي يجد في ظلاله مبدأ سلوك ونظام مزور، التباس الحق

[1]Vico , new science, P27

التاريخي

بالباطل مهد لدور الوصول إلى الحق، ثم سمحت العناية الإلهية بهذا التمييز بين عبرانيين و أمميين"[1]، ومن هذا المنطلق يريد فيكو أن يقول لنا، أن الأمم في مسار تطورها ترتبط بالعناية الإلهية، فالعناية الإلهية في اعتقاده هي التي وقفت إلى جانب الديانة المسيحية و ساعدتها بتوفير ظروف و أسباب ساعدت على إنتشارها و بقائها، كما أنه يرى أيضا أن العناية الإلهية هي التي تحكم الحياة السياسية،فإذا ظهرت الثورات و الحروب الأهلية "عندها تتدخل العناية الإلهية لتعالج هذه الفوضى ،فإما أن يظهر أحد الأبطال مثل أوغسطس فيؤسس الملكية و يقضي على الفوضى، و إذا فشل العلاج الداخلي تأتي العناية الإلهية بعلاج خارجي يكون صورة شعب قويم يفرض السلام بقوة السلاح، و إذا لم ينجح العلاجين و عمت الحرب و الفوضى، تفرض العناية الإلهية آخر حل لها و الفناء و الزوال"[2]، وبهذا ما يمكن أن نحكم به على فيكو –في اعتقادنا- فسر مراحل تطور الأمم تفسير لاهوتي يشبه تلك التفاسير التي ظهرت في العصور الوسطى و التي ربطت التاريخ باللاهوت بل كانت غاية التاريخ آنذاك خدمة الكنيسة و رجالها، و بالتالي فيكو ابتعد قليلا عن هذا التيار لكن لم يتجاوزه كليا.

6.الميثولوجيا:

عكف فيكو على دراسة المجتمع البشري، فحاول تحديد بدايات الحضارة الإنسانية أين جعل الخوف أحد أولى و أهم العناصر التي مهدت لميلاد الحضارات، فظواهر الطبيعة المختلفة مثل الرعد

[1] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص168.

[2] Vico, new science, P380.

التاريخي

و البرق و الرياح جعلت الإنسان الأول يفكر في إيجاد حلول ليعيش و يكيف هذه التقلبات لمصلحته، و بهذا يكون قد صور لنا في كتابه "العلم الجديد" ذلك الصراع الذي قاده الإنسان البدائي الأول مع قوى الطبيعة، فهذه الأخيرة هي التي أجبرت "العمالقة على أن يصيروا حضرا، غادروا كهوفهم و تعلموا بناء الأكواخ ثم بدأوا يعملون في الزراعة و استقروا نهائيا في أخصب المناطق و أكثرها مناعة"[1]. و بهذا فالحضارة تتكون بفعل تفاعل عدة شروط أهمها، الدين و الزواج و السكن و القوت أو الزراعة مع أن فيكو في حديثه عن المجتمع البشري و هنا نقصد نشأة الدين، إرتبطت أفكاره بالميثولوجيا التاريخية التي اختلطت بالأساطير القديمة "و هذا تعبير عن الإقتناع بأن التصورات الميثولوجية ليست عمليات إختلاق حرة قام بها العقل بل هي انعكاس مع تحويل للواقع الإجتماعي. لو طبقت هذه الفكرة –فضلا عن تطبيقها على الميتافيزياء و الفن و هو ما فعله فيكو- على سائر أشكال الوعي الإيديولوجية لتم التوصل إلى صياغة مذهب تاريخي فلسفي ذي قيمة فائقة"[2].

و بهذا يرى فيكو أن البداية التاريخية للمجتمع الإنساني، نشأت عن الميثولوجيا التاريخية، التي امتزجت بالأساطير القديمة و تتعلق بالدين كأسطورة نشأة الخلق، و الكون في اعتقادنا أن فيكو قد جعل من الدين، ليس الديانات السماوية فقط بل حتى تلك الحقبة البدائية الأولى التي عرفت دينيا

[1] ماكس، هوركهايمز، تر: محمد علي اليوسفي، بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، 2007، ص84.

[2] المرجع نفسه، ص87.

التاريخي

بانتشار الوثنية، حيث رأى أن الدين هو القاعدة و اللبنة الأولى التي يتأسس بها المجتمع، "و مما يؤكد فكرة فيكو أن الأمم لا يمكن أن تقوم أو تنشأ بدون دين، أي بدون هذا الشعور الفطري الذي تنطوي عليه الطبيعة البشرية، فكل الأممية لديها آلهة خاصة بها"[1]و بهذا فقوة الدين و سلطته حاضرة في كل المراحل التاريخية التي تمر بهالأمم ، و المسلمة التالية تدعم الموقف:

"كل الأمم لديها هرقل ابن جوبيتر"(المسلمة43)[2]، بحيث الإنسان الأول جعل السماء آلهة و سماها جوبيتر، و هكذا أراد فيكو من خلال حديثه عن الميثولوجيا التاريخية أن يبين لنا أهمية الدين في الحياة و دوره الكبير في صنع التمدن فهو يجعل الإنسان يتخلى عن غرائزه بالحياة الإجتماعية.

7.الشعر و التاريخ:

لقد عرف الإنسان البدائي الأول بشاعريته، فاللغة البدائية الأولى كانت شاعرية و أصبحت لغة علمية بعد تطورها مع مرور الزمن، ذلك أن الإنسان البدائي كان عاجزا عن تصوير أفكار مجردة فلجأ إلى الخيال هكذا "بدأت المعرفة البشرية بالحس و لم تبدأ بالعقل و تكونت الجمل الشعرية عن طريق الأحاسيس العاطفية ثم تكونت بعد ذلك الجمل الفلسفية عن طريق التفكير و العقل أو المقولات العقلية و لذلك كانت أكثر اتجاها نحو العام و أقرب إلى الحقيقة"[3].

[1]أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص54.

[2]Vico, new science, P30.

[3]أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص56.

التاريخي

إن الإنسان حسب فيكو أبدع في العصور الشعرية قبل وجود الفلسفة، فعامة الناس تمتلك في نظره روح خلق الأساطير و الخرافات، فكانت الشعوب دائما تروج لحكايات أسطورية خارقة لكل إنسان مشهور، و قد كان الشعراء الأوائل يوظفون الخيال في رسم الشخصيات التاريخية، و ينسبون إليها أحداث خارقة بعيدة عن الواقع و الحقيقة، و هكذا أراد فيكو أن يوضح لنا الإنسان شاعري بفطرته،و العقل البشري يميل بطبيعته لوضع الأساطير و قول الشعر. من هنا فقد كانت الإنطلاقة الأولى لعلمه الجديد طبيعة شعرية، فإذا أردنا فهم تطور الأمم الأولى علينا في بادئ الأمر الإطلاع على أشعارها، فالأشعار كانت السجل التاريخي للأمم الأولى تحفظ فيه بطولاتها و عاداتها و تقاليدها،تحفظ فيه بطولاتها و عاداتها، وتقاليدها لكن هذا السجل في حقيقة الأمر كان يمتزج بين الحقيقة و الخيال، "هكذا نجد أن التطور الطبيعي للتنظيمات البشرية جعل اللغة تبدأ بالشعر ثم تستقر في النثر، و هذا ما يشهد عليه تاريخ الشعراء القدامى و تطور الأوزان الشعرية من الأوزان البطيئة إلى الأوزان السريعة، غير أن التطور جعل اللغة في العصر البشري تستخدم كلمات تواضع عليها الناس فهي اللغة التي صاغوها بإرادتهم و عبرت عن التحالفات الشعبية و الحكومات الملكية على السواء"[1]، و هكذا يظهر جليا أن فيكو كان له ميلا شديدا اتجاه اللغة و نحن في رأينا نرى أنه صاغ فكرة "العلم الجديد" من خلال دراسته لتطور اللغات، فالكلمة يتطور معناها من عصر لآخر، فتطور اللغة يعبر عن تطور التنظيمات البشرية.

[1] المرجع نفسه، ص58.

التاريخي

8.التاريخ المثالي الأبدي :

يرى فيكو أن التاريخ المثالي الأبدي يختص بكل الأمم، و يتتبع كل أمة في مراحل نشأتها و نموها و تطورها و تدهورها ،و كل الأمور التي تتعلق بأشكال الحكم و السلطة، و قد قدم فيكو نظرية في هذا الشأن، بل إن جوهر فلسفة فيكو التاريخية تقوم على أساس نظرية التاريخ المثالي الأدبي، التي فسر من خلالها نشأة المجتمعات البشرية الأولى، فالإنطلاقة الأولى دعمتها حاجات الإنسان،بحيث صار يبحث عن كل ماهو مفيد ليحسن من ظروف حياته، فحقق أولا الراحة بعدها بحث عن إشباع ملذاته و اللذة جعلته ينغمس في الترف الذي هو سبب سقوط المجتمعات البشرية و زوالها.

يؤكد فيكو أن المجتمعات البشرية السياسية في نشأتها تتوافق مع طبيعة الشعوب، فمن المستبعد أن تقوم تنظيمات سياسية تختلف مع طبيعة الشعوب و هكذا تطورت أنواع الحكم لدى الشعوب الأولى و مرت عنده ستة مراحل و المسلمة التالية توضح هذا الأمر:

"ظهرت الاجناس البشرية الأولى في أشكال غريبة مثل (السيكلوب) ثم أجناس تتصف بالزهو و الغرور مثل (أخيل) ثم الشجاعة مثل (أرستيدس) ثم أجناس حققت نصرا شعبيا و مجدا حقيقيا مثل (الإسكندر و قيصر) ثم أجناس يغلب عليها طابع التأمل مثل (يتبرس) و أخيرا الإنغماس في الملذات و الجنون مثل (نيرون و كاليجولا)."[1]يبين فيكو من خلال هذه المسلمة كيفية

[1]أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص61.62.

التاريخي

تطور أشكال الحكم عند الشعوب الأولى فالنوع الأول سماه "السليكوب" و فيه كان يخضع الجميع لفرد واحد، النوع الثاني "أخيل" تميز بالغرور و في هذا الحكم ظهرت النظم الأرستقراطية بالإنطلاق من النظام الأسري، النوع الثالث "أرستيدس" اتصف هذا النوع بالشجاعة و فيه حققت الحرية، النوع الرابع " الإسكندر و قيصر" حيث حقق هذا الحكم المجد و البطولة، النوع الخامس "تيبروس" يتميز هذا النوع بحب التفكير و التأمل، النوع الأخير "نيرون و كاليجولا" انغمس هذا النوع في إشباع الرغبات و الشهوات مما يؤدي إلى انهيار الحكم و تدهوره.

9.عامل الجغرافيا و أثره في تأسيس الشعوب:

يستعين عالم التاريخ بعلم الجغرافيا في تفسير الظواهر التاريخية و تحليلها، و قد سلط فيكو الضوء على الطبيعة المشتركة للأمم بالإعتماد على علم الجغرافيا فالإنسان البدائي الأول عاش في الجبال، بعدها انتقل إلى الغابات ثم إلى البحر، و هكذا فقد كان العامل الجغرافي يتحكم بصورة كبيرة في تنقلات الإنسان سعيا وراء ظروف طبيعية ملائمة و قد اراد فيكو أن يوضح كيف ضلت سلالة أبناء نوح الثلاثة في حياة رعوية بهيمية، إذا أرغمتهم الضرورة على الهرب من الوحوش الكاسرة بحثا عن الماء و الغذاء و ملاحقة النساء ثم وجدوا أنفسهم مشتتين على الأرض بعد أن أرعدت السماء لأول مرة بعد الطوفان"[1]، هكذا وظف فيكو علم الجغرافيا حيث فسر من خلاله عديد الوقائع التاريخية، و قدم لنا كيفية نشأة التنظيمات الحكومية، لكن الأمر الذي يؤخذ على

[1]المرجع نفسه، ص69.

التاريخي

فيكو و في اعتقادنا أنهارتكب غلطة تاريخية حين رأى أن الشعب اليهودي هو أول من أسس دولة ملكية، في حين أن "أول حكومة ظهرت في العالم نشأت في ظل الحضارة المصرية القديمة كما أثبتت الحفريات في القرن التاسع عشر"[1].

كما رأى فيكو أن الشعوب المغلقة يجب أن تفتح إما عن طريق إحتلال خارجي حسب إعتقاده، أو عن طريق المبادلات التجارية، و في نظرنا فتح أمة ما عن طريق الغزو الخارجي هو تشجيع للإحتلال و التدخل الأجنبي.

10. تطور القوانين تبعا لتطور العقل البشري:

ساق فيكو العلم الجديد و حاول أن يقدم منهجا تاريخيا شاملا، فاهتم باللغة و العقل، وربط تطورهما عبر مراحل التاريخ المختلفة بالآلهة أو العناية الإلهية، فقبل أن تنشأ المدينة كانت هناك العشيرة، وكان لكل عشيرة آلهة خاصة بها و بعد نشأة المدن الكبرى، كان لكل أمة آلهتها و يمكن فهم هذا الأمر بشكل واضح من خلال المسلمتين التاليتين:

"نشأت الأمم الأولى قبل إنشاء المدن، و كانت تسمى بيوت النبلاء القديمة و من هذه الأمم الأولى أو العشائر الصغيرة (كون رومولوس) مجلس الشيوخ (مسلمة107).

"وفقا للتقسيم السابق هناك آلهة آباء الأسر في الأمم الأولى قبل تأسيس المدن، ووفقا للثيوجونيا الطبيعية فإن عدد الآلهة في كل الأمم الأممية كان يبلغ إثني عشر إلها" (مسلمة 108)[1].

[1]أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص68.

التاريخي

يرى فيكو أن هناك القانون الطبيعي و القانون المدني، فالأول حسب رأي فيكو صنعته الشعوب الأولى من خلال العادات الطبيعية الأولى، وقد سمحت العناية الإلهية في بقاء هذه القوانين و المحافظة عليها، بعدها جاء الفلاسفة الذين أضافوا قيم و مبادئ جديدة لهذه القوانين الطبيعية بواسطة العقل البشري ،و ما أراد إيضاحه فيكو أن الشعوب الأولى لم تعي القانون الطبيعي، إلا بعد تطور العقل البشري و ظهور الفلاسفة و العلماء حيث أن "القانون المدني وضعه الأذكياء من البشر الذين صاغوا المنفعة صيغة قانونية، ولذلك فهذا القانون لا يفهمه إلا قلة من البشر من ذوي المعرفة و الذكاء ،أما الشعوب ذات الأفكار المحدودة فقد فهمت القانون على أنه الإلتزام الشديد بالصياغة الدقيقة للكلمات التي وضعها الحكماء طبقا لما هو ضروري لحفظ الجنس البشري"[2].

و من هنا نرى أن فيكو يربط نشأة القوانين و تطورها لدى الأمم بمجموعة قليلة من الناس، هم الأذكياء و الحكماء و في الحقيقة أنه وقع في تناقض ،فمرة يقول أن القوانين تصوغها و تشارك في صنعها كل الأمم، في حين نجده يقول بعض المرات أن القوانين من صنع الأقلية و هم الحكماء. "ويؤكد فيكو على ان العقل البشري في تطور، فالزمان عنده يسير في شكل متتابع و دوري، أي يدور و يعود إلى نفسه، ليعيد التاريخ بدايته من جديد لدى كل أمة من الأمم و هنا نجده يقف مع أفلاطون و أرسطو"[3].

---

[1] نفس المرجع، ص71.

[2] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص72.

[3] Bréhier, E, histoire de la philosophie, P367.

المبحث الثالث: مبادئ العلم الجديد و التأسيس للمنهج التاريخي:

إن التاريخ هو قاعدة جميع العلوم، و قد أدرك فيكو هذه الحقيقة و حاول إثباتها في منهجه التاريخي، حيث نجد أنه إهتم بدراسة المجتمع البشري، فربط التاريخ بالأدب و اللغة و الفلسفة، ذلك لأنه لا يمكن بحسب رأي فيكو أن نفهم المجتمعات البشرية في مراحل تطورها ،و نشأتها دون فهم مراحل تطور اللغة، و في اعتقادنا نجده اعتبر اللغة مفتاحا نفسر به سيرورة الأمم في تطورها.

لقد رأى فيكو في كتابه العلم الجديد صاحب نظرية و منهج تارخيين لم يسبقه إليهما أحد، وهنا يكون قد أنكر قيمة ما قدمه الفلاسفة و العلماء للعلم، كما لا ننسى أن تطور أي علم من العلوم إنما هو حلقات متواصلة، الحاضر يقرأ للقديم، و يجدد وينمي و يمحص ما وجده من أفكار و نظريات، فإن قام منهج جديد على أنقاض منهج قديم، يعتبر المنهج القديم أسباب و عوامل ساعدت لظهور المنهج الجديد.

رفض فيكو الكتب التاريخية التي وجدها سواء في اللغة أو الفلسفة أو التاريخ، و اعتبر ماقدموه مشوش و غير منظم و يفتقر إلى الروح العلمية التي يصبوا إليها العلم الجديد لوقوعهم في عدة أخطاء و مغالط و يمكن أن نحصر هذه المغالط و المطبات كما يلي:

1.إعتبار المنهج الرياضي أنجع سبل الحقيقة و اليقين: يجمع الكثير من الباحثين أن نقطة الإنطلاقة في فلسفة فيكو التاريخية، إرتكزت بالأساس على إنتقاد فلسفة ديكارت و منهجه، ذلك أن ديكارت اعتبر أن العلوم التي لا تقوم على المنهج الرياضي هي فنون و آداب و لا

التاريخي

يمكن أن ترقى إلى مستوى العلم، ذلك أن فيكو اعترف بأن المعرفة الرياضية تقدم اليقين العلمي، لكن الأمر الذي ثار ضده هو أن نعتبر أن الرياضيات هي العلم اليقيني وحده، حيث "إن دراسة التاريخ تختلف عن كل من الرياضيات و الطبيعة، أما بالنسبة للرياضيات ، فالفلسفة الديكارتية تقف عقبة في سبيل البحث التاريخي نظرا لإغفال ديكارت دور التجربة، إن القول بفطرية الأفكار و كيف نطبق ذلك على التاريخ؟ هل نتصور أفكارا ثم نزعم أن هكذا كان مجرى التاريخ"[1] و بالتالي فيكو في نقده لديكارت أبرز الفرق الواقع بين الظاهرة الطبيعية و الظاهرة التاريخية، فالظاهرة الطبيعية هي ظاهرة غيبية لا يصنعها الإنسان، أما الظاهرة التاريخية قد أوجدها الإنسان، و الذي يقوم بدراستها هو الإنسان، هكذا حدد فيكو طبيعة التاريخ، كما أنه أيضا من زاوية أخرى أقام الحدود ووضع القوانين التي تتوافق مع طبيعة علم التاريخ و بالتالي: فالإعتقاد بأن منهج الرياضيات هو السبيل الذي يحقق اليقين و الموضوعية العلمية، لا يمكن إسقاطه على علم التاريخ، وهذا غلط في نظر فيكو، فلكل علم طبيعة و خصائص، فكما لعلم الرياضيات منهجها العلمي الصارم، للتاريخ أيضا منهجه العلمي الخاص به ، و هذا المنهج حسب رأي فيكو لا ينقص من علمية و موضوعية علم التاريخ.

[1] صبحي، أحمد محمود، في فلسلة التاريخ، ص161.

2.النزعة القومية: يميل المرء بطبعه إلى إبراز ملامح قوة و بطولات أمته، وقد أطلق فيكو على هذا الوهم "وهم التهويل و التفخيم" فكثيرا ما صور المؤرخون إنجازات بعض الأبطال بصور أسطورية خيالية، فيها الكثير من المبالغة و يعود هذا لطغيان النزعة القومية، فكان الأولى بالمؤرخين إبراز الدور الذي تلعبه أمة ما ضمن مسار التاريخ و حركته، وبهذا فقد قام فيكو بعقلنة الحوادث التاريخية فعلم التاريخ عنده "مرآة للعقل و سجلا لتطور الإنسان في الآن نفسه فهو أول من أعلن أن " المجتمع الإنساني صنعه الإنسان " ومن ثم فإن الإنسان يمكن أن يفهمه. و أعلن في كتابه "العلم الجديد" (1725) أن طبيعة الأشياء لا تغدو أن تكون تلك التي توجد في أوقات معينة و بطرق خاصة، فحينما تقوم نفس الظروف فإن نفس الظواهر هي التي تنشأ و ليس غيرها، فمبادئ العلم الجديد التي تتعامل مع طبيعة الأمم هي التي من خلالها تتبين كذلك مبادئ القانون الطبيعي للشعوب"[1].

3.الدرجة العلمية الثقافية: كثيرا ما يتخيل عامة الناس، أن الشخصيات البارزة، التي أثرت في المجتمع و لعبت أدوارا بطولية في التاريخ كانت على مستوى عال من الثقافة العلمية، "و هذا الوهم يتعلق بتصور المؤرخ أن شخصيات التاريخ التي لطالما لعبت دورا في أحداثه لابد أن تكون على درجة من الثقافة و العلم في حين أن المجد التاريخي و الثقافة غير مرتبطين، فالكثير

[1] قنصوة صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، ص41.

ممن لعبوا دورا بارزا في التاريخ كانوا أقل الناس علما و ثقافة"[1]، وبهذا فكشف فيكو عن هذا الوهم أمر أساسي في كتابة التاريخ و تفسير أحداثه، حيث أن معظم المؤرخين يقعون في هذا الغلط و كأن العلم و الثقافة إذا لم يتوفران في حاكم فإنه سيكون فاشلا، في حين أن الحقائق تقر أن الكثير من الحكام و الثوريين الذين لعبوا أدوارا ريادية في أممهم لم يكون على قدر كبير من الثقافة و العلم. و هكذا فالعلم و الثقافة ليسا حكرا على الأغنياء و الحكام فقط، و يجب الإشارة في هذا المقام إلى أن فيكو كان السباق في إكتشاف هذا الغلط و تحديده.

4. تشابه الأفكار: "يرى المؤرخ تشابه نظامين فيحكم أنه لابد أن يكون أحدهما قد تأثر و اقتبس من الآخر، إن في ذلك إنكار اللطافة الإبداعية للعقل الإنساني"[2]، و يجب على المؤرخ الذي يسعى وراء الموضوعية العلمية، الإحاطة بهذا الغلط لأننا كثيرا ما نجد مذاهب فكرية تتشابه بالرغم من الإختلاف الزماني بينهما، فيحكم المؤرخ للوهلة الأولى أن المذهب الثاني قد تأثر بالمذهب الأول و اقتبس منه، وهكذا يقع المؤرخ في غلط خفي، و الواقع أن هذا الغلط شائع فتاريخ العلم الذي يدرس تطور المذاهب، و النظريات العلمية يحاول دائما إبراز التشابه بين الأفكار. و يرجع أسباب التشابه غالبا إلى قضية التأثير و التأثر و الإقتباس، وهكذا يقع المؤرخ في هذا الغلط متناسيا أن العقل البشري عقل واحد تتشابه الأفكار و القيم تارة، و تختلف تارة أخرى، فالطاقة الإبداعية

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص178.
[2] المرجع نفسه، ص178.

التاريخي

للعقل الإنساني تختصر الأجناس والزمان و المكان، فالإبداع لايختص بزمن معين أو مكان معين أو شعب محدد.

5.الإقتراب: يقصد بالإقتراب فيكو، ذلك الإعتقاد القديم الذي ساد عند المؤرخين الذين كانوا يرون القدماء عليهم أكثر دراية و علما بالنسبة للزمن القريب منهم. "و يرجع هذا الوهم إلى تصور التاريخ كذاكرة الإنسان كلما كان الموضوع التذاكر أقرب عهدا كان أكثر ثباتا ووضوحا في الذاكرة"[1].

كانت هذه أهم الأغلاط و الأوهام التي أوردها فيكو في علمه الجديد، وهي أغلاط خفية يصعب تداركها إذا لم يحط بها المؤرخ، و هنا يجب الإشارة إلى أن فيكو قد حصر هذه الأغلاط ،و اختصرها بأسلوب ممنهج و دقيق، حيث نجد أن هذه الأوهام تجعل المؤرخ أمام الكيفية الصحيحة التي يكتب بها وقائع التاريخ و يفسرها.

إن الأغلاط و الأوهام التي قام بشرحها فيكو، لاشك أنها أسست بحق لميلاد فلسفة التاريخ، فمن خلال الأوهام نجد أن فيكو يضع أهدافا محددة بها يقوم علم التاريخ و يمكن أن نعدد هذه الأهداف كما يلي:

- التاريخ علم يدرس الطبيعة البشرية عبر مراحلها المختلفة، من مرحلة النشأة إلى النمو و التطور ثم الإنحلال و التقهقر، و لايمكن عد التاريخ ضمن المعارف الأدبية.

[1] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و مذاهبها، ص178، 179.

التاريخي

- وضع فلسفة لعلم التاريخ تدرس الأحداث و تبحث في العلل و الأسباب، وقد اهتمت فلسفة التاريخ بالكشف عن القوانين التي تتحكم في مسار التاريخ و حركته، الأمر الذي أدى إلى ظهور مناهج و نظريات تاريخية فسرت الأحداث التاريخية على ضوئها، كما أن هذه القوانين ساعدت المؤرخين و علماء الإجتماع على التنبؤ بالمستقبل إنطلاقا من دراسة الماضي بإستخلاص العبر و الدروس، كما ساعدت أيضا على إيجاد الحلول لبعض مشاكل الحاضر.
- تحديد المفاهيم و المصطلحات التي تخدم علم التاريخ و هي: "

أ. الإنسان: بوصفه صانع أحداث التاريخ و مسجلها في آن واحد.

ب. الوعي: وعي الإنسان ومعرفته بصنع الحدث، ووعي المؤرخ عندما يضعه في سياقه الحقيقي وفق مسار التاريخ "[1].

على أن بعض المشتغلين على فيكو رأوا أنه قال بأن العناية الإلهية هي التي تتحكم في مجرى التاريخ، والبعض الآخر رأى أن هذا الرأي مجرد "تمويه محض قائلين بأن موقفه الحقيقي يتمثل في أن العمليات التاريخية لها إتساقات مطردة لاشك فيها يمكن كشفها عن طريق البحث العلمي في المعطيات التجريبية للتاريخ، و هؤلاء ينبذون أية تغييرات تأليهية و أي شيء يتصل بالعناية و ينعتونه بأنه من الآخذين بالمذهب الوصفي و الحركة الإنسانية دون أي شيء آخر"[2]، و في

[1] قاسم، محمد محمد، مدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر و التوزيع، الإسكندرية، د.ط، 1995، ص48، ص49.

[2] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و مذاهبها، ص182.

التاريخي

إعتقادنا يرجع هذا الإختلاف بين الذين درسوا فلسفة فيكو لأمرين هما: الأسلوب الغامض الذي إتسمت به كتابات فيكو حيث يصعب على القارئ أن يحدد وجهة نظره، هذا ما جعل كروتشه يقول عنه: "إننا نجد هنا و هناك أن فيكو لاهوتيا أو فيكو خياليا يؤلف قصصا رومانسية كونية، على أننا حيثما نظرنا في أي ركن من أركان أعماله فلن نجد بين سطورها فيكو ماديا"[1]، أما الأمر الثاني و هو الأرجح في رأينا قوله بالعناية الإلهية كان تمويه فقط لأن في عصره كانت هناك ضغوط سياسية تمارس على العلماء و الفلاسفة إن قالوا بأفكار لا تتوافق و آراء الدين.

- مقولة الزمان: "لا تاريخ بلا زمان ينتظم احداثه في سياق واضح ثم في الماضي، وعمل المؤرخ استرداد وقائع الماضي بصورة ذهنية"[2]، و هكذا صارت الأحداث التاريخية التي بدون زمان مجرد روايات لا تدخل دائرة علم التاريخ، فكل واقعة تاريخية يجب أن ترتبط بإطار زماني و مكاني، ليتمكن المؤرخ من تحديد أسباب و ظروف الوقائع و نتائجها.

- المسار: "تؤدي التصورات السابقة إلى التسليم بفكرة المسار التي تناقش طبيعة العلاقات الثابتة التي ترتبط بين أحداث التاريخ"[3]ن ويمكن فهم فكرة المسار في التاريخ عند فيكو من خلال نظريته في التعاقب الدوري للحضارات أو الرجعة التاريخية أو العودة التاريخية و سنتطرق إلى هذه النظرية لاحقا.

[1] المرجع نفسه، ص183.

[2] قاسم، محمد محمد، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص49.

[3] المرجع نفسه، ص49.

التاريخي

مبادئ العلم الجديد عند فيكو:

قبل أن نحدد مبادئ العلم الجديد عند فيكو، لابد من طرح التساءل التالي:

هل الإنسان هو الذي يصنع التاريخ؟

يرى فيكو "أن العالم التاريخي من صنع البشر، و هذه هي الفكرة الرئيسية في فلسفة فيكو، والتاريخ ليس من صنع القدر و لكن من صنع العقل و لهذا فلابد أن نجد مبادئ التاريخ في تحولات عقلنا البشري نفسه، ويتعجب فيكو تعجبا شديدا من اتجاه كل الفلاسفة الجادين لدراسة العالم المادي الطبيعي الذي هو من صنع الله و هو وحده القادر على معرفة تامة بينما أهملوا البحث في في عالم التاريخ البشري و كانوا كالعين التي ترى كل شيء خارجها و تحتاج لمرآة لترى نفسها"[1]، وبالتالي ففيكو يعتقد أن الإنسان هو الذي يصنع تاريخه بنفسه، ذلك أن التنظيمات السياسية وجدت لأنها توافقت مع طبيعة البشر، فأي تنظيم سياسي لا يتوافق مع طبيعة الشعب أو الأمة فإنه سيزول، والتنظيمات السياسية تضع مبادئ و أسس خالدة تسير عليها الشعوب و تتوارثها عبر الأجيال، و تتمحور هذه المبادئ على رأي فيكو في ثلاثة مبادئ هي: الدين أو العقيدة، رابطة الزواج المقدسة، دفن الموتى و كل مايتصل به من أفكار حول خلود الروح الإنسانية.

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص74.

لقد اشتمل كتاب فيكو الأساسي وهو "العلم الجديد" على مجموعة المبادئ الأساسية التي تساعد الباحثين على تتبع مسار التقدم الإنساني، ويعتقد "فيكو" بأن أوضح تعبير لهذا التقدم يتمثل في إنشاء المؤسسات السياسية والحكومية والإدارات التي ارتبط بها، "وتقوم فلسفة التاريخ عنده على عنصر أساسي وهو أن ظواهر الإنسانية جميعها تدور حول ثلاث مقولات أساسية وهي المعرفة والإرادة والقوة "[1]، يقول "فيكو" حول المعرفة حيث يؤسسها على المبدأ الآتي: " لا يعرف الإنسان جيدا سوى تلك الأشياء التي يقدر على صنعها وذلك بعد أن يصنعها بالفعل"[2]. ومن نتائج هذا المبدأ في نظره، نجد أن الرياضيات وهي من صنع الإنسان، فهي من الأمور التي يقدر الإنسان أن يتقن معرفتها جيدا، وأيضا من نتائج هذا المبدأ هو أن الله وحده قادر على معرفة الكون إذ هو من صنعه، ونلاحظ هنا أن "فيكو" يولي أهمية كبيرة للعناية الإلهية في صنع التاريخ وتحديد مساره، وكانت هذه النقطة من بين الانتقادات التي تعرض لها منهجه ونظريته التاريخية، حيث نزع إلى الميتافيزيقا في صورة العناية الالهية لتحديد واقع ومستقبل الإنسان وبناء ذاته داخل مسار التاريخ، لقد ركز "فيكو" على الأهمية القصوى للإنسان في تحديد مسار التاريخ، فهو يؤكد على أن هناك علم آخر يتموقع بين الرياضيات والطبيعيات، وتمكن الإنسان أن يعرف منه أكثر من

[1] ملحم قربان ــ قضايا الفكر السياسي ــ القوة ــ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 ،1983 بيروت ــ لبنان ص 214.

[2] فيكو ــ العلم الجديد ــ الكتاب الأول صفحة 215 نقلا عن ملحم قربان ــ قضايا الفكر السياسي ــ القوة ــص 214.

التاريخي

غيره من العلوم التجريبية، ذلك هو التاريخ هو جزء من صنع الإنسان[1]. وبما أن التاريخ هو جزء من صنع الإنسان ، فإن "فيكو" حاول ربطه ببعض القضايا السياسية والمدنية حيث يعتبر الإنسان النواة الأساسية التي تحرك ذات القضايا، وبالتالي فإن الإنسان تحول إلى نقطة وصل بين التاريخ والسياسة. لقد رفض "فيكو" على سبيل المثال نظرية العقد الاجتماعي° على أنها أساس تفسيري لنشأة الدولة والسلطة، ففي نظره "فإن هذه النظرية تتجاهل النمو التاريخي الذي يتصف به تطور المجتمعات ويظهر هذا جليا من دراسة التاريخ وتطوره"[2]

قسم فيكو التاريخ إلى ثلاثة عصور، عصر الآلهة، عصر الأبطال و عصر الإنسان، و كل الشعوب مرت بهذه العصور الثلاثة و قد" اعترف بوجود أوجه شبه بين الشعوب و أرجعها إلى الإنتقال فإنه اعتبر أنها في أغلب الأحيان تتولد ذاتيا عن الطبيعة المشتركة"[3]، ويضيف فيكو أن كل التنظيمات الإجتماعية تنبع من المبادئ الثلاثة التي أسلفنا ذكرها، فالشعوب عرفت هذه المبادئ و عرفتها أيضا في العصور الثلاثة "بالرغم من تباعدها في المكان و الزمان، فهي جميعا تتفق على ديانة ما، و هي بلا استثناء تحتفل بطقوس الزواج و تدفن موتاها، و حتى الشعوب الموغلة في التوحش نجد لديها الأفعال البشرية التي تحتفي بها و تصاحبها طقوس مقدسة مثل شعائر الدين و الزواج و

[1] المرجع نفسه ص 215.

° وهي النظرية التي تفسر نشأة الدولة والسلطة وتنظيم العلاقة بين الأفراد والحاكم، ونادى بها "هوبز" و"جون لوك" ثم ذلك "جون جاك روسو".

[2] المرجع نفسه ص 215.

[3] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشاتها و أهم مذاهبها، ص180.

التاريخي

دفن الموتى"[1]، إذن دراسة فيكو للمجتمع البشري كان قد أقامها على هذه المبادئ الثلاثة و هي عنده تمتاز بالقدسية لأنها تهدب الشعوب و ترسم لها الحدود حتى لا تقع في الهمجية و التوحش، كما أن الدراسات الإجتماعية الخاصة باتت تدرس هذه المبادئ، وأثرها في الحياة الإجتماعية، بل إن البعض قد رأى أن هذه المبادئ هي العناصر الأساسية التي تشكل حركة التاريخ البشري.

مبدأ العقيدة أو الدين: إن المتأمل في العصور التاريخية التي وضعها فيكو يدرك بلا ريب كيف أنه جعل الدين هو قوام المجتمع البشري، فكل التنظيمات الإجتماعية و السياسية و الإقتصادية و الثقافية ،إنما تنشأ من الوازع الديني،فإن دعمها نمت و إن ثار ضدها، قامت أنظمة جديدة بديلة على أنقاضها، و قد عارض فيكو الفلاسفة الذين رفضوا دور الدين في المجتمع،"كما يعارض زعم المفكر الفرنسي بايل(Bayle(1647-1706: "أن الشعوب يمكنها أن تعيش حياة عادلة بغير حاجة للنور الإلهي"، و قول المؤرخ الهلينتسي بوليبيوس (120.200 ق.م):"إنه إذا كان هناك فلاسفة في العالم فهناك عدل مستمد من قوة العقل لا من قوة القوانين ولا حاجة للأديان في العالم"، يعارض فيكو هؤلاء جميعا بقوله ان كل أمة تؤمن بديانة ما"[2]، ويؤكد فيكو على وجود أربع ديانات هي : العبرانية أو اليهودية، المسيحية، الإسلام و الوثنية، هذه الاخيرة التي تؤمن بوجود آلهة متعددة، لكن الأمر الذي يثير النظر هو أن فيكو يرى أن الدياناتان اليهودية و المسيحية

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص75.

[2] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص75.

التاريخي

إيمانهما يقوم على العقل الذي في نظره هو الإلاه !لذا نراه يقول بوجود القوانين و التشريعات حيثما وجدت الأديان.

مبدأ الزواج: "وما يرتبط به من انضباط العواطف و التحكم في الإنفعالات، يؤكد أن جميع الشعوب آمنت بأن الإلتقاء بين الرجل و المرأة لا يمكن أن يتم بدون طقوس و إلا عد سلوكا بهيميا منحطا، ة انتهاكا للطبيعة البشرية و خروجا على القانون"[1]، و بالتالي فالزواج هو النواة الأولى التي تتشكل منها أية حضارة إنسانية، ذلك أن الإنسان هو المحرك الديناميكي في حركة التاريخ، كما أنه هو الذي يؤسس صرح الحياة الإجتماعية و لن يكون هذا الصرح، بدون رابطة الزواج التي يصنفها فيكو ضمن العوامل المؤثرة في العملية التاريخية ، لأنها تساهم في تمكين الإنسان إبتكار العلوم و النظريات الخاصة باللغة و القوانين و السلطة ، و الحكم لأن التاريخ يبقى جماعات إنسانية تنشأ و تنمو و تتطور في ظل تنظيمات سياسية و إجتماعية.

مبدأ دفن الموتى : ساد الإعتقاد قديما بأن الروح لا تموت مع موت الجسد، و إذا لم تدفن الأجساد تبقى الأجساد في حالة من القلق و عدم السكينة، و هكذا كان دفن الميت في جميع الأديان راحة للروح و خلودها و يؤكد فيكو" أن ليس هناك شعب لا يدفن موتاه، هذا المبدأ هو الأصل في تأكيد إنسانية الإنسان، ويكفي أن تتصور الجثث البشرية ملقاة على الأرض نهبة للطيور

[1] نفس المرجع، ص76.

التاريخي

الجارحة و الوحوش الكاسرة، و لو افترضنا إمكان هذا لكان عادة وحشية في مدن خلت من الإنسانية و التحضر"[1].

لقد قدم فيكو من خلال المبادئ الثلاثة لعلمه الجديد: الزواج، الدين، دفن الموتى، الجانب النظري من فلسفته التاريخية، و هكذا يكون فيكو قد وضع خطة عامة لتاريخ العالم، تضع العقل البشري أمام حدود ترسم إنسانيته، و هذه الحدود هي المبادئ الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الإجتماعية، والتي يتفق عليها جميع البشر، ومن يتجاوز هذه المبادئ فهو يتجاوز حدود العقل البشري.

المنهج عند فيكو:

إن دقة أي علم تتحدد بدقة منهجه الصارم، وقد حاول فيكو إبداع منهج جديد لعلم التاريخ تجعله يباهي بقية العلوم الأخرى في الدقة و الموضوعية العلمية، لذا نجده قام بدراسة المناهج السابقة له، فتأثر بالمنهج التجريبي الذي وضعه "فرنسيس بيكون" فالتاريخ في نظر فيكو ليس بعيدا ذلك البعد الذي نراه نحن عن العلوم الطبيعية، لكنه عارض المنهج الرياضي الديكارتي الذي قلل من علمية التاريخ و دقته،ذلك أن التاريخ عنده يدرس حوادث إنسانية تمتاز بالشك، والشك لا يقدم الحقيقة "غير أن فيكو على نقيض ديكارت، فقد رأى أن الحقائق الرياضية ليست هي جوهر الحياة ... فالحياة نفسها هي جوهر ذاتها و أن لكل فترة من فتراتها من القسمات ما تطبع به كل مظهر

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص76.

التاريخي

من مظاهرها التي تتجه لتحقيق الهدف الذي خلق من أجله الإنسان و خلقت له تلك الفترة التاريخية"[1]، وبالتالي فمنهج فيكو التاريخي قد استقاه من دراسته النقدية لمناهج العلوم الأخرى ،و بالاعتماد على علوم أخرى فهي اللغة حيث عكف على دراسة الإشتقاقات اللغوية، ففي نظر فيكو الفهم الحقيقي للإشتقاقات اللغوية هو فهم لطبيعة المجتمعات البشرية ذلك أنها تقدم لنا الأسلوب و الكيفية التي عاشت بها الشعوب كما تعرفنا أيضا على النمط الفكري الذي كان سائدا و من هنا فمنهج فيكو يقوم "على الأدلة الفلسفية و الأدلة اللغوية معا، و يبدأ بالأدلة الفلسفية ثم يتبعها بالأدلة اللغوية لتكون أدلة واقعية تؤيد الادلة التي اهتدى إليها بالتأمل و التفكير و نقسم الأدلة الفلسفية إلى أدلة لاهوتية و أدلة منطقية"[2].

1.الأدلة الفلسفية :

أ. الأدلة اللاهوتية: يؤكد فيكو في العلم الجديد على أن للإنسان الاول قد عرف معنى الألوهية، وكانت بمثابة أداة ترويضية حدت من وحشية الإنسان البدائي و أنانيته كما انها سبيل يهذب طباعه لأن الوازع الديني دائما يغرس في البشر الخوف من الله وغضبه، فالعناية الإلهية عند فيكو هي وحدها التي هذبت إنفعالات الإنسان و ارتقت بها إلى مستوى الأفكار الإنسانية "لذلك يجب أن نبدأ من الميتافيزيقا الشعبية التي نجدها عند الشعراء القدامى لنجد كيف أن فكرة الألوهية

[1] حجاري، عبد الواحدد، فلسفة التاريخ،ص162.

[2] أبو السعو، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص77.

التاريخي

كانت قوة دافعة لحرية الإرادة البشرية مكنتها من التحكم في انفعالات الجسد و حركاته"[1]. و بهذا فمنهج فيكو يقوم على تأكيد دور العناية الإلهية في التاريخ، لكن ما يجب إدراكه ماهو مفهوم العناية الإلهية عند فيكو؟.

لقد كان فيكو صاحب أسلوب غامض في كتاباته اللغوية و التاريخية، من هنا صعب علينا تحديد مفهوم العناية الإلهية حسب نظره بدقة، مع هذا سنحاول أن نعطي مفهوما قريبا حسب تحليلاتنا ، لقد كان فيكو يدعو العناية الإلهية "ملكة الشؤون البشرية" و هي لا تخضع لقوة القوانين و إنما تعمل بموجب العادات الإجتماعية و التقاليد "يبدو حينئذ بأن الدلالة الأساسية لفلسفته تتكون من الإيمان بمعنى إلهي ما و غاية مقدسة للتاريخ، غير انه عندما يطبق مفهوم العناية تطبيقا محسوسا يتضح بأنه لا يعني بذلك سوى الإلحاح او القانون الذي يدفع الناس رغم غرائزهم الفردانية و الوحشية و الانانية، إلى تكوين مجتمع و ثقافة وماهو جوهري في االتاريخي ليس الظواهر السطحية التي يصنف فيكو ضمنها بواعث و أعمال الناس الفردانيين"[2]، وبالتالي فإن فيكو في اعتقادنا يرى العناية الإلهية أو الدين على غرار مفهوم الميثولوجيا الأسطورية، ففي القديم إخترع البدائيون الآلهة خوفا من مظاهر الطبيعة و نفس الأمر بالنسبة للعصور الحديثة، طور مفهوم الدين لخدمة مصالح الإنسان و مستجدات الحياة، ويرى فيكو أن هناك نوعين من العناية الإلهية :" أ.

[1] المرجع نفسه، ص78.

[2] ماكس، هوركهايمر، بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ص81.

التاريخي

العناية الإلهية المتعالية المباشرة التي عبرت عن نفسها في أعمال تاريخية خاصة و فريدة و هذه مقصورة على الشعب المختار .

ب. العناية الإلهية الباطنة أو الكامنة في التاريخ التي تعمل وفق قوانين موحدةو تستخدم وسائل طبيعية و بسيطة مثل العادات البشرية نفسها و هي ماكانت تمتلكه كل الأمم الأممية"[1] و بهذا فهو يرى ان الديانات السماوية قد تحكمت في مصائر البشر و تاريخهم أما النوع الثاني أي العنيايةالإلهية الباطنة، فهو يرى أنها تتمثل في عادات النشر و طقوسهم، بحيث ان الإنسان هو الذي صنع لنفسه قوانين يسير وفقها ، إلا أننا نرى في واقع الأمر أن فيكو قد أقام مشروعه العلم الجديد إنطلاقا من مبررات أسماها بالعناية الإلهية التي يراها لاهوت عقلي مدني.

ب. الأدلة المنطقية: رأى فيكو أن البحث عن الحقيقة التاريخية ،يجب أن يذهب إلى أبعد فترة ممكنة ذلك ،أن التنظيمات البشرية لها بدايات و أصول و الأصول الأولى لها بدايات أسبق فلن نصل إلى الحقيقة دون استكشاف هذه البدايات، مع التحليل و التفسير لطبيعة التنظيمات البشرية، من أفكار و قيم و عادات و تقاليد بناءا على الضرورة و المنفعة ، لأن القانون الطبيعي للأمم قد تأسس في نواته الأولى إنطلاقا منهما، ففيكو سمى علمه الجديد بأنه يتتبع تاريخ الأفكار الإنسانية . فهو ميتافيزيقا العقل البشري هكذا "حرص منهج العلم الجديد على تحديد جغرافية الأفكار البشرية و تاريخها لكي يكون هذا التاريخ يقينا كما طبق أسلوبا نقديا جديدا تناول به مؤسسي الشعوب

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص79.

التاريخي

الأولى ، و معيار هذا النقد وفقا للمسلمة الثانية عشر هو العناية الإلهية هي التي علمت كل الشعوب الحس المشترك بينها جميعا"[1].

كانت هذه هي الأدلة الفلسفية التي تسبق الأدلة اللغوية .

2. الأدلة اللغوية :

درس فيكو الإشتقاقات اللغوية ليتوصل إلى دلالتها في أصل التنظيمات الإجتماعية، حيث تتبع تطور اللغة ، فلغة الإنسان البدائي الأول كانت شاعرية،و بالشعر تعرفنا حياة الشعوب الاولى . لذا نجد العلم الجديد لفيكو يحاكي الأساطير، و التعابير البطولية ،و الخرافية ذلك أن الأساطير أو الآلهة التي رسمت في صور شاعرية تصف لنا جانب من الحياة في تلك العصور. سواء في الجانب الفكري من تأمل و أفكار أو الجانب الإجتماعي من الأنظمة و العادات و بهذا فالأدلة اللغوية هي الأخرى تقدم صور واقعية تخدم التاريخ.

خصائص المنهج :

يمكن أن نلخص أهم الخصائص من خلال الأدلة الفلسفية و اللغوية كما يلي :

- استخدام الإستقراء لدراسة الماضي البعيد،الذي يهتم بدراسة التراث الشعب و ما يحمله من بطولات و حكايات خرافية ، تمتزج بين الواقع و الخيال، لذا نجده قد اعتبر أشعار

[1] أبو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص80، 81.

التاريخي

هوميروس و قانون الألواح الإثني عشر بمثابة مادة تاريخية هامة تعبر عن النمط العقلي لتلك الشعوب.

- الإستعانة باللغة و الأدب و العلوم الأخرى لتفسير الحواادث التاريخية، بل أكثر من ذلك يرى أن المؤرخ يجب أن يكون عالم لغة ،حتى يتمكن من فهم طبيعة الشعوب ،و خصائص فكرها البشري ذلك ان اللغة حسبه في تطور دائم و إذا تابع المؤرخ تطورها عن كثب سيكتشف لا محالة مراحل نمو تطور المجتمعات البشرية، و لهذا فإن الإنطلاقة الأولى للعلم الجديد كانت في الحقيقة باهتمام فيكو بالإشتقاقات اللغوية التي أوصلته إلى القول بالطبيعة المشتركة للشعوب.
- البحث في التاريخ هو بحث في المراحل التي تمر بها الشعوب من النشأة إلى النمو، التطور ثم الزوال و التقهقر و هذا البحث عند فيكو لا يبدأ بفروض مصطنعة و بهذا "فهو لا يبحث في وثائق الماضي إلا عما يمكن أن تقدمه لنا من تاريخ الذين صنعوها و معتقداتهم و قد كان منهجه منذ البداية منهجا متكاملا لأنه يدرس تاريخ البشرية دراسة استقرائية كاستقراء بيكون للطبيعة"[1].
- التقليل من أهمية الوثائق التاريخية ،و ربما كان يقصد الوثائق التي تناولت الحديث عن التاريخ القديم فحسب، لأن الوثائق تبقى دليل مادي يشهد على وقائع لم يراها المؤرخ و ربما فيكو

[1] ابو السعود، عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص83.

التاريخي

"تسلح بفكرة مؤادها أن أصول التاريخ البشري قليلة و غامضة و فظة و لهذا رفض علما مزعوما مكونا من ألغاز كما المنهج الرمزي الذي يفسر الأساطير ليستخرج منها تاريخ العقل"[1].

- جعل الإنسان هو الذي يتحكم في مسار التاريخ ، بدعم من العناية الإلهية حسب رأيه و لكن في الحقيقة يكون بهذا قد وقع في تناقض واضح حيث "التزم بقصص العهد القديم و هذا من وجه نظر فلسفة التاريخ يفرض على المؤرخ أو المفكر قيدا يشده نحو اللاهوت بقدر ما يبعده عن العلم فهو قد شده اللاهوت فبعد عن النظرة الموضوعية للتاريخ لأنه في نظرنا لا تتصف أي فلسفة للتاريخ بالعلمية إلا إذا تحررت من تقييم العهد القديم للحضارات القديمة العريقة من جهة وحضارة العبرانيين منجهة أخرى"[2]، فالأمر الذي أخذ على فيكو أنه أنكر إنجازات الحضارات المصرية والبابلية و الهندية و حتى الصينية، و لم يعد مساهمتهم إنجازات علمية.

- عدد فيكو مغالط المؤرخين، و قد حللها بطريقة علمية هادفة ،و من خلال هذه المغالط وضع مجموعة من القوانين رأى أنها تتحكم في الحركة التاريخية لجميع الأمم و بالتالي فقد كان من أصحاب التيار العقلاني الذين وظفوا المقارنة و النقد في مناهجهم.

[1] المرجع نفسه، ص83.

[2] النشار، مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص182.

الفصل الثالث

أسس النظرية التاريخية عند "فيكو" وتأثيراتها

المبحث الأول : قانون تطور الأمم

المبحث الثاني :مبادئ النظرية التاريخية عند فيكو

المبحث الثالث: تأثير فيكو في الفكر الفلسفي الغربي .

المبحث الأول: قانون تطور الأمم :

لقد شكل قانون تطور الأمم لدى فيكو حجر الأساس في فلسفته التاريخية، و هذا القانون هو لب كتابه "العلم الجديد، "ولكن بداية ظهور هذا القانون ترجع إلى ماقبل العلم الجديد بسنوات طويلة . فقد ظهر للمرة الأولى في الخطبة الإفتتاحية التي ألقاها فيكو عام 1708، و نشرت في كتاب عام 1709، تحت عنوان "مناهج الدراسة في عصرنا"[1] و يقوم فيكو في هذا الكتاب باستعراض المراحل المختلفة التي يمر بها الفرد في تربيته، حيث رأى أن هناك قانون التطور النفسي للإنسان الذي يمر بمراحل و هذه المراحل ثابتة تحددها الطبيعة و في المقابل رأى أن الحضارة البشرية هي الأخرى تمر بمراحل هي مراحل النشأة، النمو، التطور، وفي حقيقة الامر هذه الرؤى حول التربية و الحضارة عند فيكو هي التي تملات بمنهج جديد في فلسفة التاريخ تمثل في "العلم الجديد" ،كما أن هذه الآراء التربوية جعلتنا نتعرف على نظريته في المعرفة"التي تلخصها هذه العبارة اللاتينية verumi psum factum (الحق هو العمل) ،و هو المعيار المعرفي الذي وضعه فيكو عن قصد في المقابل المعيار الديكارتي المعروف عن الحقيقة، و هو الأفكار الواضحة المتميزة"[2] وبهذا ففيكو يرى أن المعرفة لاتتحصل عليها إلا بالتفكير و العمل معا، وبهذا فالإنسان هو الذي يصنع التاريخ في نظر فيكو، هذا من جهة و من جهة أخرى تقوم نظرية فيكو في المعرفة على نقد المنهج الرياضي عند ديكارت ،ذلك أن ديكارت جعل التاريخ من الآداب و الفنون لافتقاره حسب رأيه

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص87.

[2] المرجع نفسه، ص88.

إلى تطبيق المنهج الرياضي الأمر الذي جعل فيكو يهاجم المنهج التحليلي الرياضي ويعتبره عقيما ، أي أفكار يصنعها الإنسان لا يفهمها إلا الإنسان ،و بالتالي فالتاريخ لا يفسره إلا الإنسان لأنه هو الذي صنعه، و من هذا المنطلق تبلورت فكرة "قانون تطور الأمم" لدى فيكو و التي كانت بدايتها دراسة للتطور النفسي و العملية التربوية، إلى أن أصبحت كما نراها في "العلم الجديد"، "قانون تطور الأمم".

مفهوم التطور عند فيكو:

إن المهتمين بالفلسفة الأوروبية الحديثة يجعلون من عصر التنوير، العصر الذي تنامت فيه الأفكار التي تتعلق بالإيمان بالعقل و الحرية و تبني أفكار التقدم و التطور، لكن المتمعن لمفهوم التقدم يجد أولى بذراته و ملامحه لدى فيكو، ذلك أن فيكو على عكس رواد عصر التنوير ، لم يجعل فكرة التطور أو التقدم مجرد شعار، فالأوائل و نقصد هنا المؤرخين رأوا أن التقدم على أنه تطور يسير على وتيرة واحدة في حقبة زمنية، في حين تجد فيكو على نقيضهم اهتم بدراسة فكرة التقدم بشكل أعمق، لأن الشعوب تتعدد و تختلف كما أن التقدم لا يسير في خط واحد و إنما هناك مراحل لا تتشابه فلكل مرحلة خصائصها.

توصل فيكو من خلاله بحثه "قانون تطور الأمم" إلى تقسيم العصور التاريخية إلى ثلاثة عصور: عصر الآلهة أين عاشت الأمم في ظل الحكومات الإلهية، عصر الأبطال و فيه سادت الحكومات الأرستقراطية، عصر الإنسان و فيه عرف الإنسان أن جميع الناس متساوون ،و هكذا تأسست

الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات و هذه هي أشكال الحكومة البشرية "وقدمرت الشعوب كلها في نظر فيكو أو تمر بهذه المراحل ثم انزلقت أو ستنزلق إلى حال من البربرية، وعندئذتتكرر العملية بأكملها و ترجع هذه الصفة الدورانية للتاريخ إلى الطبيعة البشرية التي فطر عليها البشر، و مع أن فيكو اعترف بوجود أوجه شبه بين الشعوب و أرجعها إلى الإنتقال فانه اعتبر أنها في أغلب الأحيان تتولد ذاتيا عن الطبيعة المشتركة"[1]، وبهذا يكون فيكو من أصحاب فلسفة العودة التاريخية أو الرجعة التاريخية، هنا يستوقفنا الإشكال التالي : ماهي تفسيرات فيكو للعودة التاريخية ؟ و ماهي علاقة العودة التاريخية بقانون تطور الأمم عند فيكو ؟.

العودة التاريخية عند فيكو :

تأثر فيكو بالتاريخ المصري و نتج عن هذا التأثر تقسيمه المراحل التاريخية الى ثلاث مراحل،بحيث تجتاز كل الشعوب هذه الأدوار و هي تجتازها في تاريخها حيث تتوالى في تعاقب دوري تتصل نهاية الدور الثالث بالدور الأول إما لنفس الأمة أو لأمة أخرى فهي دائرة أزلية مرسومة لكل أمة"[2] وبهذا ففيكو قد حاول في اعتقادنا أن يجعل هذه الدورة التاريخية التي تمر بها الأمم، بمثابة القانون الذي يحكم تطور الشعوب و هكذا فقد أرجع العادات إلى ثلاثة أنواع لأن لكل عصر و ميزاته، فكل عصر من العصور الثلاثة له حكومة و لغة و قوانين تشريعية تتوافق مع طبيعة كل مرحلة إذن فالحضارات تتعاقب في شكل دائري، " و الحركة الدائرية في هذه الأدوار لا

[1] النشار مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و شأنها و أهم مذاهبها، ص180.

[2] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص165.

تعني ان مسار التاريخ كعجلة تدور حول ذاتها ،و لكنها حركة حلزونية لأن التاريخ لا يعيد نفسه على نفس النمط و لكنه يأتي بصورة جديدة في شكل مخالف لما مضى ،و من ثم فإن بربرية العصور الوسطى تخالف بربرية اليونان القديمة اختلاف المسيحية عن الوثنية، فالتاريخ في تجدد دائم و التعاقب الدوري فيه لا يسمح بالتنبؤ"[1].

إن قول فيكو بالعودة التاريخية في علم التاريخ تتخذ الكثير من العقلانية على نظير تلك العقلانية التي جاءت في تاريخ ابن خلدون ففيكو هو الآخر، يرى إذن أن دورات التاريخ تتمثل في ثلاثة دورات حيث ينتقل الإنسان من حالة الهمجية إلى حالة التمدن ثم ينتقل إلى الملكيات الديمقراطية بعدها تنهار المجتمعات و تعود إلى حالة الأولى التي نشأت عليها و هي الهمجية " وهكذا يمر هذا التطور بمراحل يحددها قانونه المسمى بقانون الحالات الثلاث الذي نجد ما يشبهه عند "كونت" و هو يعبر في نظر فيكو عن النظام الطبيعي الذي تخضع له المجتمعات في تطورها، فالحالة الأولى هي عصر الآلهة و الثانية عصر الأبطال و الاخير عصر الإنسانية حيث لا تعتمد القوانين على الدين أو القوة بل يقررها العقل"[2].

يتوضح لنا أن فيكو حين قال بقانون الحالات الثلاث قد حاول عقلنة التاريخ لبحث في الأسباب و العلل لاستخلاص قوانين يمكن أن تفسر لنا مجرى الأحداث التاريخية، لكن ما يجب الإشارة إليه أن فيكو لم يجعل قانون الحالات الثلاث في دائرة مغلقة مثل مؤرخي العصور الوسطى،

[1] النشار مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و شأتها و أهم مذاهبها، ص179.

[2] قنصوة صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، ص42.

و إنما جعل الإنسان محور هذا القانون باعتباره هو الذي يصنع تاريخه بنفسه لذا فالتاريخ في هذه الدورة الحلزونية بتجدد بإرادة الإنسان المتجددة و بالتالي فقد حاول فيكو من هذا المنطلق الخروج عن النظرة التي سادت في العصور الوسطى و التي كانت ترى أن التاريخ يتكرر في دوائر مغلقة، إن فيكو على النقيض من هذا بحيث أنه جعل من قانون الرجعة التاريخية، أو العودة التاريخية بمثابة منهج علمي صارم ، يجب على كل مؤرخ الإحاطة به للوصول إلى تفسيرات علمية و موضوعية للأحداث التاريخية و هذا هو "حجر الزاوية في هذا العلم الجديد الذي دعا إليه فيكو إن تاريخ الأمم علم يمكن أن تطبق عليه قواعدالعلوم الطبيعية التي وضعها الفيلسوف فرانسيس بيكون ألا وهي المشاهدة و التجربة أو كما قال فيكو "إن الحياة الإجتماعية بلا جدال من صنع الإنسان و بالتالي فإن في المكان بل من الواجب أن نكشف مبادئ هذه الحياة الإجتماعية في التغيرات التي أصابت الذكاء الإنساني نفسه"[1].

إن قانون الحالات الثلاث الذي جاء به العلم الجديد لفيكو ، لاشك أنه كان أولى اللبنات الأولى التي أسست لنشأة و قيام فلسفة التاريخ لكن السؤال الذي يطرح نفسه إذا كان فيكو يرى ان الإنسان هو الذي يصنع تاريخه، فأين يكمن دور العناية الالهية

يرى فيكو أن التاريخ "لا يصنعه الناس وحدهم و ذلك لأن العناية تقتاد نحو غايات أخرى غير تلك التي رمى إليها الناس و تسيطر العناية على الناس بواسطة مالهم من غايات خاصة و تفعل

[1] عوض لويس، دراسات في النظم و المذاهب، مركز المحروسة للنشر و الخدمات و الصحفية و المعلومات، القاهرة، ط1، 2014، ص92.

ذلك بطريقة متسامية عليهم و مع أن التاريخ يرجع بدرجة جزئية إلى حرية الناس في الإختيار فإن تلك الحرية لا تمارس إلا داخل الحدود التي تسمح بها العناية"[1] مما لا شك فيه أن فيكو في تصوره لقانون الرجعة التاريخية قد جعل الإنسان المحرك الأول لمجرى التاريخ ، لكننا في الجهة المقابلة نجده يقول أن العناية الإلهية هي التي تقود الناس، و هذا هو التناقض الذي أخذ على فيكو فهو لم يوضح في كتابه العلم الجديد مفهوم العناية الإلهية بدقة فتارة نجده يطلق عليها ملكة الشؤون البشرية و تارة أخرى نفهم أنه يقصد بها القانون إلا أنه في اعتقادنا نرى أن فيكو يجعل لا محالة التاريخ من صنع البشر أما قوله بالعناية الإلهية إنما جاء لأجل إرضاء سلطة الكنيسة فلا ننسى أن عصره عرف إضطهاد جميع المفكرين و الفلاسفة الذين يعارضون آراء الكنيسة و رجال الدين .

بعد أن وضحنا رأي فيكو حول من يضع التاريخ و أسباب قوله بالعناية الإلهية يمكن لنا الآن أن نحلل أهم المميزات التي ارتكزت عليها نظريته في العودة التاريخية ، و هنا يجب أن نشير إلى أن هذا المصطلح قد تم تداوله على صيغات عديدة فنصادفه مثل الرجعة التاريخية ، التعاقب الدوري، الدورة التاريخية و كل هذه المفاهيم تخدم معنى واحد و هو الكيفية التي تسير عليها حركة التاريخ . تقوم نظرية فيكو في الرجعة التاريخية على جملة من الخصائص جعلها هو مسلمات و يمكن إحصاءها كالتالي :

[1] الشيخ رأفت، تفسير مسار التاريخ، ص139.

1. الخصائص العامة المشتركة بين جميع العصور التاريخية :"تبدو عصور التاريخ كما لو كاانت ذات خصائص عامة فمع ان لكل عصر طابعه النوعي الذي يتضح في التفصيلات فإنه بين العصور المختلفة خصائص مشتركة، فترة هوميروس على سبيل المثال في التاريخ اليوناني تشابه العصور الوسطى حيث الملاحم و عصر البطولة و حيث الحكم ذو طابع أرستقراطي كما يغلب على الأدب طابع الملحمي الغنائي و على الأخلاق طابع الولاء يمكن إذن دراسة العصر الوسيط بعد مقارنة سماته العامة مع اليونان القديمة"[1].

2. تتابع الفترات التاريخية بحيث تسير على خط واحد و لعل فيكو أراد أن يبين أن كل فترة زمنية هي نتاج لما سبقها من ظروف و أحداث "ففترات البطولة تعقبها فترة يسود فيها الفكر على التخيل و النثر على الشعر و الصناعة على الزراعة و أخلاق السلم على أخلاق الحرب و هذه يتبعها تدهور إلى بربرية ذات طابع جديد مختلف عن بربرية عصر البطولة، بربرية فكر لا بربرية خيال و لكنه فكر منهك عقيم ذبل فيه الطابع الإبداعي"[2].

3. تسير الأحداث التاريخية بشكل حلزوني عند فيكو و ليس بشكل دائري مغلق "فمراحل الحضارة الإنسانية متتابعة و منفصلة في الوقت نفسه و الدليل على هذا أننا نجد عصور تاريخية تتقدم إلى درجات القوة و العظمة في حين نجد عصور أخرى تعرف مظاهر التحلل و التقهقر

[1] صبحي أحمد محمود ، في فلسفة التاريخ،ص164، 165.

[2] النشار مصطفى حسن فلسفة التاريخ معناها ونشأتها، ص179.

و هذا هو التعاقب الدوري"[1] و بهذا ففيكو ينفي تلك الفكرة القديمة ، التي كانت ترى التاريخ يعيد نفسه ذلك أن التاريخ يأتي دائما بأحداث مغايرة و جديدة.

كانت هذه هي أهم المميزات التي استندت عليها نظرية فيكو في الرجعة التاريخية ولاشك أن هذه السمات قد أصلت لقيام فلسفة التاريخ ،كما أننا نجد فيها دعوة صريحة من فيكو للمشتغلين في مجال علم التايخ إلى التفحص المعمق لأحداث الماضي لأجل فهم الحاضر و الإحاطة بالمستقبل لذا نجده قد شبه هو الآخر المجتمع أو الدولة بالكائن الحي مر بمراحل نشأة ثم النمو و التطور و تأتي المرحلة الأخيرة و هي الموت ، و من خلال هذه المراحل يستطيع المؤرخ الإقتراب أكثر من الحقيقة لأن مظاهر الحضارة من الأدب و العلم و الفن هي التي تجعل المؤرخ يتكهن عمر الحضارة.

العصور التاريخية وخصائصها :

جعل فيكو الأمم التاريخية تسير في شكل دورة تاريخية بشكل حلزوني و كل أمة من الأمم تمر بمراحل ثلاث أو عصور تاريخية ثلاث و هذه العصور التاريخية هي عند فيكو القانون الذي تسير عليه جميع الأمم و قد نهل هذه الأفكار في حقيقة الأمر من دراسته للتاريخ المصري و بهذا فقد قسم التاريخ إلى ثلاثة عصور:

1. عصر الآلهة
2. عصر الأبطال

[1]Berlin, sir lsaiah, vico and ldeal of the enlighten nement in: vico and contemporary thought edited by Giorgio, tagliocozzo and others, newyork, 1976, P262.

وتأثيراتها

3. عصر الإنسانية أو عصر البشر

أ. عصر الآلهة: إعتقد الإنسان في هذا العصر انه يعيش تحت سلطة حكومات إلهية و هنا يواصل فيكو حديثه عن كيفية تشكل الحضارة حيث يرى أن الخوف هو الذي أدى بالإنسان إلى أن يعتقد بوجود الإلاه فيجعل من مظاهر الطبيعة المختلفة كالبرق و الرعد و الرياح الهة يعيدها و يقدم لها قرابين"هذا التفسير يوجد في أصل الشعر المتزامن مع بدايات الحضارة أما الدفعة الأولى نحو تطور الثقافة اللاحق فقد حدثت عندما دفعت الضرورة المادية الرجل الأول "العمالقة" بلغة فيكو إلى الحصول على مخابئ و هكذا تخلوا عن"عادتهم الحيوانية" في التشرد في غابة الأرض الكبيرة و اعتادوا بالعكس على العيش مختبئين و مقيمين في كهوفهم لمراحل طويلة"[1]لاشك أن فيكو حين قال ان الإنسان كان يعيش تحت سلطة حكومات إلهية قصد من وراء هذا الكلام أن الطبيعة هي وحدها التي تحكمت في حياة الإنسان وسيرتها فمختلف الظواهر الطبيعية كانت الحاجة التي دفعت الإنسان البدائي الأول نحو الإختراع، بدءا بالأشياء البسيطة ففكر في تطوير الأمور المتعلقة بملبسه و مأكله و مسكنه و من هذه اللبنات الأولى صار يتخلى الإنسان الأول شيئا فشيئا عن العادات الحيوانية، وبهذا تكون الطبيعة أولى العناصر المشكلة للحضارة الإنسانية فقد جعلتهم "يصيروا حضرا

[1] ماكس هوركهايمر، بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية،ص84.

غادروا كهوفهم و تعلموا بناء الأكواخ ثم بدأوا يعملون في الزراعة و استقروا نهائيا في أخصب المناطق و أكثرها مناعة"[1].

يتوضح لنا أن فيكو من خلال تقسيمه للعصور التاريخية قد جعل كل عصر مرتبط بالعصر الذي قبله و هنا استطاع أن يستنتج شروط الحضارة و التي يراها هو حسب اعتقاده "من تفاعل الظروف المادية الخارجية و الإستجابات الغرائزية لدى الناس و في كل مرة تظهر فيها هذه الشروط في استقلال تام عن إرادة البشر الواعية يقدم فيكو رغم لجوئه إلى العناية الإلهية تفسيرات خالية من كل تحيز و غالبا ما تتطابق في مبدئها مع أكثر المفاهيم حداثة"[2]و بالتالي ففيكو يجعل الحضارة أساس الإجتماع البشري و تقوم الحضارة عنده على أربعة أسس يطلق عليها فيكو العناصر الأربعة أو الأسباب الأربعة للعالم الإجتماعي و تتمثل هذه العناصر الأربعة في:"الأديان، الزواج، الملاجئ السكنية و أول قانون زراعي"[3].

ميز فيكو خصائص المرحلة الإلهية بجملة من الخصائص يمكن أن نحصرها فيما يلي:

- المرحلة الإلهية تتسم بالألوهية وكل ماهو موجود فوق الأرض هو ملك للإله بل إن الحكومة نفسها ذات طابع إلهي و هي السيد الآمر و الناهي.

---

[1] المرجع نفسه، ص84.

*االلغة الهيروغليفية : لغة مصرية قديمة اعتمدت على الصور الموجودة الشائعة الموجودة في البيئة المصرية آنذاك من نبا ت و حيوان و أعضائه و أعضاء الإنسان و قد استعملت كنمط كتابة رسمي لتسجيل الأحداث على المعالم و النصوص الدينية على الجدران المعابد و المقابر.

[2] ماكس هوركهايمر، بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ص85

[3] النرجع نفسه، ص85.

- لما كانت الحكومة تمتاز بصفات الألوهية فمن الطبيعي أن الحكم السياسي الذي ساد في هذه المرحلة هو الحكم الإستبدادي الذي كان بيد الكهنة و رجال الدين الذين ادعوا أنهم يحيطون بتنبؤات عن المستقبل.
- إرتباط الفكر في هذه المرحلة بالخرافة و الأسطورة الأمر الذي أدى بالإنسان في هذه الفترة التاريخية إلى الشعور الدائم بالخوف من الآلهة و من مظاهر الطبيعة التي تخيلها تعبير عن غضب الآلهة و قد حكمت هذه الفترة لغة رمزية سرية هي اللغة الهيروغليفية*.

ب. عصر البطولة أو الأبطال:

يبدأ أبطال أشداء محاربين يعتقد الناس انهم أسمى من البشر و تسود الأرستقراطية نظم الحكم و في هذا الدور نشأت الفروسية و الحروب الصليبية"[1].

يزعم فيكو أنه في هذا العصر قد انصفت الآلهة البشر، وفي إعتقادنا انه قد وقع في غلط في تشخيصه التاريخي لهذه المرحلة فهو من ناحية يقول ان الآلهة كانت منصفة مع البشر و من ناحية أخرى يقول أن حكام هذه المرحلة و الذين هم الأبطال ينحدرون من أصول إلهية، وقد نظر إليهم نظرة التقديس و التبجيل و بالتالي فقد ارتبطت صفة الألوهية في هذه المرحلة بالإنسان فصار للأبطال "الحق المطلق غلى أفراد أسرهم كحق الحياة و الموت و حق البيع والشراء و قد خطت البشرية في هذا العصر البطولي خطوة إلى الأمام فتحررت من استعباد الآلهة و انتقلت إلى استعباد

[1] صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ،ص165.

الإنسان لغيره من بني جنسه أما اللغة فكانت لغة شعرية تتغنى بالبطولة و الشجاعة التي اتسم بها العصر كله"[1] و من هذا المنطلق فالإنسان في هذه الحقبة قد جعل من نفسه إله على نفسه لذا نجد انتشار الأشعار التي تتحدث عن بطولات خارقة من إنجاز الانسان لكن هذه الأشعار بالرغم من أنها أرخت لجزء من تاريخ الشعوب في تلك الفترة، إلا أنها امتزجت بالخيال و الأسطورة و صورت الأبطال و الحكام التاريخيين في قوالب خيالية و يمكن إجمال خصائص هذا العصر فيمايلي:

أ. سيادة مبدأ القوة التي يتمتع بها الأبطال و قد كانت القوة بمثابة القانون الذي يحكم الشعوب في هذا العصر و لاوجود للقوانين الإنسانية .

ب. تقسيم المجتمع البشري إلى طبقات ، الطبقة الأولى، الطبقة الأرستقراطية التي تملك القوة و مثلت الحكومات، وقد سار الإعتقاد آنذاك انهم ينحدرون من أصل إلهي في حين ان الطبقة الأخرى هم عامة الناس، ليس لهم الحق في التمتع بالحريات الطبيعية فقد كان "الدين هو الوسيلة الوحيدة القادرة على ترويض البشر، دبرت العناية الإلهية أن يعيشوا في ظل الحكومات الدينية و أن تقدس القوانين مما أدى إلى اعتبار هذه القوانين أسرارا خفية عن جماهير الناس ، و قد كانت القوانين في حكومات الآباء بطبيعة الحال من هذا النوع و كانت تصونها طقوس مقدسة تتكلم بلغة خرساء و كانت هذه الطقوس بدورها ضرورية لعقول البشر البسيطة في ذلك الحين من أجل تبادل المنافع

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص90.

بينهم"[1]هكذا جعلت الحكومات الأرستقراطية من الوازع الديني ذريعة لأجل التحكم في العامة كما أنها جعلت من القوانين التي تسير الحياة السياسية و الإقتصادية و الدينية حكرا و سرا للأقلية الحاكمة و كل هذا للمحافظة على طاعة وولاء عامة الناس، و من هنا فقد كان اكتساب العلوم هي الأخرى حكرا على الطبقة النبيلة فقط.

ت. العصر الحجري أو عصر الإنسانية :

عرف هذا العصر "الإعتراف بسواسية البشر فظهرت الأنظمة الديمقراطية بعد الملكيات المستبدة"[2]مما لاشك فيه أن الإنتقال من مرحلة الحكم الأرستقراطي القائم على القوة إلى الحكم الجمهوري أو الديمقراطي الذي يحتكم إلى إرادة الشعب، كان لظهور عوامل و أسباب ساهمت في بزوغ هذا النظام أو الحكم الجديد فماهي عوامل و أسباب قيام العصر البشري؟.

أسباب ظهور النظام البشري و الديمقراطيات

إن حياة الإنسان تسير بشكل حلزوني فأحوال المجتمع و الدولة أو الجماعة لا تثبت على حال واحدة مستقرة فكل مرحلة تاريخية تمتاز بظروف معينة هذه الظروف تكون أسباب و عوامل ممهدة لقيام مرحلة تاريخية جديدة و هذا ما حاول فيكو أن يقوله لنا في كتابه العلم الجديد بالرغم من ذلك الغموض و التحفظ اللذان يظهران في كتاباته التاريخية.

تتمثل أسباب قيام النظام الديمقراطي في سببين هما: العامل الديني و التطور العلمي و المعرفي.

[1] أبو السعود عطيات محمد،فلسفة التاريخ عند فيكو ، ص96، 97.

[2]صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص165.

وتأثيراتها

1. العامل الديني: لقد ارتبط الإنسان الأول إرتباطا وثيقا بالدين فكان ينظر إلى الآلهة على أنها الطبيعة، لذا كان هم الإنسان الأول أن لا يغضب قوى الطبيعة فتقرب إليها بالقرابين و ما الى ذلك لكسب رضاها فهي عنده الإله، بعدها انتقل إلى المرحلة الثانية أين نقل صفات الألوهية من الطبيعة و أسقطها على الإنسان فأصبح الإنسان هو الإله، البطل الخارق لكن هذه الألوهية لم تعني جميع البشر و إنما على طبقة دون الأخرى، و الطبقة الأرستقراطية هي التي تمتعت بهذه الصفات و من هنا كانت الآمر و الناهي في المجتمع لانها تمتلك القوة التي هي القانون ، الذي يحكم عامة الناس لكن هذه القوة سرعان ما تلاشت عندما "تحولت هذه الحكومات الأرستقراطية إلى حكومات شعبية تصورت الشعوب أن الحكام هو الذين يحموهم و تركت لهم مقاليد الحكم، و هكذا كانت الحكومات الشعبية بطبيعتها حكومات حرة تديرها قلة من الأرستقراطية"[1] و بالتالي فالإنسان صار يتحرر شيئا فشيئا من سلطة الدين، هذا التحرر من القيود الدينية جعلت عامة الناس يدركون أن النظام السياسي الحاكم يجب أن يتشارك فيه الجميع ، لأن جميع الناس سواسية هذا الوعي الإجتماعي و السياسي أدى في حقيقة الأمر إلى ظهور العصر البشري كما يسميه فيكو.

2. التطور العلمي و المعرفي:

لقد كبح الدين جميع الحريات الفردية و حتى الفكرية و بعد التحرر التدريجي من هذه القيود ظهرت العلوم و الفلسفة الأمر الذي عجل " بالإنتقال من الدور الإلهي إلى الدور البشري دون أن

[1] أبو السعود عطيات محمد،فلسفة التاريخ عند فيكو ، صس101.

يبقوا مدة طويلة في الدور البطولي"[1]هكذا ظهرت موجة علمية من جميع طبقات المجتمع ساهمت في نمو الوعي الفكري ، فظهرت في الساحة السياسية و الإجتماعية نخبة من العلماء و المثقفين تطالب بالتحرر من سلطة آباء الكنيسة و بالمساواة بين جميع أفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم و قد ظهرت ثورات كثيرة في هذه الفترة ، من هنا فقدكان هذين العاملين العامل الديني ، و العامل المعرفي عاملان متداخلان و متكاملان، ساهما في بروز مرحلة تاريخية مهمة هي المرحلة البشرية أو عصر الإنسان.

خصائص العصر البشري :

أهم الخصائص أو المبادئ التي توج بها هذا العصر هي المساواة بين جميع أفراد المجتمع "في الحقوق أمام القانون و حصل كل إنسان على حقوقه الطبيعية المشروعة في ظل حكومات ديمقراطية شعبية حققت المساواة بين طبقة النبلاء و طبقة العامة و اعترفت بحق هذه الطبقة الأخيرة في المشاركة في نظام الحكم وكانت اللغة في هذا العصر الأخير لغة شعبية غلب عليها النثر"[2]و بالتالي فالعصر البشري هو أهم و أبرز مرحلة تاريخية في حياة البشرية لأن العقل الإنساني صار هو المنظم و الحاكم فكل فرد أصبح يعرف ماله من حقوق و ما عليه من واجبات يؤديها ، كانت هذه أهم الخصائص التي ميزت العصور الثلاث لكن هل هناك خصائص مشتركة بين هذه العصور الثلاثة؟.

[1] النشار مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص181.

[2] أبو السعود عطيات محمد،فلسفة التاريخ عند فيكو ، ص90.

الخصائص المشتركة بين العصور الثلاثة:

إن قول فيكو بقانون العودة التاريخية أو الرجعة التاريخية يجعل هذه العصور التاريخية الثلاثة: عصر الآلهة، عصر الأبطال، عصر الإنسان، تسير في دورة واحدة و هذه العصور تتعاقب الأمر الذي يوحي لنا أنه ليس هناك حدود بين هذه العصور.

إن الغرائز الفطرية التي فطر عليها الإنسان ثابتة لا تتغير على مر الزمان و إنما تهذب فقط، فالتداخل موجود بين المراحل التاريخية الثلاث "فنجد في كل مرحلة أثرا للمرحلة التي سبقتها و الدليل على هذا ان الآباء عندما انتقلوا من حياة التوحش الأولى إلى الحياة البشرية، احتفظوا في ظل الحكومات الدينية بقدر من وحشيتهم و قسوتهم ولما تكونت الحكومات الأرستقراطية الأولى، بقيت السلطات الفردية في أيدي الآباء على النحو الذي كانت عليه في الحالة الطبيعية السابقة ، وهكذا نشأت نظم الحكم الأرستقراطية الاولى محتفظة بقدر كبير من السلطات الأسرية و عندما تحولت هذه الحكومات الأرستقراطية إلى حكومات شعبية تصورت الشعوب أن الحكام هم الذين يحموهم و تركت لهم مقاليد الحكم"[1] و بالتالي فقد أراد فيكو من خلال العلم الجديد أن يبين لنا ان هناك خصائص مشتركة بين جميع الشعوب ، مثل الغرائز الدينية و القوانين المدنية لكن ميزات هذه الغرائز و القوانين تتغير من عصر تاريخي لآخر حسب نظام الحكم ، و يرى فيكو أن النظام الأنسب

[1] نفس المرجع، ص101.

للحكم الراشد هو النظام الملكي لأنه في نظره يحقق المنفعة الطبيعية الدائمة للشعوب على عكس النظام الديمقراطي الذي تسعى فيه الأقليات الغنية إلى تحقيق مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العامة "فالملك يكون بمثابة أب روحي للشعب يسعى دائما لتحقيق طلبات أفراد شعبه كما أن الملك يكون كريما مع من يقدمون خدمات كبيرة للوطن و يخلص من خلاله العلم الجديد إلى الإعتقاد الراسخ أن الحكم الملكي هو أنسب الأنظمة و أقربها إلى الطبيعة البشرية"[1] وقد لاقت آراء فيكو حول نظام الحكم انتقادات كثيرة، إلا أننا نرى أن الفكرة التي أراد إيصالها عن الحكم الأنسب للبشرية ليس بالمفهوم الشائع الذي تم تداوله بين أوساط منتقديه، و كأنه أراد أن يصور لنا أن الحكم الملكي هو من إختيار الشعوب ذلك أن طبيعة الشعوب حسب رأي فيكو تتوافق و الحكم الملكي .لكن يجب التنويه إلى أن فيكو لم يعبر عن هذا بشكل واضح الأمر، الذي جعل الكثير من المهتمين بالقوانين السياسية تفهم رأيه بشكل مناقض لفكرته . لأن النظام الملكي عنده يرتبط في مبادئه و أسسه ارتباطا وثيقا بالمصلحة العليا للشعب لأن الحاكم يمتلك حرية السعي وراء تحسين ظروف شعبه، عكس النظام الديمقراطي الذي يترك عامة الناس تسعى وراء شؤونها الخاصة و يكون البقاء و الإنتصار للأقوى فقط و بالتالي ففيكو يصور لنا النظام الديمقراطي على أنه سياسة تقوم على اشتغال عامة الناس باحتياجاتهم كي لا يساهموا في إتخاذ القرارات.

رجعة العصور التاريخية أو عودة مسار الأمم:

[1]Vico, newyork, P333

قدم فيكو في كتابه العلم الجديد منهجا تاريخيا أقل ما يقال عنه التأسيس القاعدي لمنهج علمي يحكم الظواهر التاريخية، و يحللها و ينقدها بأسس عقلية بحتة لكننا نرى في حقيقة الأمر أن فيكو لم يوفق بشكل ما في تنظيم هذه الأسس ، عكس فيلسوف التاريخ العربي إبن خلدون الذي قدم منهجا تاريخيا نقديا أكثر دقة و توازنا مع هذا نرى أن هناك أمر تميز به فيكوعن غيره من فلاسفة التاريخ هو مقولة "عودة الأمم أو الرجعة التاريخية أو العودة التاريخية من جديد" قد أجاد فيكو في تفصيل هذا القانون فكيف يا ترى كان ذلك؟.

سبق وذكرنا أن فيكو قد قسم العصور إلى ثلاثة: هي العصر الإلهي و العصر البطولي و العصر البشري تسير هذه العصور في شكل حلزوني، و يمكن أيضا أن نطلق عليها قانون التطور لأن فيكو تقصى حياة الشعوب بدءا من العصور الدينية إلى العصور البطولية وصولا إلى العصور البشرية، لكن بعد ان وصلت الشعوب إلى مرحلة الإنسان يعني هذا أن هناك دورة تاريخية ثانية و هذا ما أسماه فيكو بالمسار الثاني للأمم حيث "تعود الدورات التاريخية مرة أخرى بصورة أكثر تقدما لتسير الشعوب في نفس المسار و لكنها لاتبدأ من نفس النقطة الأولى إلى العصر البشري الذي كان يحمل في ثناياه بذور فنائه لأن التطور في هذا العصر انغمس في الترف و اللذات"[1] و بهذا فهو الآخر علىّ غرار ابن خلدون

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص144.

يشبه الأمة بالكائن الحي ، أي أن الشعوب تمر بمراحل الطفولة الشباب و الشيخوخة و حين عرفت الإنسانية العصر البشري عاشت في حالة من الترف و البذخ ، و أطاع الإنسان في هذا العصر شهواته و غرائزه و لم يغلب حكمة العقل و الدين مما أدى إلى انتشار الفوضى و اللانظام و هكذا يعود الإنسان من جديد الى أحضان الدين ليكبح شهواته و غرائزه من جديد ، فتصير الأمور السياسية و الإقتصادية و حتى العلمية حكرا على أصحاب الدين و آباء الكنيسة، حيث أن رجال الدين من حقهم التحكم في زمام النظام فكانوا هم الذين لهم حق امتلاك أسرار الدولة ، و هم نفسهم العلماء أما عامة الناس فمالهم سوى طاعة رجال الدين و معهم الطبقة الحاكمة يلبي هذا العصر البطولي و الذي عرف فيه امتلاك الأقوياء لحق الملكية الكاملة للأراضي ، في حين أن عامة الناس فكانوا يمتلكون الأرض كهبة أي هم زارعين لها فقط "ويستمر فيكو في بيان تشابه سمات العصور البطولية الأولى و الثانية فكما كانت المبادئ الأبدية للنظام الإقطاعي وراء نشأة نظم الحكم في الحكومات الأولى ، كما نشأ القانون الروماني من النظام الإقطاعي الذي ساد في إقليم لاتيوم ، كذلك نشأت أيضا نظم الحكم الملكية في أوروبا الحديثة من مبادئ الأبدية للنظام الإقطاعي"[1] و كأن فيكو يريد أن يقول لنا أن التاريخ يتكرر و الأحداث التاريخية تتشابه لكن بصفات متفاوتة و أن هذه الدورات التاريخية يصلح تطبيقها على جميع الشعوب.

[1] نفس المرجع، ص150.

يرى فيكو أن عامة الناس عندما تزيد درجة وعيها بحقوقها المدنية ، فإنها تثور ضد الطبقة الحاكمة أو بمعنى آخر يطالبون بضرورة المساواة بين الحاكم و المحكوم وفي إعتقاد فيكو أنه كلما حضر هذا الوعي في مجتمع ما فإنه يؤدي بالضرورة إلى قيام نظام آخر و هكذا ظهر العصر البشري الثاني، و هي الفترة التي عاش فيها فيكو، وهنا يجب الإشارة إلى أن فيكو لا يجعل جميع الأمم تسير في مسار تاريخي واحد فقد تكون أمة تسير في مرحلة بطولية و أمة أخرى تعيش مرحلة بشرية ، لأن في كثير من الأحيان قد يعيق التطور الطبيعي الذي تسير عليه الأمم حجرة عثرة تكون بمثابة عقبة أمام تطورها ـــ و غالبا ماتكون هذه العقبات في موجات الإحتلال الذي تتعرض له الدول و لكن مانعنيه نحن أن فيكو في تفصيلاته عن عودة مسار الأمم ، جعل أوروبا لوحدها هي التي تعيش المرحلة الإنسانية أو البشرية ، و حجته في ذلك أن الديانة المسيحية هي الديانة الوحيدة التي تكفل للأمم أن يعيشوا في الدور الإنساني لأنها تحمل حسب إعتقاده كل مبادئ التسامح و التعايش،و القيم الأخلاقية الراقية و بهذا يكون قد ألغى الديانات السماوية الأخرى فلا دين يحمل مبادئ التسامح و الأخلاق الراقية بمثل الدين الإسلامي ، لذا فإننا نرى أن فكره التاريخي كان فكرا دينيا بالدرجة الأولى و يشبه في كثير من أفكاره مناهج مؤرخي العصور الوسطى ، فقد كان المؤرخ الوفي للديانة المسيحية و تعاليمها و التي كان يطلق عليها مصطلح العناية الإلهية "التي دائما تخدم

العدل و تنظم حياة الإنسان لأنها تحمل معاني التسامح و الصدق و التقوى و المسيحية هي النظام الإلهي"[1].

يتوضح لنا من خلال دراستنا لقانون العصور الثلاثة و قانون تطور الأمم و المسار الثاني لتطور الأمم تظهر الخطوط العريضة لفلسفة التاريخ التي أقام دعائمها و نحن لا ننكر فضله الكبير في إرساء القواعد و الأسس الأولى لفلسفة التاريخ و يمكن أن نلخص هذه الأسس في النقاط التالية:

- إن الإنسان هو محور الحركة التاريخية عند فيكو ، فهو الذي يصنع تاريخه بنفسه في حين أن قوله بالعناية الإلهية التي توجه البشر في إعتقادنا كانت مجرد حجج كي يحمي نفسه، لأنه عاش في مرحلة إنتقالية بين العصور الوسطى و العصر الحديث أين كان العلماء و المؤرخين مضطهدين فمن كان يخرج عن آراء الكنيسة و رجال يعتبر متمردا أو خارجا عن القانون ، و قد فهم مصطلح العناية الإلهية الذي كان يورده بشكل كبير في العلم الجديد فهما خاطئا ، الأمر الذي جعل البعض يرى أنه وقع في تناقض بن نظريتين تبدوان متناقضتين فهو من جهة يحاول تخليص المؤرخ من الأوهام على أساس علمي، بحيث يبدو لوكان سيوجهنا إلى النظر إلى التاريخ نظرة موضوعية علمية تجريبية و هومن جهة أخرى ينظر من منظار لاهوتي صرف إلى دور العناية الإلهية في التاريخ ضاربا بالتاريخ الموضوعي عرض الحائط، فأين نجد فيكو حقيقة؟هل نجده مع النظر إلى التاريخ نظرة علمية موضوعية كما كان ابن خلدون؟ و يكون دور العناية هذا دورا ثانويا ؟أم نجده

[1]Vico, new science, P380

مع القائلين بالعناية الإلهية الذين يجعلون من التاريخ تجلي لهذه العناية؟؟"[1] و هنا نجد بعض المؤرخين و فلاسفة التاريخ الذين اشتغلوا حول فيكو مثل"كروتشه" و"ويدجري" رأووا أن قوله بالعناية الإلهية مجرد تمويه، في حين ان منهجه التاريخي الذي أقامه قدم خطوات وأسس البحث العلمي و كان من الرواد الأوائل الذين أخذوا بالمنهج التجريبي و محاولة إسقاطه على علم التاريخ.

- التاريخ لا يعيد نفسه بصورة متشابهة دائما و إنما يأتي بصورة متجددة فالمراحل الثلاث التي قال بها فيكو تمر بها جميع الشعوب و هذه المراحل تعود و تتكرر من جديد "وترجع هذه الصفة الدورانية للتاريخ إلى الطبيعة البشرية التي فطر عليها البشر، و مع أن فيكو اعترف بوجود أوجه شبه بين الشعوب و أرجعها إلى الإنتقال فإنه اعتبر أنها في أغلب الأحيان تتولد ذاتيا عن الطبيعة المشتركة"[2].

- طبق فيكو قانون التطور في دراسته للشعوب بدءا من نشأتها إلى نهضتها ، و لكننا نرى أنه قد وقع في نوع من الفوضى في ترتيب أفكاره ، فقد حلل المجتمعات البشرية البدائية بشكل أكثر دقة و تفصيلا باحثا في تشكل الدين و تطور اللغات ، و عادات الشعوب ،و تقاليدها و لكن نجد هذا البحث الدقيق و المفصل غائب في دراسته للعودة الثانية لمسار الأمم ، فأصدر أحكاما تعميمية باطلة في حق كثير من الشعوب ساهمت بقوة في الدور الحضاري "لذلك لا نستطيع أن نقول ان فيكو وفق تماما في تطبيق قانون التطور على المسار الثاني للأمم، و ربما يكون مرجع ذلك

[1] النشارمصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص182.
[2] نفس المرجع، ص180.

إلى أن هذه الفترة التاريخية التي يكتنفها الغموض بسبب نقص الوثائق و بالتالي فهي تاريخ غير مدون و يكفي فيكو أنه وضع الأسس النظرية و المبادئ النظرية التي يهتدي بها الباحثون في علم التاريخ"[1].

لقد اعتقد فيكو بأن النظام الملكي هو أصلح و أكمل الأنظمة السياسية لأنه يحقق العدالة الإجتماعيةو يخدم الشعب دائما، في حين أن الحكومات الشعبية الحرة هي حكومات منافقة، همها هو خدمة مصالحها على حساب الشعب . أي أنها تجعل شعوبها تسعى و تتسابق نحو تحسين ظروفها و تسمي هذا بالحرية و الديمقراطية، فالأنظمة الشعبية عنده لا تثبت على مبادئها لأنها سرعان ما تفسد، وربما يعود تشبث فيكو بالنظام الملكي إلى أحد السببين إما أن النظام الملكي الذي عاش تحت إمرته في نابولي كان نظاما عادلا، أدى بفيكو إلى الإعتقاد الجازم بأن النظام الملكي أصلح الأنظمة ، أو أنه كان نظاما ديكتاتوريا متشددا أدى بفيكو إلى التحفظ.

و بهذا يكون فيكو من خلال كتابه العلم الجديد قد حاول فلسفة التاريخ من خلال إسقاط "قواعد العلوم الطبيعية التي وضعها الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون ألا وهي المشاهدة و التجربة، أو كما قال فيكو إن الحياة الإجتماعية بلا جدال من صنع الإنسان و بالتالي فإن في

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص158.

الإمكان بل من الواجب أن نكتشف مبادئ هذه الحياة الإجتماعية في التغيرات التي أصابت الذكاء الإنساني نفسه"[1].

المبحث الثاني :مبادئ النظرية التاريخية عند فيكو

إختلف المفكرون على مر العصور حول اعتبار التاريخ علما من العلوم أو اعتباره ضمن الفنون و الآداب . و لكن مع تطور و ظهور المنهج التجريبي حدا علم التاريخ هوالآخر هذا المسار بفضل نخبة من المؤرخين الذين عزموا على إدخاله دائرة العلوم ، فكان ابن خلدون و فيكو السباقين لهذا الأمر وهنا يجب التذكير إلى أن ابن خلدون كان أسبق من فيكو في رسم المعالم الأولى للمنهج التاريخي لكن بعد أن ظهرت الدراسات التاريخية التي اهتمت بالمناهج تم الكشف عنه من خلال مقدمته.

بنى فيكو نظريته التاريخية إنطلاقا من "التعليل اللاهوتي مفتشا عن العلل الطبيعية و أسباب الحدث تأثر بأفلاطون من حيث معالجة الحدث التاريخي من أوله إلى آخره و لقد رأى أن العمليات التاريخية لها أنماط متطورة يمكن كشفها عن طريق البحث العلمي من المعطيات للتاريخ التجريبي دون أي اتصال (بالعناية الخاصة)"[2]و لكن مايجب التنبيه إليه هو أن طبيعة علم التاريخ مختلفة و مغايرة لبقية العلوم الأخرى ، هنا نتسائل ماهو جوهر التاريخ و ماهيته؟ و هل التاريخ فرع من

[1] عوض لويس، دراسات في النظم و المذاهب، ص92.
[2] الشامي فاطمة قدورة، علم التاريخ، ص88.

فروع اعلم ؟ أم هو فرع من فروع الأدب و الفن ؟ و في خضم الأراء التي تضاربت حول ماهية التاريخ ؟ كيف نظر فيكو إلى التاريخ؟.

طبيعة علم التاريخ :

"التاريخ دراسة للتطور البشري في جميع جوانبه السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية و الفكرية و الروحية أيا كانت معالم هذا التطور و ظواهره و اتجاهاته"[1] و بهذا يكون التاريخ تلك المرآة التي تعكس حياة الشعوب بدءا من نشأتها و نموها و تطورها عبر مختلف الأزمان. و بالتالي فهو سجل يحوي جميع التجارب و الخبرات التي مرت بها البشرية و قد عرف التاريخ في صوره الأولى على شكل قصص و روايات ممزوجة بالأساطير و الخيال، و أخذ يتطور تدريجيا فظهرت النقوش على الحجر و الرسومات على جلود الحيوانات و بذلك يقدم دائما الأثر الذي يتركه الإنسان و تطور مع تقدم الإنسان و تطوره صار "يعني دراسة الأحداث و هو الأحداث نفسها و الأحداث جمع حادث و الحادث من وجهة نظر المؤرخ كل ما يطرأ من تغيير على الأرض أو في الكون متصلا بحياة البشر"[2].

إختلف الفلاسفة حول تصنيف التاريخ ضمن الفن أو العلوم وإذا كان علما فماهي دائرة العلوم التي ينتمي إليها ؟.

[1] الشيخ رأفت غنيمي، فلسفة التاريخ، دار الثقافة و النشر و التوزيع، القاهرة، د.ط، 1987_1988، ص7.
[2] المرجع نفسه، ص9.

لقد تضاربت آراء الفلاسفة حول جعل التاريخ علما ذلك أن التاريخ لا يمكن مشاهدة أحداثه و ملاحظتها، و هذه هي حجة علماء الطبيعة في إنكاره لعلمية التاريخ و مع هذا فالتاريخ علم أسس لنفسه منهجا خاصا به و ينتمي لحقل العلوم الإنسانية و يهتم بدراسة التقدم البشري على اختلاف أشكاله و قد تأثرت الدراسات التاريخية "بالنزعة الطبيعية حيث انعكس منهج العلم الطبيعي على التاريخ فأصبحت خطوات منهج البحث التاريخي على النحو التالي :

1. منهج تجريبي استقرائي غير مباشر حيث لا يخضع التاريخ للتجريب .
2. حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من الأحداث التاريخية "[1]و بالتالي فقد صنع التاريخ قاعدة متينة من بين العلوم الأخرى تقوم على منهج تجريبي استقرائي، فالتاريخ لن نستطيع إدخاله للمخبر مع حصر الحوادث التاريخية ضمن أطر زمانية و مكانية محددة، و الإحاطة الكلية بالظروف و الأسباب المؤثرة في مجرى الوقائع التاريخية ، و هكذا يصبح التاريخ يسير وفق خطة يمكن الكشف عن قواعدها و أسسها و ليس بصورة عشوائية كما كان يعتقد قديما، و هذا ما أراد فيكو القيام به في كتابه العلم الجديد لأن "عالم الظواهر البشرية يمكن أن تكون دقيقة و علمية تماما كمعرفتنا لظواهر العالم الطبيعي، الثانية: إنه علم بشري يقوم على المعرفة التجريبية السابقة لما هو بشري مما يجعل منتجاته أكثر قابلية للفهم و التعقل من أي علم طبيعي"[2]إذن فيكو يصر على أن

[1] الشيخ رأفت غنيمي، فلسفة التاريخ، ص13.

[2] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص169.

التاريخ علم بلا منازع و يرجع أسباب إخفاق المؤرخين الأوائل إلى إفتقارهم لحاسة التأمل الفلسفي و غياب النقد الممنهج في أعمالهم التاريخية.

أسس المعرفة التاريخية عند فيكو:

هاجم فيكو طبيعة المعرفة الديكارتية لأنها رأت أن المنهج الرياضي هو وحده من يكفل للعلوم الحقيقة المطلقة "فالفعل الإنساني الوعي لا الذاتي هو مبدأ الحقيقة في علم التاريخ، إن مبدأ الإدراك الذاتي لا يتضمن أن العقل يدرك ذاته دون ماهو خارج عن ذاته"[1] و بهذا فموقف فيكو يعارض تماما الفلسفة الديكارتية و يمكن تبيان نظرة فيكو للمعرفة التاريخية كمايلي:

1. "إن دراسة التاريخ تعلم الإنسان كيف يغدو إنسانا بحق بحيث يتعلم الإنسان من دراسة الحوادث التاريخية فيحس و كأنه يعيش هذه الحوادث من جديد و بالتالي فالتاريخ يجعل العقل الإنساني يصنع نفسه بنفسه"[2] أي أن الإنسان هو الذي يستعيد صنع الحادثة التاريخية ، فطبيعة العقل الإنساني واحدة و هي مشتركة بين جميع الشعوب، فالمؤرخ عندما يبحث أو يؤرخ لظاهرة تاريخية ما ، سواء أكانت سياسية أو إقتصادية أو إجتماعية أو ثقافية أو دينية، فإنه يكتشف نفسه كما أن هذا الإحتكاك بماضي الشعوب يجعله يكتشف من جديد قدرات الطبيعة البشرية و هذا ما يسميه فيكو بصنع الذات .

[1] صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص160.

[2] Rubinoff,lionel :Vico and the verification of historical interpretation, in :vico and contemporary thought,P121.

2. إختلاف العالم الطبيعي عن العالم البشري ذلك أن العالم الطبيعي لا يمكن معرفته على حسب رأي فيكو لأن الله هو الذي خلقه، على حين أن معرفة العالم البشري ممكنة لأن الإنسان هو الذي يصنع محتوياته.

و لهذا يستطيع البشر أن يفهموا العالم الذي صنعوه بأنفسهم لأن المبادئ التي قام عليها يمكن إعادة اكتشافها في داخل العقل البشري"[1] و تتمثل هذه المبادئ في:الدين، الزواج، دفن الموتى، وهي موجودة لدى جميع التنظيمات البشرية.

3. التأمل الذاتي الذي يعيد أساس فلسفة فيكو التاريخية "فالتأمل الذاتي هو الذي يمكن المؤرخ من معرفة التحولات و التطورات التي حدثت"[2] و التأمل الذاتي عند فيكو يقوم على نوع من الإستبطان للاحداث التاريخية، بمعنى آخر يعاد بناء الحادثة التاريخية من جديد بشكل نقدي و هنا يتم الإستعانة بفقه اللغة للكشف عن الحقيقة، وتكون اللغة وسيلة يتخذها المؤرخ للبحث في أسباب وعلل الوقائع التاريخية، وهنا يكون المؤرخ في عملية البناء يكشف عن ذاته التاريخية لأن الدارس والظاهرة المدروسة واحد لا يتجزأ ، و هذا الأمر لا يعني أن المؤرخ يمارس ذاتيته، وإنما ذات المؤرخ الإنسانية تتقصى أسباب و ظروف تطور طبيعة البشر و الطبيعة البشرية لا تفهمها إلا ذات بشرية والذات البشرية ستنتهي بالضرورة بعد دراستها لتطور التنظيمات البشرية إلى استخلاص القوانين

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص171.

[2] Ponscpa, leon : human nature and the concept of human science, in: vico and contemporary thought, edited by Giorgio taglicozzo, new York, 1976, P44.

والقواعد التي مر بها التطور البشري ، و هذه القوانين تمثل الجانب النظري للمعرفة التاريخية عند فيكو.

نظرية التاريخ المثالي الأبدي:

تأثر فيكو بمنهج فرانسيس بيكون العلمي لذا فأقر أن التاريخ هو الآخر باستطاعته تطبيق المنهج الإستقرائي لكننا نصطدم في واقع الأمر بطبيعة التاريخ التي تحول دون تطبيق هذا المنهج لأن التاريخ يعتمد على التأمل و النظر في أحداثه و هنا علينا التساؤل :كيف بنى فيكو رؤيته العلمية للتاريخ؟ هل اعتمد على المنهج الإستقرائي وحده؟ أم أنه وظف التاريخ النظري المثالي؟

لاشك أن فهم رؤية فيكو لعلم التاريخ ليس بالسهل ذلك أن أفكاره يشوبها الغموض تارة والتناقض تارة أخرى "فقد اعتبر العلم الجديد الذي جاء به بحث يتقصى حقيقة المجتمعات البشرية حيث أنه يفسر و يحلل أفكار المجتمع أكثر عمقا و اتساعا و هكذا يكون هدف العلم الجديد هو رسم تاريخ الأفكار البشرية"[1] يتوضح لنا أن فيكو يشير من خلال هذا النص إلى المنهج الإستنباطي لأنه يؤكد دائما على أن النقد التاريخي هو الذي يوصلنا إلى اليقين و الحقيقة ، و هنا يستعين المؤرخ بفقه اللغة ليقترب أكثر من الشعوب القديمة فيفهم ظروفها و مراحل تطورها "كما أن هذا النقد سيضع هذه الأسباب و النتائج في صورة تاريخ مثالي أبدي مرت به خلال الزمان تواريخ جميع الأمم

[1]Vico,new science, P347.

أي أن الفلسفة ستجعل من فقه اللغة علما عندما تزوده بمعرفة أسباب التغير التاريخي في شكل تاريخ مثالي خالد"[1]

إن النقد الميتافيزيقي الذي وظفه فيكو في علمه الجديد هو الذي سمح له باكتشاف مميزات التفكير الديني لدى الأمم الأولى فتصورات الشعوب الأولى عن الآلهة ارتبطت بالضرورة و المنفعة البشرية، كما أن فيكو إعتقد أن الأساطير هي في حقيقة الأمر تاريخ يحكي عن حقبة زمنية من تاريخ الشعوب ، كما أن هذه الأساطير هي التي جعلتنا نفهم طبيعة الشعوب الأولى وهي التي أقامت القوانين الطبيعية . و لكن هنا يجب الإشارة إلى أن الأساطير ارتبطت بالأقوياء أو الأبطال على حد فيكو فالبطل كان ينسب لنفسه أمور خارقة غالبا ماتكون غير حقيقية حتى يضع هو القانون و يجعل العامة تمتثل له.

التاريخ المثالي الأبدي و التحليل التاريخي:

اهتم فيكو بدراسة تطور اللغة و رآها ذلك الوعاء الذي يلخص لنا تاريخ البشرية ومن ثمة فعلى المؤرخ الدراية الكافية بمسار تطور اللغة حتى يستطيع الإستقصاء عن الظواهر التاريخية "و هكذا تصبح اللغة الوسيلة العلمية التي يعتمد عليها في تفسير الوقائع التاريخية في شكل مبادئ و ظروف و عوامل و أسباب هذه الوقائع و في الوقت نفسه هذه الوقائع و الظروف و الأسباب المحيطة هي من صنع الإنسان نفسه و ترجمة عن عقل الإنسان و طبيعته البشرية المشتركة بين جميع

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص176.

الناس و يمكن إخضاعها لقوانين التاريخ المثالي الأبدي"[1] و بالتالي فيمكننا أن نقول أن التاريخ المثالي الأبدي هو نظرية البحث عن أسباب و علل الظواهر التاريخية بطريقة التأمل الفلسفي والتبصر العقلاني و هذا يشكل الشق النظري للتاريخ المثالي عند فيكو.

لقد حاول فيكو أن يقدم منهجا تاريخيا علميا، يقوم على التعليل و النقد و أراد أن ينافس به العلوم الأخرى "هذا العلم يسلك إذن مثل الهندسة التي تخلق بنفسها عالم المقاييس و ذلك بإنشائه و اعتباره وفقا لعناصرها الخاصة لكنه من الواقعية بمقدار ماهي عليه القوانين المتعلقة بالقضايا البشرية من واقعية تفوق النقاط و الخطوط و المساحات و الأشكال"[2] و هكذا يكون فيكو قد وقع في مغالطات كثيرة فلا يمكن أبدا أن نقارن بين طبيعة علم الهندسة و علم التاريخ، فالواقعة الماضية لا يمكن مشاهدتها و لا التجريب عليها و هذا الأمر لن يقلل من أهمية و علمية التاريخ و إنما تدخل ضمن خصائص و مميزات علم التاريخ.

إن معظم فلاسفة التاريخ يجعلون مبدأ التعليل في التاريخ كشرط أول و أساسي للوصول إلى الموضوعية في الحكم على الوقائع التاريخية، و الحقيقة التي تظهر لنا جليا أن فيكو أشار إلى مبدأ التعليل بتوظيف فقه اللغة لكنه لم يوضح لنا أساليب و طرق التعليل، بالرغم من أنه قال أن هناك نظام طبيعي "تخضع له المجتمعات في تطورها فالحالة الأولى هي عصر الآلهة و الثانية عصر الأبطال و

[1] Pompa, leon : vico Astudy of new science , combridge university, press, 1975, P111.

[2] ماكس هوركهايمز، محمد علي اليوسفي، ص80.

الأخير عصر الإنسانية حيث لا تعتمد القوانين على الدين أو القوة بل يقررها العقل"[1] و يرى فيكو أن هذه العصور كما سبق و ذكرنا أنها ستعود من جديد في دورة ثانية لكن لم يذكر لنا أن الأسباب المتشابهة قد تتولد عنها وقائع متشابهة، أو بمعنى آخر نرى أنه قد عمم هذه الأسباب و العلل و جعل جميع الأمم تشترك فيها بحجة أن الطبيعة البشرية واحدة .

أقسام نظرية التاريخ المثالي:

وضع فيكو كتابه العلم الجديد و كان يتطلع إلى وضع نظرية في علم التاريخ تتوافق مع طبيعة هذا العلم من جهة أولى ، ومن جهة ثانية تتوافق مع المنهج التجريبي لكن في حقيقة الأمر نظر فيكو "إلى التنظيم الإجتماعي على انه نمو طبيعي متدرج ينخرط فيه بشر يطورون ببطء أشكالا للحياة المشتركة عن طريق التراكم التدريجي لتراثهم على حين أن العقد الإجتماعي يفترض بشرا يجدون انفسهم و قد أصبحوا بصورة مفاجئة كائنات عاقلة قادرة على التدبر و الحساب تبعث الحياة في مجتمع جديد بفعل إرادي ينطوي على قرار عقلي"[2] و بالتالي فالتاريخ المثالي عند فيكو يأخذ بعدين هما: البعد الإجتماعي و البعد التاريخي و لن نستطيع فهم نظرية فيكو التاريخية إلا بفهم هاذين البعدين.:

[1] قنصوة صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، ص42.

[2] برتراند راسل ، تر:فؤاد زكريا حكمة الغرب، الفلسفة الحديثة و المعاصرة، ج2، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر، 2010، ص100.

1. البعد الإجتماعي: إن التاريخ يتتبع تطور مختلف العلاقات و السيرورات الإجتماعية، من عادات و تقاليد و يرى فيكو أن العادات و التقاليد التي يسير عليها أي مجتمع ما، هي التي شكلت القوانين البشرية الأولى كما أن طبيعة القوانين تتحدد بفضل الطبيعة المشتركة بين أفراد المجتمع و هي طبيعة بشرية تحكمها الضرورة و المنفعة ، و هنا يجب الإشارة إلى أن فيكو عندما يستعمل مصطلح "التنظيمات البشرية" فهو يقصد جميع ما يتصل بالمجتمع البشري من لغة و كتابة و قوانين و أنظمة الحكم و العقل و في اعتقادنا أن البعد الإجتماعي عند فيكو يشمل المنهج التجريبي.

2. البعد التاريخي: يرى فيكو أن الأنظمة البشرية تسير وفق قوانين تاريخية و هذه القوانين التاريخية تشمل الجانب النظري من نظرية فيكو التاريخية "فالأمم البشرية تنتقل من عصر لعصر في مسار ثابت متسلسل الأسباب و النتائج و يتبع هذا أي أن العصور الثلاثة (عصر إلهي، عصر بطولي، عصر بشري) يقابلها ثلاثة أنواع من الطبيعة البشرية كما يقابلها أيضا ثلاثة أنواع من القوانين الطبيعية التي ينشأ عنها بالضرورة ثلاثة أنواع من التشريعات و الأنظمة السياسية"[1] و بهذا فيكو لا يفصل الجانب النظري عن الجانب التجريبي في التاريخ، فالطبيعة البشرية حسب نظره في تطور و تقدم و يحكم هذا التطور مجموعة من القوانين يستطيع المؤرخ الإعتماد عليها للخروج بتفسيرات علمية عن الوقائع التاريخية، لكن الطبيعة البشرية قد تسير بعض الأحيان في غير الإتجاه الذي رسمته لنا القوانين النظرية، هنا على المؤرخ إتخاذ وسائل أخرى من تعليل و تحليل ، و بالتالي

[1] Vico, new science, P915.

فلسفة فيكو التاريخية تقوم على الإزدواجية بين النظر و العمل "و لعل هذه الإزدواجية نفسها أن تكون دليلا على صدق نظرته و عمق إحساسه بالواقع التاريخي الذي لا يكف عن التغير و التطور فهو واقع يخضع لقوانين و شروط محددة دون أن يستجيب لها بطريقة حسابية و حتمية خالصة"[1]

مميزات نظرية التاريخ المثالي الأبدي:

قدم فيكو في كتابه العلم الجديد نظرية التاريخ المثالي الأبدي في مزيج من العناصر المتعددة ، حيث نجد فيكو يعالج مشكلات تاريخية و في المقابل مشكلات تجريبية لذا فالفصل في طبيعة نظريته أمر ليس بالسهل "بل إنه ليبدوا أحيانا أن فيكو ذاته لم يكن واعيا بأنه ينزلق من نوع من المسائل على نوع آخر و لكن على الرغم من هذه العيوب و الغوامض كلها فإن الكتاب يعرض نظرية عظيمة الأهمية "[2]و يمكن تلخيص أهم ما ميز نظريته كما يلي:

1. إن فقه اللغة هي الوسيلة الأولى التي يحتاجها المؤرخ "ذلك أن الإشتقاقات اللغوية تكشف عن أسلوب الحياة و التفكير لدى شعب ما نظرا لارتباط الألفاظ بالمعاني و من ثم فإن الألفاظ المستخدمة الآن حتى المجردة منها ترجع جذورها إلى صور من الحياة و التجربة بعيدة عما اعتدنا عليه"[3] و بالتالي فإن فيكو يجعل من اللغة أي تتبع تتطورها المعيار الذي يجعل المؤرخ يتعرف على نمط حياة و تفكير الشعوب الأولى.

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص182.
[2] رسل، حكمة الغرب، ص97.
[3] صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص164.

2. الإعتماد على بعد النظر و التأمل الفلسفي للوقائع التاريخية و في هذه النقطة يؤكد فيكو على الجانب النظري أين يظهر تأثره بمنهج بيكون الإستقرائي و يمكن شرح موقف فيكو بصورة أكثر تبسيطا بمعنى آخر أن هناك جملة من القوانين التاريخية و الإجتماعية يصوغها المؤرخ من الواقع التاريخي و عليه العمل بها في الحكم على حقيقة الوقائع من كذبها.

3. توظيف المنهج الإستنباطي الذي يعتمد على النقد و التعليل ذلك "أن المؤرخ يستطيع كشف القوانين العمليةلمسار التاريخ و يفسر من خلالها سبب وقوع الأحداث على نحو ما وقعت، وسبب استمرار حدوثها في المستقبل بطريقة قابلة للتنبؤ على أن فيكو لا يقول إن كل تفصيل يمكن التنبؤ به آليا و إنما يقول إن الخطوط العريضة يمكن معرفتها على نحو عام"[1]

4. إن التنظيمات البشرية تسير في تطور و تقدم مستمرين على مر الأزمان، و يظهر هذا التطور في شكل دورة تاريخية تسير بشكل حلزوني و هذه الدورة التاريخية تعاود الرجعة من جديد في شكل ثلاثة عصور و تعكس هذه العصور الثلاثة نظام ثلاثي للتطور ، يميز بين ثلاثة طبائع بشرية بحيث ان لكل عصر طبيعته الخاصة به فالعصر الإلهي أو الديني يتميز بطبيعة دينية شعرية أو إلهية كما يصفها فيكو تعتمد على جانب كبير من الخيال و الأساطير في حين أن الطبيعة الثانية هي طبيعة بطولية أساسها هو القوة التي تحكم جميع مناحي الحياة من إقتصاد و سياسة، تأتي أخيرا الطبيعة الثالثة و التي يطلق عليها فيكو الطبيعة البشرية أو الإنسانية و تجسد هذه الطبيعة قمة التفكير

[1] رسل برتراند، حكمة الغرب، ج2، ص99.

العقلي و تطوره و بالتالي فلكل عصر طبيعته و هذه الطبائع في تطور مستمر و كل عصر يعبر عن الخصائص البشرية.

5. يرى فيكو أن التاريخ من صنع الإنسان لكنه لم يكن واضحا في هذا الأمر، حيث صاغ هذه الفكرة بشكل غامض و معقد حيث أنه وظف مصطلح العناية الإلهية بشكل يصعب على القارئ فهمه فمن جهة نجده يؤكد أن الإنسان يصنع تاريخه بنفسه، و من جهة أخرى يرى أن "العناية الإلهية هي التي أرادت أن يكون مسار التاريخ على نحو ماهو عليه جعلت هذه العناية العمالقة ضخام الأبدان كي يصارعوا الوحوش في الغابات ، كما سمحت العناية الإلهية بظهور الوثنية و ظلال الإنسان كي يخاف غضب آلهة مزعومة و اعتقد الإنسان بكهانات باطلة كي يجد في ظلاله مبدأ سلوك ونظام مزور التباس الحق بالباطل مهد لدور الوصول إلى الحق ثم سمحت العناية الإلهية بهذا التمييز بين عبرانيين و أمميين "[1].

إن هذا التناقض الذي وقع فيه فيكو حول مبدأ من يصنع التاريخ؟ جعلت بعض شرائحه ينتقدونه و يرون أن أفكاره في مجال فلسفة التاريخ يشوبها التعصب الديني ، الذي جعله يبتعد عن النظرة الموضوعية المتكاملة للتاريخ، "فهو قد شده اللاهوت فبعد عن النظرة الموضوعية للتاريخ ، لأنه في نظرنا لا تتصف أي فلسفة للتاريخ بالعلمية إلا إذا تحررت من تقييم العهد القديم للحضارات

[1] صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص168.

القديمة العريقة من جهة و حضارة العبرانيين من جهة أخرى"[1]، و بالتالي ففيكو وقع في انزلاقات فكرية حين ألغى المساهمات الحضارية لأمم أخرى مثل الحضارة البابلية والمصرية و الهندية و جعل العبرانيين هم شعب الله المختار.

بعد أن بينا أهم المميزات التي اتسمت بها نظرية فيكو التاريخية يتوضح لنا جليا أن فيكو كان عميقا و أكثر قربا من الوقائع التاريخية، نظر إلى التاريخ نظرة جدلية و قدأسهم إسهاما كبيرا من خلال كتابه العلم الجديد في تقدم و تطور علم التاريخ ،و هذا التطور في فلسفة التاريخ سيظهر لاحقا في عصر التنوير فما أقام هو قاعدته سيبنيه رواد عصر التنوير.

المبحث الثالث : تأثير فيكو في الفكر الفلسفي الغربي

1. تبدأ العصور الحديثة إبتدءا مع القرن السابع عشر، و قد عرف هذا القرن، تطور كبير في مناهج العلوم، بحيث إنتهجت العلوم الطبيعية المنهج العلمي أو بمصطلح آخر أكثر دقة المنهج التجريبي، هذا المنهج الذي جعل الفلاسفة و علماء العلوم الإنسانية يبحثون عن طريقة و سبيل يمكنهم من تطبيقه في مجال العلوم الإنسانية، قصد أن تتطور هي الأخرى على نفس شاكلة العلوم الطبيعية، هكذا ظهر إهتمام الفلاسفة بالمنهج على رأسهم "فرنسيس بيكون"، "جون لوك" و "دافيد هيوم"، و يعد "فرنسيس بيكون" مؤسس المنهج التجريبي الحديث و ذلك حين وضع "أورجانونا جديدا" ليكون بديل أورغانون أرسطو الذي جعل من الطبيعة علما نظريا يهدف إلى

[1] النشارمصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص183.

استكشاف ماهية الوجود، فوضع بيكون الطبيعة في موضعها الصحيح و أصبح علما يبحث في كيفيات المادة أو أحوال تغيرها لا في ماهيتها ولا يتم استكشاف الكيفيات إلا بمنهج الإستقراء"[1]، و قد تأثرت العلوم الإنسانية بمنهج بيكون على غرار علم التاريخ على مستوى بعض الأسس ويمكن حصرها فيما يلي:

1. المنهج:صار علم التاريخ، يبحث في الوقائع التاريخية و يجمع العدد الممكن بغية إيجاد أحكام كلية كما هو الأمر في العلوم الطبيعية.

2. أهداف و غايات علم التاريخ:إن العلم التجريبي يبحث عن الغاية العلمية النفعية، بحيث يريد أن يجعل الطبيعة خادمة للإنسان "أما في التاريخ فالهدف تزويد الإنسان بأحكام تمكنه من أن يفهم معنى الأحداث الحاضرة في ضوء خبرته بالماضي بل و إلقاء الضوء على المستقبل"[2]

3. التحرر من سلطة الدين:سبق و ذكرناعن العصر الوسيط كان عصر لاهوت و إرتبط التاريخ في موضوعه و أهدافه بخدمة اللاهوت، لكن مع العصر الحديث إبتعد المؤرخون عن دراسة الأمور و المسائل المتعلقة باللاهوت، لأنها لا تخدم علم التاريخ بل تضعه خارج العالم، لهذا نجد المؤرخون ركزوا على دور الفرد في التاريخ ورأوا أنه هو وحده الذي يتحكم في مسار التاريخ،هكذا بدأ الفكر يتحرر من قيود الكنيسة، ويشق لنفسه طريقا خاصا به ،مما أدى إلى ظهور العديد من الإكتشافات العلمية أهمها "قوانين نيوتن في الطبيعة الفلكية ثم إكتشاف جلبرت

[1] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 3، 1994، ص ص، 13، 14
[2] المرجع نفسه، ص 14

للمغنطيسية و هارقى لدورة الدم ثم تقدم الكيمياء بفضل روبرت بوبل"[1]. و مما لا شك فيه آن هذا التقدم الهائل الذي أحرزته العلوم قد إنتقل إلى الدراسات التاريخية. ويمكن أن نلاحظ هذا في النزعة النقدية و النزعة الإنسانية.

1. النزعة النقدية:

ظهرت هذه النزعة في عصر التنوير "كرد لسلطة الدين، وقد إتخذ التيار النقدي طابعا عنيفا إلى حد محاولة إخضاع الوقائع التاريخية المذكورة في الكتاب المقدس إلى النقد التاريخي"[2]، و بالتالي فإن التاريخ أخذ منعطفا جديدا في عصر التنوير ،و الذي هو إتجاه فلسفي إجتماعي يهدف بالأساس الوصول إلى المعرفة العلمية الحقة و يرى هذا الإتجاه أن الوعي هو اللب الذي يحكم تطور المجتمع، و من رواد هذا الإتجاه نجد:فولتير، روسو، مونتسكيو، هيردر، شيلر، "وقد ساعد نشاطهم بقدر كبير من التغلب على نفوذ الإيديولوجية الكنسية و الإقطاعية ومناهج التفكير المدرسية"[3] ومن بين مبادئهم أنهم رفضوا الميتافزيقا وثاروا ضدها فهي عندهم عقبة أمام العقل يجب إزاحتها ،و رأوا أن التاريخ يزيدنا خبرة و تجربة لمواجهة الحاضر، وقد حضت الكتابة التاريخية في هذا العصر بعناية

[1] صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص 16

[2] المرجع نفسه، ص 17

[3] حسيبة، مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر و التوزيع، ط 1، 2009، ص 146

فريدة من بحيث أنه أرادوا أن يغيروا تلك النظرة الكلاسيكية التي ترى التاريخ سجل يؤرخ للحروب و المعارك ، و سير الملوك، و الأمراء، في حين يجب أن يتعداها إلى ما هو أشمل فيؤرخ للحضارات الإنسانية من علوم و ثقافات ،و فنون، و تجارة ،و صناعة لأن التأريخ للحروب لا يقدم لنا نشاط و جهد الأفراد، أما إذا درس التاريخ العلم، و الفن و الفلسفة و الآداب .فإن هذا سيبرز لنا قيمة الأفراد و ماذا قدموا للإنسانية، فالتاريخ حسب فولتير "يجب أن يتسع لما هو أهم من ذلك ليتتبع سير العقل البشري في الفلسفة و البلاغة، في الشعر و النقد، في التصوير و النحت، في الموسيقى و الرسم، حتى في النسيج و صناعة الساعات، كل ما يمثل شخصية الشعب، إنها أجدر إهتماما من معرفة جزئية بأخبار الملوك و حواديث البلاط، إن الخير الحقيقي للإنسانية ليس قادتها و لكن في فلاسفتها و علمائها وشعرائها"[1]، و بهذا نجد أن في هذا العصر أن التاريخ قد بدأ يتخصص أكثر، فظهر نوع جديدهو تاريخ العلم الذي يهتم بتأريخ الاكتشافات العلمية ،إذن فالصفة المميزة و الجديدة التي اكتسبها علم التاريخ في هذه الفترة والتي غابت في العصور الوسطى هي عوده علم التاريخ إلى روح النقد التي وجدت عند الإغريق لكن بحلة جديدة ، كل الكتابات التاريخية التي ظهرت جاءت ناقدة ومناهضه لتاريخ العصور الوسطى " أما أصدق من يمثل عصر النهضة هو نيكولا ميكافيلى (1469 ــ 1527) الذي وضع كتاب الأمير وتاريخ فلورينسا

[1] المرجع نفسه، ص 84

وجوريشيوديني(1483 ــ 1540) ألف كتاب تاريخ ايطاليا بسبب احتقارها للعصور الوسطى واحساسها بالمقت للبابوية والتركيز على الجانب السياسي والتمسك بالوطنية." [1]

2النزعة الإنسانية:

علت هذه النزعة دور الانسان و مقدرته على تغيير الاحداث ، كما ترى ان الدين قيد للفكر يجب التحرر منه والغى اصحاب هذا الاتجاه اي قوه غيبيه يمكن ان تؤثر في مسار التاريخ فالإنسان وحده هو الذي يتحكم في مسار التاريخ .

المنهج التجريبي وأثره على علم التاريخ :يعد القرن السابع عشر في تاريخ اوروبا الحجرة الاولى التي اسست لقيام عصر التنوير، كما انه تميز ايضا بظهور رواد المنهج التجريبي وعلى راسهم فرنسيس بيكون ، الذي نقد المنطق الارسطي واعتبره عقيما ، "وقف بيكون ضد المدرسيين والانسانيين انتقد الاولين لحبهم للنقاش وعدم توصلهم لشيء وهاجم الاخرين لولعهم بالبلاغة والشكل دون المحتوى كما انتقد الاعتماد على العقل كأداة تجريد وتصنيف ومساواة ومماثلة ، فكان اول من حاول وضع صوره كامله للمنهج الاستقرائي القائم على التجربة الحسيه او على الملاحظة والتجربة" [2]فالحواس كثيرا ما تنقل لنا معارف لذا يجب الحذر منها ، وقد سمي الاخطاء التي يقع العقل فيها بالأصنام او الأوهام وهي اربعه عنده :

[1] حمزة ميمونة ميرغني دراسات في منهجية البحث التاريخي ص 47.

[2] صبحي احمد محمود وجعفر صفاء عبد السلام في فلسفة الحضارة ص 114.

ـــ 1أصنام القبيلة : نسب هذه الاوهام الى القبيلة وهي عامه ومشتركه بين جميع الناس، لان الحواس هي التي تقدم المعرفة الأولية التي يعلمها الجميع ، وهذه المعرفة الأولية هي زائفه وناقصةفالانسان بطبيعته يميل الى تصديق الخرافات والاساطير والسرعة في اصدار الاحكام.

ـــ 2اصنام الكهف:يقصد بها تلك الاحكام المسبقة التي يصدرها الانسان ، وقد تكون اما مرتبطة بميول الذات الفردية او اتجاهات فكريه موجوده مسبقا لدى الفرد و سبب هذه الاوهام هو الارتباط اكثر بالذاتية.

ـــ 3اصنام السوق:يقصد بهذه الاصنام المجتمع واللغة التي يتواصل بها فالأفراد يتواصلون مع بعضهم البعض عن طريق اللغة وتستعمل عبارات وجمل موحده ولكن في بعض الاحيان يستعمل افراد نفس المصطلح لكن المعنى يختلف من فرد لأخر وهذا يزيد من الاختلافات وسبب ذلك ان الالفاظ قد تكون غير دقيقه.

ـــ 4اوهام المسرح: " يرى بيكون أن أصنام المسرح قد ورثها الإنسان الحديث عن مذاهب الفلاسفة القدماء الدين يفسرون الطبيعة حسب تصوراتهم قبل القيام بملاحظه ظواهرها ويعتمدون في ذلك على الخيال او اللاهوت بينما الدين مصدره الوعي، وبيكون في ذلك يرى ضرورة فصل العلم عن الدين فحرر الفلسفة والعلم عن الدين وقضاياه"[1].

[1] صبحي أحمد محمود وجعفر صفاء عبد السلام في فلسفة الحضارة ص 117.

يتوضح لنا من خلال هذه الاصنام التي عدها بيكون ان منهجه التجريبي يقوم على مجابهة هذه الاصنام بالنقد والشكل للوصول الى الحقيقة، فالنظرية التي اسسها عن الاستقراء ، تقوم بالضرورة بالتجريد والتجريب لفهم قوانين الطبيعة و لم يكن علم التاريخ بمعزل عن هذه التطورات بحيث انه صار تاريخ يتحرر تدريجيا من سلطه الدين والفلسفة ، ويبحث لنفسه عن مكان ضمن بقية العلوم الاخرى فصار الاهتمام بتطوير مناهج علم التاريخ لتساير تطور العلوم وقد انعكس هذا التأثير في صياغة منهج جديد هو المنهج الوضعي " هكذا سرى في الدراسات التاريخية ما يسمى بالنزعة الطبيعية نزعه تمثل الانعكاس المنهج العلمي الطبيعي على التاريخ واصبحت هذه النزعة تنشد ان يصبح التاريخ علما بالمعنى الفزيقي للعلم"[1] ، وبالتالي فأثر النزعة الطبيعية يمكن ان نحصره في الاليات العلمية الجديدة التي صار يطبقها علم التاريخ:

ـــ توظيف المنهج التجريبي الاستقرائي سوره غير مباشره بما يتلائم مع طبيعة التاريخ.

جمع المادة التاريخية بكميات هائلة وايراد جميع تفصيلاتها عن مصادر شفويه وكتابيه واثار والتعرض بعضها لهذه المادة بالتقد والتحليل والمقارنة وقد اعادت هذه الروح النقدية الثقة لعلم التاريخ التي كانت افتقدها في العصور الوسطى.

تحديد الواقعة التاريخية ضمن اطار واحد زمان ومكان يتمكن المؤرخ الإحاطة بجوانبها واصدار احكام اكثر دقه وموضوعيه تمكن الباحث من رؤيه الماضي واسقاطه على الحاضر والتنبؤ به في

[1] صبحي محمود في فلسفة الحضارة ص 18.

وتأثيراتها

المستقبل.

الاهتمام بالتاريخ العلم والعلماء على غرار الملوك و الامراء ذلك ان العلماء كما يرى فولتير هم الاكثر تأثير وإسهاما في المجتمع ومقاييس تطور المجتمع وتقدمه يقصد بقدر تقدير العلماء ، "وهكذا امكن لعصر التنوير ان يقدم بفضل انعكاس روح العلم على التاريخ مؤلفاته في قيمتها كل ما الف طوال العصور الوسطى.[1] وتعود غرارة المادة التاريخية في العصور الحديثة الى ذلك التغيير الذي حصل وتمثل فيالاساس نزع الثوب الديني عن التاريخ الذي تقمصه في العصور الوسطى بحيث اصبح المؤرخ مثل العالم الفيزيائي ينطلق من معلومات جزئيه تتمثل في رواية الوثائق قبل التأكد من صحه هذه الوثائق والروايات عليه اولا تصنيفها حسب موضوعاتها وتخصصاتها ، "وتشكل هذه المرحلة النقد الخارجي على الباحث ان يتبعها بمرحله النقد الباطني لتيقن من ان مضمون الوثيقة مطابق للوقائع التي يرويها"[2]، ويقابل النقد الخارجي النقد الباطني ويتم عبر مرحلتان هما:

1النقد الداخلي السلبي: وهنا يبحث المؤرخ جوانب الروي من خلال مذاهبه ويتوقع حتى يتسنى له سفيان مصدقيه الراوي من عدمها.

2النقد الداخلي الايجابي : يقوم النقد الداخلية الايجابي على البحث في هويه الوثيقة ومحاوله تفسيرها وازاله اللبس والغموض عنها وعلى المؤرخ ان يستبعد كل افكار المسبقة القبلية ويحاول قدر المستطاع إبراز وجهه نظر المؤلف الاصلي وهنا يجب ان عمليه النقد الداخلي والخارجي تقود المؤرخ

[1] صبحي احمد محمود في فلسفة التاريخ ص 19.
[2] المرجع نفسه ص 21.

الى عمليه بالتعليل في تاريخ كما انللظاهره الطبيعية علل واسباب ، الامر نفسه يحدث مع الظاهرة التاريخية ،فالحوادث التاريخية لا تظهر فتحي بمجموعه من الصدف وانما لأسباب وعلل تفاعل فيما بينها لتكون الحادثة التاريخية ،"فالتاريخ بلا تعليل مجرد تقويم فدراسة التاريخي هي دراسة اسباب، واذا كان جمع المادة التاريخية بشكل الخطوة الاولى فان التعليل يشكل الخطوة الأخيرة في كتابه التاريخ "1 وذلك ان المؤرخ الحقيقي هو الذي يقدم تعليلات علمية مقنعه في تفسير مجرى الحوادث التاريخية تتلاءم مع طبيعة الظاهرة التاريخية وما يجب الإشارة اليه وانه في ميدان العلم تستبدل مصطلح العليا بمصطلح القانون وصيغ القانون في قالب الرياضي الامر الذي لم يتحقق بعد في علم التاريخ وان كان هذا الامر بعيد المنام لدى يلجأ جل المؤرخين الى الاستعانة بالتفسير والتعليل وشرح الظروف المحيطية بالوقائع التاريخية ومع هذا يبقى منطق" التفسير واحد في جوهره في كل من التاريخ والعلوم والطبيعة وليست نبوءة في التاريخ تكهنية ولكنها تنبؤ علمي قائم على افتراض قوانين العامة لا غنى عن المؤرخ عنها واذا كانت هذه القانون لا تعني الحتمية انما تدعو مجالا الا مكان والاحتمال2" .

إن تأثر علم التاريخ بالمنهج التجريبي يظهر بصورة واضحة وجلية ،في المنهجية التي اتخذها الكتابات التاريخية والتي انتقلت من معرفة سردية الى معرفة ترتبط بمجموعة من الاشكاليات تجعل المؤرخ مثل عالم الظاهرة الطبيعية ينطلق من عملية فرز وتصنيف وصياغة تركيبية للمادة التاريخية

[1] المرجع نفسه ص 23.

[2] صبحي احمد محمود في فلسفة التاريخ ص 27.

،وبالتالي فقد صار المنهج التاريخي يتحدد بالخطوات العلمية التي يتبعها المؤرخ في عمله التاريخي ، فماهي هذه الخطوات؟ وهل هي سبيل ناجع يقود الى الموضوعية العلمية؟

خطوات ومنهجية المؤرخ في العصور الحديثة:

" إن ميزة المؤرخ الاساسية التي تتأكد في التاريخ الجديد هي انه وثائقي عنيد، والعمل انطلاقا من الوثائق يستدعي ارساء سلوك موضوعي ضروري ، بمعنى ان استعادة الماضي تفترض مساءلة الوثيقة وبناء دلالاتها بتقديم فرضية عمل تمكن من قراءتها وتسمو بها الى مستوى الوثيقة الدالة، كما تسمو بالماضي ذاته الى مستوى الحدث التاريخي "[1] ، ومن هذا المنطلق يتبين لنا ان المؤرخ صار ينظر اليه في علم التاريخ على انه مثل المحقق الذي يبحث عن الادلة ويوثقها بأدلة ملموسة وواضحة للعيان ،عن طريق محاكاة الوثائق والتحقق منها ،والانطلاق من مجموعة فرضيات واضحة بها يبنى المؤرخ معارفه التاريخية ويمكن تعداد خطوات المؤرخ المنهجية التي يؤسس بها بناء التاريخ لتحقيق الموضوعية العلمية كما يلي:

1ـــ طرح الاشكاليات التاريخية:

يشترك البحث في علم التاريخ مع بقية العلوم الاخرى في الانطلاق من مشكلة تقود المؤرخ الى التأمل والتفكير لإيجاد البدائل او الحلول. ‘‘ويندرج الحديث عن الاشكالية في العمل التاريخي ضمن التطور النوعي الذي حققته المعرفة التاريخية من تاريخ حديثي يقوم على السرد والحكي الى

[1] ـــ الحسناوي ، عبد الرحيم ، النص التاريخي ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، د ،ط ،2011، ص 49

تاريخ اشكالي يقوم على الصياغة الاشكالية وذلك من خلال طرح أسئلة انتقائية على الماضي".[1] وبهذا فالسؤال في علم التاريخ يعتبر المحفز والمسلك الذي يحدد للباحث او المؤرخ منهجية لإيجاد التفسيرات ومما لا شك فيه ان الاسئلة الفرعية التي تنبثق من الاشكالية تساعد ايجاد تعليلات الظواهر التاريخية كما ان المؤرخ يجد نفسه يقوم بعملية تركيب تلقائية بناء على هذه الاسئلة.

2ـــ صياغة مجموعة من الفرضيات:

باتت الاشكالية في علم التاريخ الحديث ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها ،و ينجر عن طرح الاشكالية مجموعة من الاجوبة الممكنة الوقوع ويطلق على هذه الاجوبة الفرضيات، حيث يقول لوسيان فيفر" لا هندسة معمارية دون مشروع معماري ،ولا تاريخ دون فرضية عمل"[2]،وبهذا تكون الفرضيات تلك الخطط الثابتة المنطقية التي تجعل المؤرخ يرتب الحقائق وينقدها ليتبين الحادثة الصادقة من الحادثة الكاذبة، وعلى المؤرخ التوصل الى صياغة فرضيات التي تتماشى ومصادر معارفه التاريخية.

3ـــ جمع المادة التاريخية:

تقصد بالمادة التاريخية كل معلومة تتصل بالحادثة التاريخية ،من روايات شفوية ومخطوطات ،وسجلات، وثائق مدونة وشهود عيان، اذا بحث المؤرخ في حدث معاصر. "وتجدر الاشارة الى ان

[1] ـــ المرجع نفسه، ص 49

[2] ـــ غي تويليه، جان تولار ،صناعة المؤرخ ،ترد عادل العوا ،دار الكلمة للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق ،ط1،1999، ص33.

مهمة البحث عن الوثائق وايجادها ليست بالأمر الهين، ذلك ان عملية البحث عن هذه الوثائق قد تطول اما بسبب غنى وتنوع هذه الوثائق من جهة او بسبب صعوبة الحصول على هذه الوثائق او بسبب نذرتها او الوضعية التي تكون عليها هذه الوثائق"[1]، وفي الجهة المقابلة يجب على المؤرخ ان يكون ذا امكانيات هائلة من سعة الاطلاع وشمولية الثقافة والفكر.

4ـــ التعريف بالحوادث التاريخية:

جرت العادة لدى المؤرخين الأوائل تسمية الحوادث التاريخية استنادا المفاهيم ومصطلحات تاريخية ورثوها عن اسلافهم الذين اهتموا اما بكتابة التاريخ او روايته لكن الامر يختلف في العصور الحديثة بحيث اصبح ''اطلاق اسم على حادثة او مجموعة حوادث ليست بالأمر البسيط ، اذ كل شيء من فهم وتأويل وتفسير وحكم، يبدا بها وينتهي اليها قد يتلخص كل عمل المؤرخ في نعت الحدث"[2]، من هنا فعملية التعريف بالحادثة التاريخية تأتي من جراء عمليات فكرية يقوم بها المؤرخ من خلال المادة التاريخية المتوفرة لديه ، وترتكز هذه العمليات الفكرية بالأساس على نقد الوثائق.

التفسير التاريخي او التعليل التاريخي:

ان المهمة الاولى أو الغاية التي يسعى علم التاريخ لتحقيقها هي البحث عن العلل والاسباب في مسار حركة التاريخ ، لإيجاد تفسيرات لمختلف الوقائع التاريخية، لان فهم العلل يقتضي بالضرورة فهم تلك التغيرات التي تحدث في المجتمع.

[1] ـــ الحسناوي، عبد الرحيم، النص التاريخي 51،ص52

[2] ـــ المرجع نفسه، ص 52

التركيب التاريخي:

يعد التركيب التاريخي احدى اهم الخطوات الاساسية في كتابة التاريخ، بحيث ان هذه العملية تعتمد على عمليات فكرية مركبة، نقوم على بناء ذهني يدرس الوثائق بالاستدلال المنطقي ، ويسمى بعض المشتغلين على علم التاريخ وفلسفة التاريخ عملية التركيب التاريخي بالتالفة "وحسب تصور فلاسفة التاريخ هي تالفة علمية وموضوعية مقررة بالاستقراء المنهجي وليس بالتخمين مع ترك المجال مفتوحا الابداع البشري والتجديد اذ لا يوجد تاريخ نهائي لكل جيل يعيد قراءته ،ويعيد بناء الماضي انطلاقا من تساؤلات واشكاليات تدخل في اطار انشغالاته"[1].وبهذا فالتركيب التاريخي يهدف الى ربط الاحداث التاريخية ببعضها البعض، حينئذ يكون القارئ امام كتلة من الاحداث المتسلسلة فيميز بينها، بين الاسباب و الدوافع والنتائج والاثار المترتبة عنها، فالتمحيص في الوثائق والروايات يكون لأجل ربط الحدث التاريخي بإشكالية عامة جامعة ،"فمثلا لما يقرر انه سيطلق اسم ثورة على احداث وقعت في بلد ما، فهذا يعني انه عرف الاحداث ،وفككها وفسرها، وتوصل الى استنتاج مفاده ان تلك الاحداث ليست تمردا ولا انتفاضة ولا انقلابا وانما هي ثورة."[2]

يتوضح لنا مما سبق سرده من خطوات المؤرخ في العصور الحديثة، ان علم التاريخ منذ بداياته الاولى ارتبط بالمنهج لذا فإننا نجد ان المنهج التاريخي قد تأثر في مساره، بظروف تطور العلم وما كان يحدث في المجتمعات من ازمات سياسية وثقافية ودينية ،الامر الذي ادى الى ظهور التيار النقدي

[1] الحسناوي ،عبد الرحيم، النص التاريخي،ص54،ص55

[2] المرجع نفسه، ص55

الحديث "الذي اقام حدودا فاصلة بين تاريخ سردي حديثي و تاريخ اشكالي وتعتبر الوثيقة من بين وسائل البحث التاريخي التي طالها هذا التحول ،اذ لم تعد تقتصر فقط على ما هو مكتوب كما اعتقدت بذلك المدرسة الوضعية"[1]، فصار الاهتمام بالأدلة المرئية من مواد تاريخية وآثار ونقوش ،هذا من ناحية ،ومن ناحية اخرى اصبح البحث في باطن التاريخ لا يقوم على استنطاق الوثائق وحدها بالتمحيص والنقد وانما تعداها الى توظيف العلوم المساعدة في علم التاريخ، وهذا ساعد على ظهور التخصصات الجديدة في علم التاريخ. وبالتالي فالموضوعية العلمية في التاريخ صارت تتحدد بمجموعة من الاسس اولها المنهج الذي يعتمد المؤرخ وثانيها غزارة المادة التاريخية وثالثها ثقافة المؤرخ و انفتاحه على العلوم الاخرى.

قانون العودة التاريخية:

لقد ظهر مصطلح العودة التاريخية او الرجعة التاريخية، في فلسفة التاريخ الحديثة مع مطلع القرن السادس عشر وبالتحديد مع فيلسوف التاريخ الايطالي فيكو، وسنبين هذا لاحقا بالتفصيل، ولكن ما يجب الاشارة اليه انه كان اول من استعمل هذا القانون حيث رأى ان المجتمع او الدولة مثل الكائن الحي تم بمراحل وهذه المراحل هي دورة الحياة و بين النزعات الفلسفية التي آمنت بقانون الرجعة التاريخية النزعة الرومانيكية التي ترى "نظرة نحس فيها بحرارة الايمان الديني الذي يجعل للذات الالهية امر تحديد الغاية من الحياة...والغاية من الحياة سر من اسرار الله لا ينبغي لأحد ان يتطاول الى

[1] ــ المرجع نفسه، ص56

معرفة كنهه ،ان كل ما عليه هو ان يعمل حسب المشيئة الالاهية"[1].وبالتالي فالنزعة الرومانيكية تجعل التاريخ يرتبط بالمشيئة الإلاهية.

ينظر كانط هو الاخر الى مسار التاريخ، ضمن قانون العودة التاريخية، لكننا نجده، يربط دورة التاريخ بمجموعة من القواعد الاخلاقية وبعض القوانين الطبيعية "و يصبح التاريخ ذا معنى اذا ادرك على انه تقدم متواتر يفصح عنه العقل الانساني ،ولذا فقد آمن كنت بالتقدم وفاق القانون المنبعث من العقل وهذا لا يجنح بصاحبه كثيرا الى فكرة العودة التاريخية"[2].وهكذا يكون كانط قد سار في نظرته لصيرورة التاريخ الى مبدا العودة التاريخية والى جانب كانط نجد الفيلسوف هيجل الذي كانت له اسهامات كبيرة في فلسفة التاريخ ومن اهم كتاباته التاريخية "العقل في التاريخ "بحيث عالج في هذا الكتاب مسار التاريخ والطرق المختلفة التي يكتب بها التاريخ وحصرها في ثلاثة هي: "التاريخ الاصلي، والتاريخ النظري والتاريخ الفلسفي"[3] ، ويرى هيجل ان التاريخ يسير وفق نظام عقلي محكم، المرحلة الاولى عنده مرحلة الوضع، والثانية الوضع المضاد، والثالثة الوضع المركب و"الغاية بعد تطاول الاطوار وتكرار الادوار هو بلوغ الفكر المطلق او العقل وقد حقق نفسه تحقيقا

[1] ـــحجازي، محمد عبد الواحد، فلسفة التاريخ، دار الوفاء لدنيا النشر والتوزيع، ط1، 2014، ص163

[2] ـــ المرجع نفسه، ص164

[3] ـــ هيجل ،العقل في التاريخ المجلد الاول ،ص32

كاملا في الدولة..."[1]، وبهذا فهيجل يجعل التاريخ يدور وفق دورة طبيعية، والتي قدر فضها، وبالتالي فإننا نصنفه ضمن فلاسفة التاريخ الذين قالوا بالعودة التاريخية.

هكذا نجد ان فلاسفة التاريخ في الفلسفة الغربية الحديثة قد رأوا ان التاريخ يسير في دورات، لكن كل فيلسوف اقام لنفسه مبادئ وقوانين فسر من خلالها حركة التاريخ ،فقد رأى لامبرخت أن العصور التاريخية تسير في تعاقب متسلسل وكل حضارة من الحضارات تحكمها هذه الدورات والتي تسير حسبه وفق قانون عام تشترك فيه جميع الحضارات، و لامبرخت في حديثه عن العصور التاريخية لم يقصر الامر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فقط، بل لقد تعداها الى الحياة الفكرية والثقافية والدينية ككل فأي نظرية خاصة بخصائص العصور الحضارية وتقدمها في النواحي الاقتصادية والاجتماعية وحدها نقطة بدء لها على زعم ان هذه العناصر وحدها هي التي تقرر ذلك، بل يجب ان تحصل النظرية على مبادئها الخاصة بالتصنيف من الحياة العليا للعقل فإن العصور الحضارية تتحدد وتصنف بواسطة اصولها وليس بواسطة ثمارها"[2].

يقدم برغسون هو الآخر نظرته عن العودة التاريخية لكن من زاوية جديدة ،ويرد على الذين يقولون بان التاريخ يعيد نفسه بشيء من العقلانية والتبصر، فالإنسان يستطيع ان يتنبأ بالمستقبل هذا اذا جاءت عناصر الحاضر شبيهة بعناصر الماضي فالأسباب المتشابهة ينتج عنها نتائج متشابهة، في حين ان "التطور بصفة عامة يتم بقدر المستطاع على هيئة خط مستقيم في حين ان كل تطور خاص

[1] ــ حجازي ، محمد عبد الواحد، فلسفة التاريخ ،ص 165

[2] ــ المرجع نفسه، ص166

هو عملية دائرة فالكائنات الحية تدور حول نفسها."1.ومن الزاوية الاخرى نجد الفيلسوف المبدع نيتشه يؤمن بمبدأ العودة التاريخية بتبرير علمي فهو يشبه حياة الانسان بالساعة الروحية تذهب وتعود من جديد وهذه الدورة مليئة مرة بالألم ومرة بالفرح وهكذا والحياة عدد نيتشه تحكمها ثلاثة فروض :"فإما ان يكون هذا المجموع يزيد، واما ان يكون هذا المجموع ينقص، واما ان يكون هذا المجموع ثابت"2، اراد نيتشه من خلال هذه الفروض التي قال بها ان يفسر تكرار الظواهر بقانون العلية، فكل حدث تاريخي سيكون سببا لحدث تاريخي آخر، فكل حدث ما قبله وهكذا كما لا ننسى ايضا "برنرا ندرسل" والذي نرى انه قد وفق فعلا في تفسير العودة التاريخية تفسير علمي بعيد كل البعد عن الخرافة والاسطورة ولعل ما جعله ينجح في هذا الامر اتخاده "من الظواهر الاقتصادية العلمية وما بينها وبين الظواهر التاريخية من اختلاف :"من المصاعب التي تقف في سبيل البحث عن مثل هذه القوانين (القوانين العلمية)ان الظواهر فيها لا تكرر في التاريخ بنفس كثرة تكرارها في الفلك"3.

يجدر الاشارة الى ان القول بالعودة التاريخية هذا المصطلح الجديد دفع بعلم التاريخ الى الامام حيث قدمت عديد النظريات التاريخية التي قدمت دلالات علمية تتعلق بدورات التاريخ، هكذا صار

[1] ــ المرجع نفسه، ص 168
[2] ــ المرجع نفسه ،ص 170
[3] ــ المرجع نفسه، ص 173

البحث في التاريخ يتخذ منعرج أكثر علمية وأكثر دقة وبالتالي فالوصول إلى العلمية في التأريخ أصبحت مطلب سهل المنال.

إن كتاب فيكو العلم الجديد يحمل الكثير من الأفكار الفلسفية و التاريخية، و لا أحد ينكر أن هذا الكتاب الضخم قد أرخ لتاريخ الحضارة البشرية بالرغم مما يحمله في بعض الأحيان من تعصب ديني في حق الحضارات المصرية ،و البابلية ،و الهندية أضف إلى ذلك أن الأسلوب الذي كتب به كان أسلوبا غامضا و معقدا يجعل القارئ في حيرة من أمره، فالمادة التاريخية لدى فيكو موجودة بكثافة و تشمل الفنون و العلوم على إختلافها فهو أرخ للحضارة البشرية و الحديث عن الحضارة البشرية ، يتصل بجميع مناحي الحياة لكن أفكار فيكو لم تكن واضحة بل كان يشوبها الغموض و التعقيد فلم يستطع المؤرخون و الفلاسفة الذين عاصروه فهم فلسفته و منهجه لذا مرت سنوات طويلة إلى أن تم إكتشاف منهج فيكو على حقيقته على يد نخبة من العلماء و المؤرخين و مختصين في علم الإجتماع.

فكرة التقدم أو التطور:

عالج فيكو مبدأ التقدم أو التطور في كتابه العلم الجديد بصورة أكثر عمقا ،ذلك أن التنظيمات البشرية في تطور من عصر لآخر و لكن يجب أن نبين كيف فهم فيكو التقدم ؟هل تصوره عن التقدم مثل فلاسفة عصر التنوير؟ أم أنه مختلف؟

لقد كان فيكو ذا تفكير ديني و أبدى وفاءه و اخلاصه للديانة المسيحية ،و قد أثر هذا الأمر على أفكاره و فلسفته التاريخية ففيكو كما سبق و ذكرنا يقر بأن الإنسان يصنع تاريخه بنفسه، كما يؤكد أيضا في نفس الوقت يؤكد بتدخل العناية الإلهية في مسار التاريخ و بالتالي فهو يرى أن التاريخ من دون غاية ، لأن فكرة العناية الإلهية حسب إعتقاد فيكو لا يمكن البرهنة عليها لأنها في نظره "هي االتي جعلت مسار التاريخ على ماهو عليه فقد كانت العناية الإلهية وراء كل الأحداث التاريخية فهي التي جعلت البشرية تنزلق في البداية في مزالق الشر و البربرية و تعيش عصورا مظلمة كلها صراعات بين الحق و الباطل ، حتى تمهد لانبثاق نظام جديد للبشرية و هذا النظام هو تأسيس الدين المسيحي ، الذي منه تشع سعادة الحياة الإنسانية و العناية الإلهية لا تنشغل فحسب بما يتكون منه العالم الطبيعي الذي يجعل التاريخ ممكنا و لكنها تهتم أيضا بصفة التاريخ نفسه بوصفه منطويا على مثل أعلى للحياة يتخذه الناس"[1]، يتوضح لنا جليا أن فيكو يصرح بدور الإنسان في التاريخ لكنه يجعل هذا الدور محدودا حين يقول أن العناية الإلهية تتدخل لتوجه البشر إلى الخير و دروب النجاة، إلا أننا عندما نتمعن في معالجته لفكرة التقدم نجده يعالجها بأسلوب المتعمق و المتأمل و هي الفكرة ذاتها التي نقلت عنه، و قدمت بأشكال أخرى في عصر التنوير و يمثل رواد عصر التنوير فلاسفة التاريخ و على رأسهم "فولتير"،"مونتسيكو"،"إدوارد جيبون"و"كوندورسيه".

[1] النشارمصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، ص180، 181.

أعاد رواد فلسفة التنوير إكتشاف فكرة التقدم في التاريخ، و هي الفكرة ذاتها التي اشتغل عليها فيكو و اكتملت في شكل نظرية التقدم على أيديهم "و أصحاب هذه النظرية يرون أن النظم الإجتماعية و المجتمعات الإنسانية ذاتها تقدمت أو هي تتقدم بالضرورة من حالة التأخر و البدائية إلى التحضر والتمدين مرورا بمراحل معينة يختلف عددها و خصائصها من عالم لآخر و لكنها تتفق كلها في أن المرحلة اللاحقة فيها تكون أعلى من السابقة و أكثر منها رقيا و تقدما كما أنها تهيء الفرصة لقيام مرحلة أرقى منها هي ذاتها "[1]و بالتالي فهذا التشابه الموجود من نظرية التقدم بين فيكو و فلاسفة عصر التنوير هو تأثر واضح بآراء فيكو حول التطور و التقدم، و إن لم يصرحوا بهذا التأثر علنا، أضف إلى ذلك أن الروح العلمية التي أردوا إبرازها في علم التاريخ من خلال قولهم بأن مسار التاريخ يمكن تفسيره و تعليله بجملة من القوانين، حيث أكدوا أن المجتمعات البشرية تنتقل من البدائية إلى التحضر و المدنية و كل مرحلة تمهد للمرحلة التي بعدها، و هو الأمر نفسه الذي رآه فيكو و أطلق عليه قانون الحالات الثلاثة لكن الإختلاف بينهم يظهر في أن فيكو يضع حدودا للتقدم بمعنى آخر أن المجتتمع يشبه الكائن البيولوجي ، يمر بمراحل النشأة و النمو و الشباب و الشيخوخة و الموت ، في حين أن فلاسفة التنوير يجعلون التقدم إلى ما لا نهاية ذلك "أن الكائنات الحية ارتقت و تقدمت بحيث وصل الأمر بها في النهاية إلى ظهور الإنسان الذي يمثل قمة التطور البيولوجي و الذي هو في الوقت ذاته يقود الخلائق الأخرى باعتباره أعلاها و أسماها جميعا، كذلك

[1] الشيخ رأفت غنيمي، فلسفة التاريخ، ص98.

تطور المجتمع من مراحل الجمع و الصيد إلى مرحلة الصناعة التي تمثل أرقى أشكال النشاط الإقتصادي و أكثرها تعقيدا"[1].

لقد كان العلم الجديد لفيكو بالرغم مما يحمله أحيانا من غموض و إلتباس نقطة الإنطلاق الأولى لفلسفة التاريخ ، ذلك أنه دعا إلى إعادة النظر في الوقائع التاريخية ببعد النظر و التأمل و الإعتماد على النقد و التحليل لتفسير حركة مسار التاريخ، و قد خدمت هذه المبادئ كلها علم التاريخ فظهرت إلى الوجود نظرية التقدم في عصر التنوير، و هي ليست بنظرية جديدة مبتدعة في علم التاريخ فقبل أن يطرقها رواد التنوير طرقها فيكو وقبل فيكو بنحو ثلاثة قرون طرقها فيلسوف العرب ابن خلدون.

لقد كان فيكو سابق لعصره في تداوله لفكرة التقدم ، و الدليل على هذا أن التقدم المبهر الذي حققه العقل الإنساني من إختراعات و إكتشافات، حققت للإنسان الرفاهية و سهلت له طرق العيش في جوانب كثيرة من حياته ، لكننا نجد في الجهة المقابلة واقع إنساني آخر فلازالت البشرية تعيش في صراعات وحروب دامية و لا وجود للسلام الأبدي ، كما رسم ذلك فلاسفة التنوير و ربما و لوكان فيكو موجودا في هذا العصر لسمى هذه المرحلة بعودة البشرية المتطورة إلى الهمجية من جديد. إذن فقد صدق فيكو حين رأى أن الطبيعة البشرية تتغير و تتأثر بالظروف المحيطة بها.

[1] المرجع نفسه، ص98، 99.

تأثيرات فيكو في الفكر الإيطالي:

لم يكن فيكو ذاك المفكر المعروف في عصره و في بلده إيطاليا ، حيث لم يتم التعرف على فلسفته التاريخية إلى غاية القرن التاسع عشر، كما أنه قام بإهداء كتابه العلم الجديد لزعماء و أمراء فلم يلقى هذا الكتاب سوى التجاهل بالرغم من غزارة المادة المعرفية و قوة المنهج، و هنا نتساءل ما سبب هذا التجاهل الذي لاقه فيكو حتى في مسقط رأسه نابولي؟.

جاء فيكو بأفكار جديدة و بآراء فلسفية جريئة، لكن هذه الأفكار لم تكن منظمة وواضحة في نسق فكري متجانس ، كما طغى عليها الغموض و التحفظ في كثير من الأحيان "ففي القرن الذي تلا وفاته عبر مفكرون آخرون عن أفكار مشابهة لأفكاره تعبيرا أفضل دون أن يذكره أحد إذ جنى عليه غموض أفكاره و صعوبة أسلوبه و غزارة التفاصيل المرهقة التي حشد بها فلسفته و لهذا لم يفطن معظم شراحه إلى أصالة آرائه و تفردها حتى في عصره"[1].

و بالتالي فالغاية التي قدمها العلم الجديد للفكر الفلسفي و التاريخي لم تصل بالصورة التي أراد فيكو إيصالها هذا من جهة، و من جهة لا يمكن إنكار بأي حال من الأحوال أن التصورات التي عرفها المنهج التاريخي في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر أين جعلت للتاريخ منهج ذو أسس و معالم واضحة يتحدد بجملة من القواعد و القوانين يلتزم بها المؤرخ ، قصد بلوغ اليقين العلمي هي نفس القوانين التي تحدث عنها فيكو و في هذا المقام يقول بول هازار "هذا الرجل الذي كان من

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص203.

الممكن أن يمنح نهر العصر مجرى جديدا، عبثا حاول فيكو أن يتجه إلى العلماء و إلى مواطنيه النابوليين و لكن أوروبا بقيت صماء و أولها إيطاليا لم تسمع هذه الدعوة و لم تقبل إلا فيما بعد فقط أما في آونتها فقد ظلت بلا صدى لأن هذا المجدد لم يكن له تلاميذ و لأن فكره كان بلا عمل بل إن عشيرته نفسها لم تكن لتستجيب له"[1].

لقد بدأ الإهتمام بفيكو في إيطاليا مع أواخر القرن الثامن عشر ، حيث بدأت تظهر إلى الساحة سلسلة من الطبعات لكتابه العلم الجديد، ومن بين أول الفلاسفة الذين اهتموا بفكر فيكو "كيوكوcuoco " و هكذا تعرفت الساحة الفكرية الإيطالية على فلسفة فيكو و اعترفت بمقدرته الفكرية و باستباقية أفكاره لعصره، لكن شراح فيكو لم يقدموا الصورة الحقيقة لفلسفته التاريخية فقد وقعوا في مغالطات كثيرة في تبيان العديد من أفكاره لذا فقد تعددت الآراء حول فلسفته بين مدعمين و رافضين ، و من بين الأفكار التي انتقد فيها رأيه حول أصول الشعوب الأولى و التي رأى أن طبيعتها وحشية و همجية ، كما رأوا أن أفكاره الدينية تزكي سلطة الكنيسة لم ينصف ذلك الإنصاف الذي يليق بحجم كتابه العلم الجديد.

في بداية القرن العشرين ظهر الفيلسوف "كروتشه groce" و الذي أبدى اهتماما بالغا بفلسفة فيكو و بفضله تم التعرف على فيكو خارج إيطاليا ، بوجه جديد حيث قدم كتابا عن فلسفة فيكو عام 1911 و في نفس السنة أصدر كتابا يتناول السيرة الذاتية لفيكو.

[1] هازار بول، الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، ج1، تر: محمد غلاب، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، د.ط1959، ص49.

رأى كروتشه أن فيكو هو مكتشف علم "الإستاطيقا"قبل باومجارتن، وإذا كانت كلمة الإستاطيقا نفسها لم ترد على لسانه فقد نطقت بها آراءه عن الشعر و فكرته أساسية عن الطبيعة البشرية التي هي بالفطرة طبيعة شاعرية و إيمانه العميق بأن أول شكل من أشكال التفكير كما ظهر عند الإنسان البدائي كان هو التفكير بالصور الخيالية الشعرية "[1].

كان من بين الفلاسفة الإيطالين الذين أعادوا صورة فيكو الحقيقية خاصة بعد أن اتهم بأنه من الرواد الذين بشروا بالفاشية ، ذلك أنه رأى في كتابه العلم الجديد أن النظام الملكي هو أصلح الأنظمة و أعدلها ، و هنا لم يفهم المفكرون وجهة نظر فيكو حول النظام الأنسب فهو اعتقد أن النظام الذي يحرص على خدمة شعبه بعدل و إخلاص هو النظام الملكي،هنا وقف الفيلسوف الإيطالي "نيكوليني" و قفة نزيهة مع فكر فيكو بعيدا عن أي توجهات مذهبية و قد حدا حدوه كل من الفيلسوفين "فيش fish" و "برجين bergin" حيث قاما بترجمة كتابه العلم الجديد و السيرة الذاتية التي كتبها فيكو عن نفسه.

لقد أنكر الكثير من الفلاسفة عدم معرفتهم بمنهج فيكو التاريخي و فلسفته ، إلا فيش و برغين وفقا بشكل كبير في التعريف بفلسفته ، خصوصا بعد الترجمة مما سمح لعديد المثقفين و علماء الفكر الإطلاع على كتابه العلم الجديد من خارج إيطاليا.

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص204.

فلسفة التاريخ مابعد فيكو .

عرف الفكر الغربي مع مطلع القرن العشرين ثورة فكرية ، صارت ترفض الميتافيزيقاو تدخل الدين، إهتمت أكثر بالعلوم من الفلك و الطبيعة و الكيمياء و الطب هذه الثورة العلمية كانت تسعى إلى التجديد في مناهج العلوم للوصول إلى الحقيقة العلمية، وهكذا كان الإهتمام بدراسة التاريخ أولى المظاهر التي تهتم بتفكير الإنسان لأن الماضي سجل حي يقدم تجارب و خبرات سابقة تنير لنا دروب الحاضر، و تمكننا من التنبؤ لأحوال المستقبل "إن التاريخ الحق هو تاريخ العلم لأنه يكشف عن تقدم العقل البشري و من ثم يجب أن يكون شغلنا في التاريخ أن نتتبع الإكتشافات منذ اكتشاف الخوارزمي للجبر إلى آخر منجزات عصرنا إن وحدة دراسة التاريخ هي الحضارة لا الشخص الحاكم"[1] و بالتالي فإن هذه النظرة للتاريخ في الفلسفة الغربية الحديثة ليست بجديدة ففيكو كان هدفه من العلم الجديد هو جعل التاريخ علم يتقصى مراحل التطور البشري.؟

نقد الكثير من الدراسات الفلسفية حول علم التاريخ أن فيكو هو الذي ترجع إليه فكرة وجود أو إمكان وجود علم إنساني يكون مرآة للعقل و سجلا لتطور الإنسان في الآن نفسه"[2]و الدليل على هذا ما احتواه العلم الجديد من تنظيرات للمجتمع البشري ، و التي في رأينا كانت من البذور الأولى لنشأة فلسفة التاريخ على أن الصياغة لها كمصطلح كانت على يد الفيلسوف

[1] صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط3، 1994، ص85.

[2] قنصوة صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، ص41.

الفرنسي فولتير، و إذا كان فولتير يرى أن فلسفة التاريخ ذلك التحليل الذي يعتمد على النقد لحوادث التاريخ فإن فيكو بهذا يكون قد سبقه في وضع الأسس و القواعد الأولى لفلسفة التاريخ.

مهما حاول الفكر الغربي الحديث إنكار دور فيكو الأصيل في فلسفة التاريخ ، إلا أن كتاب العلم الجديد و بفضل شراحه والمشتغلين على تفسيره قد برهنوا على أسبقيته و ريادته في هذه الفلسفة لانه كشف لنا عن مغاط المؤرخين كما حاول تبيان الطرق التي نتحقق بها من صحة الوقائع التاريخية ، كما حاول أيضا تطوير المنهج التاريخي بغية تحقيق الموضوعية العلمية متأثرا بمنهج العلوم الطبيعية.

إن عدم إنصاف فلسفة فيكو يعود بالضرورة إلى ذلك الإطلاع السطحي على كتابه العلم الجديد ، دون التعمق في أفكاره و محاولة فهمها ، و في هذا القبيل نجد من الألمان الذين اطلعوا على الكتاب بصورة سطحية فقط نجد المفكر "هامان" الذي بحث في الإقتصاد و السياسة و قد اطلع على كتاب العلم الجديد ، و في ظنه أنه سيجد ضالته فيه أي نظريات حول الإقتصاد ، و انما وجده يتطرق إلى اللغة و تطورها و هذه وجهة نظر هامان حول الكتاب و في اعتقادنا أنه توصل إلى هذه النظرة لعدم تعمقه و تأمله لأفكار فيكو.

و من الألمان أيضا الذين اطلعوا على العلم الجديد شاعر ألمانيا "جوته" وقد وصل إليه العلم الجديد عن طريق هدية من أحد أصدقائه الإيطاليين "ولكنه لم يبذل جهدا حقيقيا في قراءته، وقد كتب عن فيكو سطورا لا تدل على أنه عرفه على حقيقته أو بذل جهدا في الإطلاع على الكتاب

فقد وصفه بأنه مؤلف عميق لا يسيرغوره و أن رجال القانون في إيطاليا يرجعون إليه بحماس شديد و يعتبرونه أباهم الأكبر"[1] .

ترجم كتاب العلم الجديد إلى اللغة الألمانية عام 1822م على يد "ف.ا.فيبر" "w,E ,weber" وتم إعادة طبعه عام 1922م و من الفلاسفة الألمان الذين اطلعوا على فلسفة فيكو هردر الذي له مؤلف بعنوان "أفكار عن فلسفة تاريخ الجنس البشري" و مؤلف آخر "فلسفة أخرى للتاريخ" و قد تأثر هردر بفلسفة فيكو التاريخية ، و نهل منه أفكاره الفلسفية حول أصل الجنس البشري و تطوره و قانون الحالات الثلاث، أي نظرية الرجعة أو العودة التاريخية إلا أن هردر رأى "أن التطور التاريخي يمر بمراحل أربع، هي نفس المراحل التي يمر بها تطور الفرد و هي: الطفولة، الشباب، الكهولة، وأخيرا الشيخوخة، وهذه المراحل الأربع تتابع بشكل دوري متصل فكل دورة منها تفضي إلى الأخرى أي أن التطور لا يسير في خط مستقيم بل في خط دائري، وهناك تشابه في بعض المراحل التاريخية المتماثلة إلا أنه ليس تشابها مطلقا"[2]و لم يتأثر فيكو بقانون العودة التاريخية فقط بل لقد قال هردر هو الآخر بدور العناية الإلهية في التاريخ ففي رأي هردر أن العناية الإلهية توجه التاريخ لما هو خير للجنس البشري.

نجد أيضا من الفرنسيين الذين تأثروا بفلسفة فيكو "مونتسكيو" صاحب كتاب"روح القوانين" و قد زار إيطاليا عام 1728، و تمكن حينها من الحصول على نسخة من كتاب العلم الجديد لفيكو

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص207.
[2] المرجع نفسه، ص210.

، و كان كتابه روح القوانين لم يتم إصداره بعد، و من ثمة فقد اطلع على الكتاب و الدليل على هذا أن هناك تشابه كبير بين فلسفتهما التاريخية فمونتسكيو هو الآخر يرى أن "العوامل التي تشكل قوانين الدولة و شكل الحكومة و شخصية الأمة فيردها إلى عوامل إما مادية طبيعية أو معنوية اجتماعية أما العوامل الطبيعية فهي عوامل جغرافية يوليها مونتسكيو اهتماما إلى حد أن اعتبرها أغلب الباحثين أهم ما يميز مؤلفه الضخم"[1] و هكذا يكون كلاهما قد حاول إخضاع علم التاريخ لقوانين طبيعية و معنوية و في إعتقادنا بالرغم من عدم إعتراف مونتسكيو بتأثره بالمنهج التاريخي لفيكو إلاأن أفكار التي جاءت في كتاب روح القوانين تدل على عكس هذا.

في مقابل هؤلاء الفلاسفة الذين اطلعوا على العلم الجديد و لكنهم لم يعترفوا بتأثير فيكو ، نجد الفيلسوف الفرنسي ميشليه الذي يقر و يعترف بتأثره المباشر و بفضل فيكو في الفلسفة التاريخية حيث يقول: (ليس لي أستاذ غير فيكو) لقد اكتشفه ميشليه في يناير 1824 أثناء قراءته لأحد الكتب المترجمة ووجد فيه جزءا عن فيكو شجعه على معرفة المزيد عنه و في يوليو من العام نفسه تعلم ميشليه الإيطالية ليطلع على النص الأصلي "[2] ومن أهم أفكار فيكو التي اقتبسها ميشليه عنه الطبيعة البشرية و مراحل تطورها و بها حاول تفسير تاريخ فرنسا كما قام ميشليه بترجمة أجزاء من العلم الجديد عام 1824،و تم إعادة طبع هذه الترجمة عام 1835م و بالتالي فإن الفضل يعود لميشليه ذلك أنه جعل أوروبا تتعرف على فيكو بصورة أكثر إنصافا و أكثر موضوعية .

[1] صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، ص84.

[2] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص216.

تأثرت النزعة الوضعية الفرنسية بالعلم الجديد و على رأسهم "أوغست كونت" الذي تحمل فلسفته "شبه مع تفكير فيكو" الذي كان كونت قد درسه فهو يستمد من فيكو فكرة أولوية التاريخ في أمور البشر كما أمده هذا المصدر بفكرة المراحل المختلفة في التطورالتاريخي للمجتمع البشري و كان فيكوذاته قد استمد ملاحظته هذه من دراسة للأساطير اليونانية و قد أخذ كونت بالرأي القائل إن المجتمع ينتقل من حالة لاهوتية أصلية مارا بمرحلة ميتافيزيقية لينتقل أخيرا إلى ما يسميه بالمرحلة الوضعية التي تنتقل بالمسار التاريخي إلى نهايته السعيدة"[1]و بالتالي فتأثير فيكو واضح على فلسفة أوغست كونت فالإثنان يقولان بقانون المراحل الثلاث لتطور المجتمع البشري ففيكو المراحل الثلاث تبدأ بالمرحلة الدينية وتليها المرحلة البطولية و أخيرا المرحلة البشرية، و هي المراحل نفسها عند أغست كونت و قد أسماها بقانون الأحوال الثلاث و يبدأ هذا القانون بالمرحلة اللاهوتية بعدها المرحلة الميتافيزيقية تليها أخيرا المرحلة العلمية و قد خلص أوغست كونت أنه من خلال قانون الأحوال الثلاثة يمكن تتبع تقدم المجتمع البشري إذ الحالة الأولى أي المرحلة اللاهوتية لجأ فيها الإنسان إلى تفسير مظاهر الطبيعة تفسير غيبي و جعلها هي الآلهة، الحالة الثانية و هي المرحلة الميتافيزيقية تقابل عند فيكو المرحلة البطولية و هنا و هنا اعتمد الإنسان على تفسير الظواهر بإيحاءات مجردة أو بمعنى آخر ميتافيزيقية تأتي أخيرا الحالة الثالثة و هي المرحلة العلمية و التي هي عند فيكو المرحلة البشرية و في هذه المرحلة أصبح الإنسان يفسر الظواهر الطبيعية تفسيرا علميا عن طريق و أسباب

[1] رسل برتراند، الفلسفة الحديثة، حكمة الغرب، ج2، ص237، 238.

تتحكم في حدوث الظواهر الطبيعية و أوغست هو الآخر شبه المجتمع البشري بكائن بيولوجي يمر عبر مراحل: الطفولة، الشباب، النضج.

يتبين لنا ان أوغست كونت لم يكن هو مبتدع قانون الأحوال الثلاثة لأن هذه الفكرة ليست بالجديدة ففيكو سبقه إليها، و تناولها بصفة معمقة فتناول المجتمعات البشرية منفردة عكس أوغست كونت الذي تناول المجتمعات البشرية بأسلوب مجرد يطغى عليه التعميم ، أضف إلى ذلك أن فيكو اهتم بدراسة الظواهر الحضارية على اختلافها لأنه ليس هناك مجتمع إنساني ، بل مجتمعات إنسانية هذا الأمر الذي غاب في فكر أوغست كونت.

تأثير فيكو في الفكر الماركسي:

لقد استمد كارل ماركس مفهومه عن التاريخ من نظرية فيكو في التقدم و قد أكد هذا الأمر "بول لافاش" في كتابه "الحتمية الإقتصادية و المنهج التاريخي عند كارل ماركس" و يظهر تأثير فكو على التيار الماركسي في الفكرة التي ترى أن الإنسان هو صانع تاريخه بنفسه ،حيث يرى كارل ماركس "أن الطبيعة هي المنبع الذي تشتق منه بيئة التاريخ و هي التي أملت ضرورات منها الظاهر و منها الكامن فأيقضت العقل و نشطته ليأخذ في تعمير عالم الطبيعة و فهم أسرارها"[1] و بالتالي فإن المادية التاريخية من أولى الأسس التي اعتمدت عليها نظرية المعرفة عند فيكو التي تقول أن الإنسان

[1] الشيخ رأفت غنيمي، فلسفة التاريخ، ص157.

هو الذي يصنع تاريخه بنفسه ، و لا يمكنه أن يعرف إلا ما يصنع و هذه الفكرة في حقيقة الأمر تؤسس لفلسفة العمل وهي القاعدة الأولى المؤسسة للمادية التاريخية.

إن فيكو في حديثه عن التنظيمات الإقتصادية تعمق بجدية في نشأتها و تكونها، فالمجتمعات البشرية تتميز بالطبقية أي في نشأتها فظهر في البداية العبيد و النبلاء بعدها تطور المجتمع إلى مجتمع إقطاعي و بعد مدة زمنية عرف العبيد حقوقهم فتمردوا ، و هكذا ظهرت الحكومات الأرستقراطية و أشكال الحكم، ومن هذا الأساس رأى فيكو أن النظام الإقتصادي أساس النظام السياسي و في هذه الفكرة يشترك مع كل من كارل ماركس و أنجلز "هي أن التاريخ محكوم على الدوام بقوانين خفية و هذه القوانين تكون في آخر المطاف قوانين اقتصادية و هو ما يقود إلى حتمية تاريخية"[1] و بهذا فالتيار الماركسي هو الآخر على غرار فيكو رأى أن المتغيرات التي تلحق بالجنس البشري على جميع المستويات الأخلاقية و السياسية هي التي تحدد طبيعة النظام الإقتصادي فيجب أن يكون هناك الإنسجام بين النظم الإجتماعية و الإقتصادية ، و إذا وقع الخلل أو عدم التلاؤم بين النظم الإجتماعية و الإقتصادية هذا سيؤدي بالضرورة إلى التمرد و العصيان المدني ، الذي ينجر عنه في الأخير ثورة كعمل تصحيحي لهذه الأنظمة.

كانت هذه أهم التيارات التي تأثرت بمنهج فيكو التاريخي في الفكر الفلسفي الغربي الحديث ، و إن لم يعترف غالبية الفلاسفة بتأثرهم بفلسفة فيكو إلا أن مذاهبهم و مناهجهم تلمس فيها التأثر

[1] أبو السعود عطيات محمد، فلسفة التاريخ عند فيكو، ص223.

وما جاءوا به من تنظيرات حول التنظيمات الإجتماعية و أسسها ، إنما هو مجرد تطوير لأفكار فيكو و محاكاة لمنهجه التاريخي وهنا يجب أن نشير إلى أمر مهم، و هو أن فيكو لم يتم إنصافه بعد من طرف الفكر الفلسفي لأن جل الذين نهلوا من أفكاره و تشبعوا بها لم يعطوا لهذا الرجل الفيلسوف مكانته الفكرية الحقيقية، و بالتالي فكتاب العلم الجديد يحتاج إلى ترجمات أخرى ليكون أكثر مقربة من الباحثينو حتى يتسنى لهم شرح مذهبه الفكري و فلسفته التاريخية.

.

الخـــــــاتمة

الخاتمة:

عندما درسنا ووقفنا بالتحليل عند فكر "فيكو" التاريخي اكتشفنا بأنه ليس فكرا انتقائي بل تميز بالموسوعية والنقد حيث انتقد منهج المعارف التاريخية وحتى الاجتماعية السائدة في عصره وحاول تجسيد نوعا من القطيعة المعرفية مع بعض مستويات أنماط التفكير التاريخي فكان بذلك من بين المؤسسين الأوائل لفلسفة التاريخ وكانت مقتضيات التاريخ عنده هي النظر والتدقيق في معانيه وقضاياه الجوهرية.

تميز كتابه "العلم الجديد" بمجموعة من القيم والخصائص لعل أبرزها الإبداع والدقة والنقد والتجاوز المعرفي خاصة عندما تعامل مع المفاهيم العلمية والتاريخية السائدة في عصره والموروث الثقافي والاجتماعي والفلسفي للحضارة المصرية والإغريقية وحضارة العصور الوسطى، كما ساهم "العلم الجديد" عنده في تطوير الفلسفة الاجتماعية لأنه اعتمد على التنظيمات الاجتماعية مثل الدين، والزواج، ودفن الموتى، ففي نظره فإن كل الأمم تشترك في هذه المبادئ والتي يمكن استخلاص منها قيم لدراسة الأنتروبولوجيا والتشريع والقانون، وساهم أيضا في تقديم المبادئ الأولية للفلسفة السياسية التي تدرس أسباب وظروف قيام الدول وتطورها وأسباب زوالها، وما يتوجب علينا توضيحه هو أن "فيكو" توصل إلى العلم الجديد بعد اطلاعه على التواريخ والفلسفات القديمة والسابقة عليه.

لقد اهتم "فيكو" بدراسة التحولات الاجتماعية والثقافية التي تكرر حدوثها عبر الازمنة المتعاقبة وهو في ذلك صاحب اتجاه جديد متحرر بشكل نسبي من بعض القيود في فهم وتحليل

الظواهر الثقافية والاجتماعية وكان منهجه قائم على دراسته المتزامنة في الحياة الاجتماعية بالإضافة إلى الاهتمام بالأحداث التاريخية المتسقة والمتناسقة. كان "فيكو" وبالرغم من الظروف الاجتماعية والثقافية التي عايشها ،جريئا في الإجابة عن أسئلة معقدة مرتبطة بالراهن الاجتماعي والثقافي الإيطالي والأوروبي وحتى العالمي الكوني وجعله جوهرا للقراءة والنقد والتمحيص.

لا يمكن إنكار دور "فيكو" في إخراج علم التاريخ من تبعية المطلقة للدين والخرافة، حيث انه تأثر بالمنهج التجريبي ل "فرنسيس بيكون" ، واهتم بتطبيق علم التاريخ، حيث عدد الأوهام التي يقع المؤرخون فيها وكيف تحول دون الوصول إلى الحقيقة التاريخية، لقد غير "فيكو" تلك النظرة القديمة للتاريخ التي كانت تعتبره ذلك السجل الحافل بالبطولات والمعارك وسير الملوك والأمراء ،بحيث أصبح التاريخ يدرس نشأة وتطور الحضارات ومختلف التنظيمات الاجتماعية، ولعل أهم قانون في نظريته التاريخية هو قانون تطور الأمم الذي استنتجه من دراسته للحضارة المصرية من خلال ثلاث مراحل وهي: المرحلة الإلهية والبطولية ثم البشرية، وهذه المراحل تعود بصورة مختلفة في دورات تاريخية متعاقبة، وهذا ما يسمى بالرجعة التاريخية.

لقد اعتبر "فيكو" بأن الانسان هو محرك للتاريخ وصانعه ولكن بدعم من العناية الإلهية، حيث كان يؤمن بالحتمية الطبيعية في حركة مسار التاريخ الانساني غير أنه اعتقد في ضرورة ووجوب تدخل قوي مقدسة في صورة الله لبداية تلك الحركة وصيرورتها وأثناء ذلك يتقدم التاريخ في صور مختلفة وذلك وفقا لنواميس الطبيعة.

وبعد هذه القراءة والتحليل والنتائج المتوصل إليها مع بعض صور النقد الذي وقفنا عنده حول النظرية التاريخية والمنهج عند "فيكو"، هل يمكننا القول بأن "فيكو" تجاوز النظرية التاريخية عند الإغريق وعند "ابن خلدون" و "ماكيا فيلي" في معالجة وتحليل ودراسة قضايا التاريخ في صورتها الكلية والجزئية، وهل يكون "فيكو" من خلال منهجه قد مهد لـــ "كانط" من خلال كتاباته التاريخية ولـــ "فولتير" في كتابه "عادات وروح الأمم" الذي وضعه سنة 1745 م ولـــ: "آن روبرت نيرجو" الذي وضع دراسة لتطور التاريخ الإنساني سنة 1750 م ،و لـــ "مونتسكيو" في كتابه "روح القوانين" الذي وضعه سنة 1748 م، حيث أشار من خلاله للمراحل التطورية الكبرى للتاريخ ولـــ :"كوندورسي" الذي حاول وضع تصور عام مع تحليل منهجي تاريخي لتقدم وتطور الإنسان عبر مجموعة من المراحل، هل يكون قد مهد بكل هؤلاء لدراسة الاشكاليات الكبرى لفلسفة التاريخ.

إنا الفكر التاريخي عند "فيكو" يحتاج منا إلى قراءة جديدة وتأويل فلسفي تاريخي عميق ومضاعف في المجهود يسمح لنا بالتعرف أكثر على منهجه في تفسير حركة التاريخ ومعانيه المتعددة ويجعلنا نبتعد عن ميتافيزيقا الكتابة التاريخية عنده، إننا بهذه التساؤلات نفتح آفاقا جديدة لدراسة الفكر التاريخي الفلسفي عند فيكو.

الأعلام :

رينيه ديكارت :

فيلسوف فيزيائي ورياضي فرنسي، لقب بأب الفلسفة الحديثة، ولد في 31 مارس 1596 بفرنسا، وتوفي 11 فبراير 1650 بالسويد، أهم مؤلفاته: مقال عن المنهج، علم الهندسة، تأملات في الفلسفة الأولى ، مبادئ الفلسفة، العالم قواعد لتوجيه التفكير.

هوبر :

توماس هوبر عالم رياضيات وفيلسوف انجليزي وهو أهم فلاسفة القرن 17م، اشتغل بالقانون ولد في 5 أفريل 1588م وتوفي 4 ديسمبر 1679م، أهم مؤلفاته : اللفياثان (الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة أو اللفياثان)، ويعتبر مؤسس العقد الإجتماعي .

إقليدس :

غقليدس بن نوقطرس بن برنيقس الإسكندري، ولد 300 ق.م، هو يوناني، عالم رياضيات، يلقب بأبو الهندسة، توفي بالإسكندرية، مصر، أهم مؤلفاته. مخطوطة العناصر باللغة اليونانية حوالي 100 ق.م.

أوغست كونت : (1791 ــ 1857)

فيلسوف فرنسي، مؤسس الوضعية، له كتاب "خطبة للمؤلفات العلمية اللازمة لإعادة تنظيم المجتمع"، وهو يحتوي على الغالبية العظمى من أفكار في فلسفته في صورتها المكتملة.

نشرت محاضراته في ستة أجزاء بعنوان "محاضرات في الفلسفة الوضعية"، ومن مؤلفاته "تعاليم الدين الوضعي" وأربع مجلدات تحمل عنوان "نظام الحكم الوضعي".

الطبري:

محمد بن جرير، مؤرخ ومفسر، ولد في آمل في طبرستان واستوطن بغداد (224 ــ 310 ه) (839 ــ 923) من مؤلفاته "جامع البيان في تفسير القرآن في ثلاثين جزءا"، و"أخبار الرسل والملوك" ،وتعرف بتاريخ الطبري.

المسعودي :

علي بن الحسين بن علي المسعودي (؟ ــ 346 ه) يتصل نسبة بعبد الله بن مسعود الصحابي الجليل، عرف بتنقله ورحلاته الكثيرة، صنف عديدة في التاريخ والجغرافيا، لم يصل إلينا منها سوى "مروج الذهب ومعادن الجواهر" و "التنبيه و الأشراف".

المقريزي :

أحمد بن علي المقريزي المعروف باسم "تقى الدين"، مؤرخ مسلم ولد 1364م بالقاهرة، وتوفي بها عام 1442 م ،من أهم مؤلفاته ، "السلوك لمعرفة دول الملوك"، "أنغاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطمين"، "إغاثة الأمة بكشف الغمة".

أرسطو :

هو أرسطو طاليس، فيلسوف يوناني تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، ولد باليونان عام 384 ق.م، وتوفي عام 322 ق.م، من أهم أعماله: "السياسة"،" ميتافيزيقا أرسطو"، "أورغاتون"، "فن الشعر".

أرغسطين:

قديس وفيلسوف ذو أصول رومانية، ولد عام 354 م، في مدينة سوق أهراس، وتوفي بعنابة عام 430 م، قدم مؤلفات على شكل حورات منها: السعادة، الشك، في عظمة الروح.

أحمد بن محمد الرازي :

مسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه أبو علي، مؤرخ، ولد بإيران عام 932 م وتوفي بها عام 1030 م، اهتم بالتاريخ والأدب أهم أعماله "تجارب الأمم"

فرنسيس بيكون :

فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، قائد الثورة العلمية القائمة على الملاحظة والتجريب، ولد عام 1561م وتوفي بالمملكة المتحدة عام 1626م، أهم مؤلفاته كتاب "الأورجانون الجديد".

جون لوك :

فيلسوف ومفكر سياسي إنجليزي، ولد عام 1632م بالمملكة المتحدة وتوفي بها عام 1704م، مارس التجريب العلمي ودرس الطب ،من أهم مؤلفاته مقال خاص بالفهم البشرين "رسالة في التسامح".

كوندورسيه :

رياضي وفيلسوف فرنسي، اشتهر بالإصلاح التربوي في عصره، ولد عام 1734م وتوفي بها عام 1794م، أهم مؤلفاته: تأملات في العبودية الزنجية، رسم للصورة التاريخية لتقدم العقل البشري.

جوته :

يوهان فولفغانع فون غوته، أشهر الأدباء الألمانيين، ولد بألمانيا عام 1749م وتوفي بها عام 1832م، أهم أعماله: فاوست، آلام فرتر، نظرية الألوان، التجاذب الاختياري.

ابن خلدون :

هو عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد، ولد عام 1332م في تونس، وتوفي عام 1406م، من أشهر مؤلفاته: "المقدمة"، "كتاب العرب وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وهو مؤسس علم الاجتماع الحديث ومن علماء التاريخ والاقتصاد.

قائمة المصادر و المراجع

قائمـــــــــة المصـــــادر والمـــــراجع

1. المصادر:

أ. باللغة العربية:

-1 المصادر

أ-باللغة العربية

فيكوجيان باتيستا – العلم الجديد – الكتاب الأول .

ب- باللغة الأجنبية

1- Berline , sir Isaiah , vico and Ideal of the enlighth ternement in : vico and coutemporary thought , edited by Giorgio , Tagliocozzo others,New York 1976

2- Vico G.B, New science ,trans by Thomas gooldard bergin and Harold fish , New York , cornell university press 1969 .

3- Rudin off , Lionel : vico and the verification of historical interpretation in : vico and coutemporary thought.

4- Pompa Leon : Vico Astudy of new science, Cambridge university ,press ,1975.

المراجع:

أ. باللغة العربية:

1. ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون وهي مقدمة كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار ابن الهيثم، مصر، ط1، 2005.

2. أبو السعود عطيات محمد،فلسفة التاريخ عند جامباتيستافيكحو، دار التنوير للطاعة و النشر و التوزيع، بيروت، د.ط، 2006.

3. أبو ريان محمد علي، أسلمة المعرفة العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية، دار المعرفة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 1997.

4. آدم متر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع أو عصر النهضة في الإسلامي، تعريب: محمد عبد الهادي أبوريدة، أعد فهارسة رفعت البدراوي، المجلد الثاني، الناشر: مكتبة الخانجي (القاهرة)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط.

5. أومليل علي، الخطاب التاريخي (دراسة لمنهجية ابن خلدون) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005.

6. بيرم داوود، الدليل في الفلسفة العربية، دار الكتب الحديثة، لبنان، بيروت، ط2، 1995.

7. ت.ج.دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، نقله إلى العربية و علق عليه محمد عبد الهادي أبوريدة، الدار التونيسية، أوميقا للنشر، الشركة الوطنية و التوزيع ، الجزائر، ط3، 1998.

8. ج.هرنشو، علم التاريخ، نر:وعلق حواشيه و أضاف إليه فصلافي التاريخ عند العرب: عبد الحميد العبادي، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ش.م.م لبنان، بيروت، ط2، 1982.

9. جليد قاد، العلية في تاريخ بين ابن خلدون و هيغل، مخبر الأبعاد القيمة للتحولات السياسية و الفكر بالجزائر، دار القدس العربي للنشر و التوزيع، وهران، ط1، 2013.

10. حجازي محمد عبد الواحد، فلسفة التاريخ، دار الوفاء لدنيا النشر و التوزيع، ط1، 2014.

11. حسن حنفي ,فيخته ,فيلسوف المقاومة,مركز الكتاب للنشر ,القاهرة ، دط، 2003.

12. الحسناوي عبد الرحيم، النص التاريخي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الغرب، د.ط، 2011.

13. حمزة ميمونة ميزغني، دراسات في منهجية البحث التاريخي، دار الخليج، عمان، الأردن، ط1، 2011.

14. خريسات محمد وآخرون، تاريخ الحضارة الإنسانية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، و النشر و التوزيع، الأردن، دار اليازوري، عمان، الأردن، ط1، 2011.

15. خليل عماد الدين، مدخل إلى التاريخ الإسلامي، المركز الثقافي العربي ، الدار العربية للنشر،ط1، 2005.

16. دلو برهان الدين، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، المؤسسة الوطنية للإتصال و النشر و الإشهار (Anep) دالي إبراهيم، الجزائر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2001.

17. الدوري عبد العزيز، نشأة علم التاريخ، عند الغرب، الفهرسة أثناء النشر، إعداد مركز دراسات الوحدةالعربية، ط1، 2005.

18. رزيق قسطنطين، نحن و التاريخ، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط5، 1981.

19. رسل برتراند، تر: فؤاد زكريا، حكمة الغرب، الفلسفة الحديثة و المعاصرة، ج2، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2010.

20. الرفاعي أنور، الإنسان العربي و التاريخ، دار الفكر، دمشق سوريا، د.ط، 1971.

21. الزيدي مفيد كامل، المدخل إلى الفلسفة التاريخ، دار المناهج للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006.

22. سالم محمد عزيزنطمي، جدلية التاريخ و الحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، 1996.

23. سعدالله أبو القاسم، شعوب...و قوميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1985.

24. سليم رضوان، نظام الزمان العربي، دراسة في التاريخيات العربية الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006.

25. السواح فراس، الأسطورة و المعنى، دراسات في الميثولوجيا و الديانات المشرقية، دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1997.

26. الشامي، فاطمة قدورة، علم التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

27. شراب محمد محمد حسن، في أصول تاريخ العرب الإسلامي، دار القلم، دمشق، الدار السامية، بيروت، ط1، 1993.

28. الشيخ رأفت غنيمي، فلسفة التاريخ، دار الثقافة و النشر و التوزيع، القاهرة، د.ط، 1987-1988.

29. الشيخ رأفت، محمد علي، تفسير مسار التاريخ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، مصر، د.ط، 2000.

30. شيخاني سمير، أعلام الحضارة، ج3، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1981.

31. الصباغ ليلى، دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، سوريا، د.ط، 1978، 1979.

32. صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، 1994.

33. صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، ط4، 2004.

34. صبحي أحمد محمود، وجعفر صفاء عبد السلام، في فلسفة الحضارة (اليونانية، الإسلامية، الغربية)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

35. الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، المجلد1، ج2، مكتبة خياط شارع بلس، بيروت لبنان، د.ط.

36. عاصي حسين، ابن خلدون مؤرخا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991.

37. عطيتو حربي عباس، و عبيدان، موزة محمد، مدخلإلى الفلسفة و مشكلاتها، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

38. عوض، لويس، دراسات في النظم و المذاهب، مركز المحروسة للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات، القاهرة، ط1، 2014.

39. غي تويليه، جان تولار، صناعة المؤرخ، تر: عادل العوا، دار الكلمة للنشر و التوزيع والطباعة، دمشق، ط1، 1999.

40. فروخ عمر، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1983.

41. الفقى عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ الفكر الإسلامي، دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، مصر، د.ط، 2001.

42. قاسم قاسم عبده، في تطور الفكر التاريخي، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، الهمرم، مصر، د.ط، 2008.

43. قاسم قاسم عبده، قراءة التاريخ تطور الفكر و المنهج، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، ط1، 2009.

44. قاسم محمد محمد، المدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعيةة للطبع و النشر و التوزيع، الإسكندرية، د.ط، 1995.

45. قنصوة صلاح، الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة و النشر و التةزيع، د.ط، 2007.

46. ماكس هوركهايمز، محمد علي اليوسفي، بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت لبنان، د.ط، 2007.

47. محاسيس نجاة سليم محمود، مفاتيح علم التاريخ، دار زهران للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013.

48. محمد علي عبد المعطي، المدخل إلى الفلسفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1994.

49. مرحبا محمد عبدالرحمن، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، منشورات عويدات\بيروت-باريس و للمؤسسة الوطنية للكتاب\ الجزائر بموجب عقد نشر المشترك رقم170، ط3، 1988-1989.

50. المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر، المجلد الأول، المطبعة الوطنية، باريس، الرقم4\293، د.ط.

51. ملحم قربان ــ قضايا الفكر السياسي ــ القوة ــ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 ،1983 بيروت ــ لبنان .

52. مهران محمد بيومي، التاريخ و التأريخ، دراسة في ماهية التاريخ و كتابته و مذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، د.ع.

53. النشار مصطفى حسن، فلسفة التاريخ معناها و نشأتها و أهم مذاهبها، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2012.

54. نصار ناصيف، مفهوم الأمة بين الدين و التاريخ، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط5، 2003.

55. نصر الله سعدون، المدخل إلى علم التاريخ، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2007.

56. هازار بول، الفكر الأوروربي في القرن الثامن عشر، ج1، تر: محمد غلاب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ط، 1959.

57. هيجل، العقل في التاريخ المجلد الأول، من محاضرات ف فلسفة التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط3، 2007.

ب. باللغة الأجنبية: (الفرنسية):

1. Abdelkader Djeghloul , Trois etudes sur Ibn Khaldoun ,N° étudiant 1014181
2. Bréhier , émule ; Histoire de la philosophie tourne 1 la philosophie moderne
3. Jean chard cuy palmade l'histoire seconde édition revue et corrigée ,librairie armand colin paris
4. L'entreprise national du livre Alger , 1984
5. Paris presses universitaire de France 1947.
6. Pouscpa,lean : human nature and the concept of human science in : vico and coutemporary thought , edited by Giorgio , Tagliocozzo others,New York 1976
7. Yves Lacoste Ibn khaldoun naissance de l'histoire passé du tiers monde paris 5 eme edition 1980

3. المجلات و الدوريات:

أ. باللغة العربية:

1. بن الأحرش عبد العزيز، دور المخلفات الأثرية في دراسة التاريخ القديم، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري، قسنطينة، عدد 12، ديسمبر1999، تم الطبع و السحب بشركة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

2. بن شرقي بن مزيان، تصنيف العلوم عند العرب بين البعد المعرفي و قلق المصير، مجلة عصو، 6-7، جوان ديسمبر 2005، يصدرها مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران.

ب. باللغة الأجنبية:

1. Abdelkader djeghloul, majallat el-tarrikh, actes du colloque international ser ibn khaldoun, alger 21-26 juin 1978, societé nationale d'édition et de diffusion, alger, 1982.

2.

ب. الرسائل الجامعية:

1. بن مزيان بن شرفي، علاقة الفلسفة بالتاريخ من خلال كتاب البدء و التأريخ (لأبي طاهر المقدسي) أطروحة دكتوراه في الفلسفة: إشراف أ.د. فتحي التريكي، قسم الفلسفة جامعة وهران، 1999-2000.
2. جليد قادة، تعليل التاريخ مابين ابن خلدون و هيجل، دراسة نقدية تحليلية مقارنة، أطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د. عبد اللاوي محمد، قسم الفلسفة، جامعة وهران، 2005، 2006.

ت. قائمة المعاجم:

1. الحفني، عبد المنعم، المصطلحات الفلسفية، الكتاب المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، الناشر، مكتبة مدبولي، 6 ميدان طلعت حرب، القاهرة، ط3، 2000.

2. صليبا جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية و الإنجليزية و اللاتينية، ج2: دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، 1979.

3. مذكور إبراهيم، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، د.ط، 1402ه-1982م.

4. نبهان يحي محمد، معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا العلمية للنشر و التوزيع، الأردن، عمان، د.ط، 2006.

5. حسيبة مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر و التوزيع، ط1، 2009.

6. كميل الحاج ,الموسوعة الميسرة في الفكر الاسلامي والاجتماعي ,مكتبة لبنان ناشرون ,بيروت ,ط1 ,2000.

فهرس المصطلحات :

اللاتينية	الفرنسية	الإنجليزية	العربية
libertas	Liberté	Liberty/freedom	حرية
	Etat	state	دولة
status	état-cité	Sity-state	دولة مدنية
democratia	D émocratie	democrary	ديمقراطية
religio	Religion	riligion	دين
	subjectivsime	subjectivism	ذاتية
tempus	Temps	time	زمان
Ralio	Raison	reason	سبب
politica	politique	politics	سياسة
	biographie	biography	سيرة
populus	Peuple	people	شعب
	Lutte de classe	Class strunggle	صراع طبقي
natura	Nature	nature	طبع
classis	Classe	class	طبقة

naturalis	Naturel	natural	طبيعي
	naturisme	naturism	طبيعية
intellectus	Intellect	intellect	عقل
dogma	Dogme	dogma	عقيدة
causa	Cause	cause	علة
scientia	Science	science	علم
Finis	Causqlité fine	end	غاية
intinctus	Intinct	instinct	غريزة
suppositio	supposition	supposition	فرض
épistémologia	épistémologie	epistemology	إبستيمولوجيا
	Effet	effect	أثر
Acternitas parte ante	preéternité	Pre-eternity	أزل
	mythologie	mythology	علم الأساطير
dogmatica	dogmatique	dogmatics	إعتقادات

	impérialisme	imperailism	إمبريالية
contemplation	contemplation	contemplation	تأمل
experentia	éxpérience	experiment	تجربة
	Analyse	analysis	تحليل
	évolution	evolution	تطور
causatio	causation	Causation	تعليل
explanatio	explanation	Explanation	تفسير
pensare	Penser	thinking	تنكير
anterioritas	antériorité	anteriority	تقدم
	Genre	genus	جنس
presens	Présent	present	حاضر
	Sens commun	Common sense	فطرة
regla	Régle	rule	قاعدة
lingua	Langage	language	لغة
	gnoséologie	gnosiology	مبحث المعرفة
principium	Principe	principle	مبدأ

الفـــــهـــــرس

فهـــــــــــــرس الموضـــوعـــــات

كلمة شكر

الإهداء

المقدمة : ..... أ

الفصل الأول: أسسالنظريةالتاريخيةوالمنهجقبل "فيكو"

شبكة المفاهيم الأساسية : 10

أ. النظرية: 10

ب- المنهج: 11

ج- النقد: 12

د- التاريخ: 12

المبحث الأول: الإغريق والنظرية التاريخية والمنهج 13

ملامح الوعي التاريخي عند اليونان: 13

التطورات الدينية عند اليونانيين: 14

دولة المدينة البوليس polis : 15

نشأة علم التاريخ عند الإغريق: 16

صور وأشكال المعرفة التاريخية عند الإغريق: 17

1-ولادة الوعي التاريخي الإغريقي: 17

-ارتباط المعرفة التاريخية بالأسطورة والخيال:.....19

-الإعتماد على الرواية الشفوية: 20

-النقل الجاف للرواية: 21

-جعل الإنسان محرك تاريخ:.....21

2نمو الوعي التاريخي عند الإغريق:.....23

المنهج التاريخي عند هيرودوت: 25

تحديد أهداف و غايات التاريخ: 25

اللجوء إلى التحري للروايات التاريخية:.....26

ربط التاريخ بالجغرافيا و بعلوم أخرى:.....26

تأثر كتابات هيرودوت التاريخية بالفلسفة الطبيعية :.....26

البعد عن التعصب و الحياد :.....27

تعليل الحوادث التاريخية: 27

المبحث الثاني: الفلسفة المسيحية والتأسيس لعلم التاريخ 33

علم التاريخ في العصور الوسطى الأوروبية: 33

إرتباط التاريخ بالدين المسيحي:.....34

مؤرخو العصور الوسطى و مناهجهم: 36

-النظرة الفلسفية في منهج القديس أوغسطين التاريخي: 39

مظاهر الكتابة التاريخية في العصور الوسطى: 40

الحوليات: 41

كتب الوقائع: 42

كتب السير: 43

مبادئ المنهج التاريخي في العصور الوسطى: 44

المبحث الثالث: النظرية التاريخية والمنهج عند مؤرخي الإسلام 47

خطوات المنهج التاريخي عند الطبري: 48

مبادئ المنهج التاريخي عند المسعودي: 52

المنهج والنظرية التاريخية عند ابن خلدون: 56

علم التاريخ عند ابن خلدون: 57

مغالط المؤرخين: 58

نظرية ابن خلدون التاريخية: 60

قانون العلية والسببية: 62

قانون التشابه: 62

قانون الاستحالة وعدم الإمكان: 63

نظرية ابن خلدون التاريخية وتجديدها: 64

قواعد المنهج التاريخي: 66

التاريخ العربي والنقد العلمي: 67

الفصل الثاني: العلم الجديد عند فيكو والتأسيس للمنهج التاريخي

تمهيد :..... 70

المبحث الأول :فيكو و الواقع التاريخي لفلسفات عصره 71

السيرة الذاتية لفيكو و آثاره العلمية : 71

بدايات التفكير التاريخي في القرن الثامن عشر: 74

فيكو و فلسفات عصره:..... 77

موقف فيكو من المنهج الديكارتي: 77

نقد فيكو لنظريات القانون الطبيعي: 81

المبحث الثاني : أصول العلم الجديد 87

العلم الجديد عند فيكو:..... 88

أصول العلم الجديد و التأسيس لقيام علم التاريخ:..... 90

1. أوهام المؤرخين : 91

2.الفلسفة و اللغة: 92

3.القانون الطبيعي للشعوب: 95

4.أصل الجنس البشري: 96

5.قانون تطور الأمم:..... 97

.6الميثولوجيا: 100

.7الشعر و التاريخ:..... 102

.8التاريخ المثالي الأبدي : 103

.9عامل الجغرافيا و أثره في تأسيس الشعوب:..... 105

.10تطور القوانين تبعا لتطور العقل البشري:..... 106

المبحث الثالث: مبادئ العلم الجديد و التأسيس للمنهج التاريخي: 108

مبادئ العلم الجديد عند فيكو:..... 115

المنهج عند فيكو: 120

.1الأدلة الفلسفية :..... 121

.2الأدلة اللغوية :..... 124

خصائص المنهج :..... 124

الفصل الثالث : أسس النظرية التاريخية عند فيكو و تأثيراتها

المبحث الأول: قانون تطور الأمم : 128

مفهوم التطور عند فيكو: 129

العودة التاريخية عند فيكو : 130

العصور التاريخية وخصائصها : 135

بعصر البطولة أو الأبطال: 138

ت.العصر الحجري أو عصر الإنسانية :.....140

أسباب ظهور النظام البشري و الديمقراطيات.....140

.2التطور العلمي و المعرفي:.....141

خصائص العصر البشري :.....142

الخصائص المشتركة بين العصور الثلاثة:.....143

رجعة العصور التاريخية أو عودة مسار الأمم: 144

المبحث الثاني :مبادئ النظرية التاريخية عند فيكو 151

طبيعة علم التاريخ :.....152

أسس المعرفة التاريخية عند فيكو:.....154

نظرية التاريخ المثالي الأبدي:.....156

التاريخ المثالي الأبدي و التحليل التاريخي: 157

أقسام نظرية التاريخ المثالي: 159

مميزات نظرية التاريخ المثالي الأبدي: 161

المبحث الثالث : تأثير فيكو في الفكر الفلسفي الغربي.....164

.1النزعة النقدية: 166

2النزعة الإنسانية: 168

خطوات ومنهجية المؤرخ في العصور الحديثة:.....173

1ــ طرح الاشكاليات التاريخية: 173

2ــ صياغة مجموعة من الفرضيات: 174

3ــ جمع المادة التاريخية: 175

4ــ التعريف بالحوادث التاريخية: 175

التفسير التاريخي او التعليل التاريخي: 176

التركيب التاريخي: 176

قانون العودة التاريخية: 178

فكرة التقدم أو التطور: 182

تأثيرات فيكو في الفكر الإيطالي: 185

فلسفة التاريخ مابعد فيكو 188

تأثير فيكو في الفكر الماركسي: 194

الخاتمة: 198

قائمـــــــة المصـــــادر والمـــــراجع 206

فهرس المصطلحات : 217

فهـــــــــــرس الموضـــوعـــــات 222